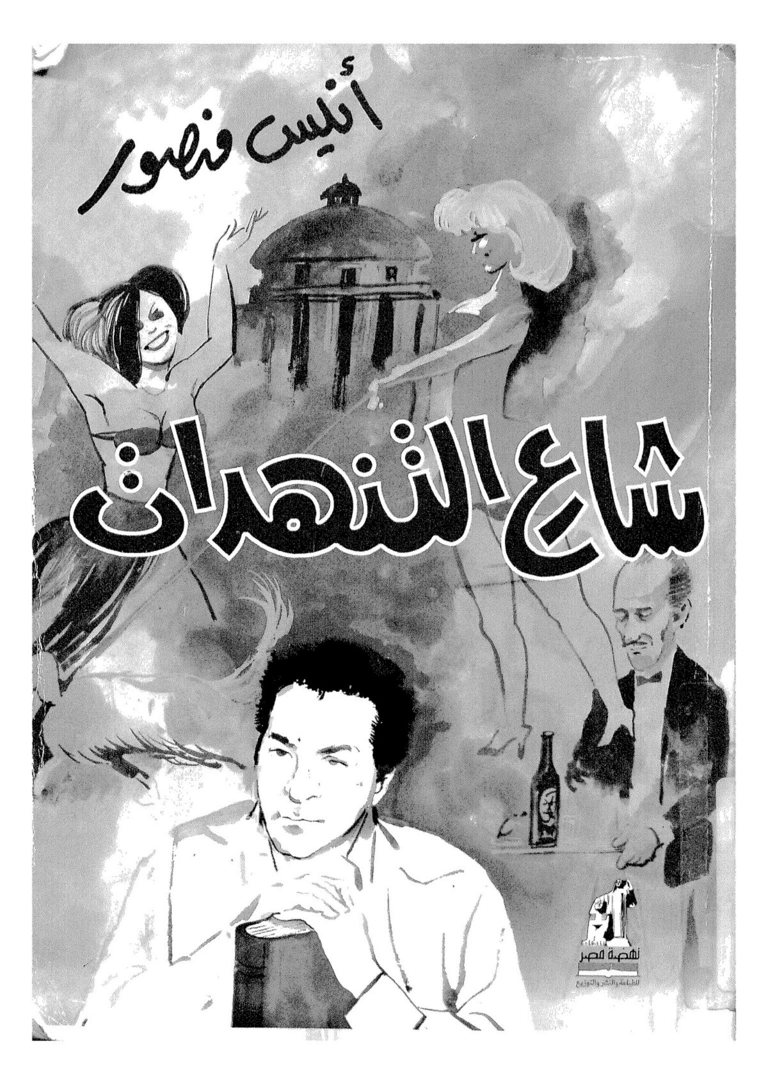

أنيس منصور
شارع التنهدات
نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع

منحة 2005
SIDA
السويد



الحائز على جائزة مبارك فى الآداب

شارع التنهدات

خطــوة أرق
وخطـوة عرق



اسم الكتاب: شارع التنهدات.
المؤلف: أنيس منصور.
إشراف عام: داليا محمد إبراهيم.
تاريخ النشر: يناير 2005م.
رقم الإيداع: 2003 / 8670
الترقيم الدولي: ISBN 977-14-2139-5

الإدارة العامة للنشر: 21 ش أحمد عرابى - المهندسين - الجيزة
ت: 3466434(02)-3472864(02) فاكس: 3462576(02) ص.ب: 21 إمبابة
البريد الإلكترونى للإدارة العامة للنشر: Publishing@nahdetmisr.com

المطابع: 80 المنطقة الصناعية الرابعة - مدينة السادس من أكتوبر
ت: 8330287 (02) - 8330289 (02) - فاكس: 8330296 (02)
البريد الإلكترونى للمطابع: Press@nahdetmisr.com

مركز التوزيع الرئيسي: 18 ش كامل صدقى - الفجالة - القاهرة - ص. ب: 96 الفجالة - القاهرة.
ت: 5909827 (02) - 5908895 (02) - فاكس: 5903395 (02)

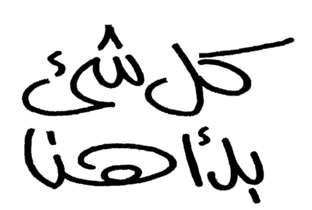
مركز خدمة العملاء: الرقم المجانى: 08002226222
البريد الإلكترونى لإدارة البيع: Sales @nahdetmisr.com

مركز التوزيع بالإسكندرية: 408 طريق الحرية (رشدى)
ت: 5230569 (03)
مركز التوزيع بالمنصورة: 47 شارع عبد السلام عارف
ت: 2259675 (050)

موقع الشركة على الإنترنت: www.nahdetmisr.com
موقع البيع على الإنترنت: www.enahda.com



كلمة أولى :



كأننى كنت أتفرج على نفسى عندما رافقت د . طه حسين إلى الأوبرا لكى أشاهد مسرحية (يا طالع الشجرة) لتوفيق الحكيم . وهى باكورة (أدب العبث) فى اللغة العربية . .

ولم تذهب من أذنى دعينى ضحكة طه حسين أو ابتسامته الساخرة وهو يتابع أحداث المسرحية . .

ولا غابت عن أذنى قهقهة الاستاذ العقاد عندما قرأ مقالا لى أبدى إعجابى بمسرحية توفيق الحكيم .

أما طه حسين فقال أن توفيق الحكيم لم يأت بجديد . فقد سبقه إلى هذا الأسلوب شعراء فرنسا : لوتريومون ورامبو وبودلير . . فعندهم شعر مثل نثر توفيق الحكيم : هلوسة . . تخريف . . هاها . .

والأستاذ العقاد استنكر كيف أننى أتحمس للعقل دائما ولا أقبل إلا ما كان معقولا . وأضحى من أجل الحرية الفردية بكل شىء . . وبعد ذلك أقبل من

توفيق الحكيم أن يعتقلنى فى كلام فارغ ساعتين !! . . أين عقلى ؟ أين هى الحرية الفردية ؟!

ومعنى ذلك أن توفيق الحكيم قال كلاما فارغا ويطلب منا أن نحترم هذا الهذيان . . وأن نحترم من أدباء اللا معقول فى فرنسا : يونسكو وأداموف وبيكيت وغيرهم!!

ولكننى أرى أنهم ليسوا مخرفين . . أنهم يريدون أن يقولوا لنا : ليست كل تصرفات الإنسان عاقلة . . فهناك تصرفات المجنون والسكران والمسطول والقرفان . . وكذلك الذى يتحدث إلى نفسه دون أن يدرى بالذين حوله . . فمن الممكن أن يكون الإنسان وسط ألف من الناس ثم لا يدرى بهم . . فهو يشعر بأنه وحيد ويتحدث إلى نفسه بصوت مرتفع . .

ويريد أدباء اللامعقول أن يقولوا لنا أن هذا السلوك اللامعقول واضح فى المدن الكبرى . . حيث الناس كثيرون . . ومع ذلك يشعرون بوحدة شديدة . .

وكذلك حال الأجنبى فى بلد غريب لا يدرى لغته ولا يعرف حياته وعاداته . . فإذا تكلم فهو ليس مفهوما ، مهما حاول . . هذا الشعور بالغربة أو بالغرابة أو الاغتراب من أهم صفات الأجانب والمهاجرين والأقليات والغجر والمنبوذين . .

مثل هذا الشعور قد لازمنى معظم حياتى . . شعورى بالغربة والاغتراب . . وبأننى غريب . . فقد كان والدى كثير التنقل بين قرى مصر . فلا نكاد نمكث فى مكان بعض الوقت حتى أجد أمى قد ربطت وحزمت الحقائب والصناديق استعدادا للسفر الى بلد جديد . . ولهذا السبب لم أستطع كثيرًا أن أقول : بلدنا . . بيتنا . . شارعنا . . أصحابى . . جيرانى . . أهلى . .

وقد استقر فى أعماقى أن الذى أراه اليوم لن أراه غدا ، ولن يكون له وجود بعد ذلك . . مع أن كل شىء فى مكانه : الناس والبيوت والشوارع والمدارس والجيران والأقارب واللغة والدين والطبقة ، والأمل فى أن أتفوق وأن أدخل الجامعة . . كل ذلك ثابت . . ولكنى أنا لا أراه كذلك ، ولا أراه قد استقر واستكان فى نفسى . . كأننى لست على يقين من شىء أو أحد . . فمن أدرانى أننى سوف أجد صديقا . . أو أن أجد جارا ، أو أذهب الى المدرسة وبعدها إلى الجامعة . . إننى لا أدرى . . وليس فى حياتى ما يؤكد ذلك . .

وقد التصقت بلسانى تعبيرات كرهتها بعد ذلك : مش عارف .. يمكن .. ربما .. يجوز سوف أسأل أمى .. ليست عندى رغبة فى الكلام ..

وأيقنت فيما بعد أنه ليس من الضرورى أن تقول أمى أى شىء ، ففى استطاعتى أن أرى وأن أفهم وأن أقرر .. ولكنها عادة سيئة لم أتخلص منها إلا بعد وقت طويل ..

وكثيرا ما أحسست بأننى مثل أبطال (ألف ليلة) الذين يحملهم النسر بعيدا ثم يلقى بهم فى مكان مجهول .. وهم لا يعرفون أين ؟ .. ولا لماذا ؟ .. ولا أكاد استقر حتى يجىء النسر ويحملنى بمخالبه ويطير .. ويلقى بى فى أرض غريبة . لماذا ؟ لا أعرف . ما المعنى ؟ لا أدرى ..

لقد تذكرت القوات النازية التى كانوا يلقون بها من الطائرة فى البلاد التى سوف يحتلونها بعد ذلك .. يلقونهم بالمظلات ..

ومع كل منهم موتوسيكل وخريطة وبعض الطعام .. والمطلوب من كل جندى أن يتحرك مع زملائه .. إنها خطة حركة وانتقال .. وليست لديه لغة ولا أية وسيلة للتعامل مع الناس .. فالذى يعرفه الجندى قليل جدا والمطلوب منه كثير جدا .. ولا يكاد يعرف موطئ قدميه حتى يحملوه فى طائرة أخرى ليسقطوه بمظلة فى مكان جديد ..

وهذا بالضبط ما أصابنى .. فعندما جئت من المنصورة إلى القاهرة أحسست بهذا السقوط من الطائرة .. وبالأرض الغريبة .. لقد كانت صدمة عنيفة .. فكل شىء فى القاهرة كبير وواسع .. وكل شىء كثير فازددت شعورا بالعزلة والغربة .. وعلى الرغم من أن فى حياتى الكثير من الثوابت فإننى أفتقدها دائما : فأنا ترتيبى الأول .. وأعرف عدة لغات .. وأحببت الفلسفة وتفوقت فيها على جميع المتسابقين فى مصر .. ودخلت قسم الفلسفة باختيارى .. ولى اهتمامات أدبية واسعة .. ومعلوماتى أكثر وأوسع وأعمق وأشد تنوعاً .. ولا خوف على .. ولا يهم إن كان عدد سكان القاهرة خمسة ملايين .. وفى الجامعة عشرات الألوف .. فيوم الامتحان هو الذى سوف يثبت أننى الأول .. ما الذى يخيفنى ؟ .. ما الذى يزلزلنى فأقول كلاما غير منطقى إذا سألنى أحد : ماذا تريد أن تكون ؟

ويكون الرد فى كثير من الأحيان : لا أعرف . . ولكن أمى تريدنى أن أكون وزيرا ؟ ! والذين يسمعون ذلك يضحكون منى . إننى أردد أمنيات أمى كالببغاء دون أن أفكر فيها . .

إنه ـ ولا شك ـ نقص فى التدريب على الحوار مع أحد . . وعلى أن أكون قريبا لا غريبا . . وعلى ألا أتهيب . . ألا أخاف . . فليس هناك ما يفزعنى على نفسى . . وأن أظل هكذا منطوياً على خوفى . .

وكثيرا ما أحسست كأننى أحد أبطال مسرحيات اللامعقول . . وأننى قرفان من النص المسرحى . . وأننى رافض لكل هذا الذى أقوله . . لأننى قلته طول عمرى . . وأننى أحاول أن أخلق رأيا عاما ضد المؤلف والمخرج عندما تركت المسرح ونزلت إلى الجمهور أسألهم عن رأيهم . .

لقد تخرجت فى قسم الفلسفة وكان ترتيبى الأول ، رحت أسأل كل الناس ما الذى يمكن أن أعمله ؟ ما رأيك يا سيدتى ؟ . . ما رأيك يا سيدى ؟ . . ولابد أن يكون الإشفاق على هو الذى جعل الكثيرين يبذلون جهدا كبيرا فى الإجابة عن هذا السؤال ؛ لأن السؤال قد اتخذ عندى شكل الأزمة حتى صار طعمه مراً . . وشكله كئيبا ـ يكفى أن تنظر إلى وجهى فى ذلك الوقت وأنا أسأل وانتظر . . مع أن الأمر سهل جدا : لقد تخرجت فى قسم الفلسفة . وفى استطاعتى أن أمضى فى الدراسة الأكاديمية كما أراد أساتذتى ، وأصبح أستاذا جامعيا فعميداً . . فوزيرا!

أو أتجه إلى ناحية أخرى فأهاجر من مصر إلى أى بلد وباللغات الكثيرة التى أعرفها أستطيع أن أكون كما أريد . . أو أشتغل بالكتابة الأدبية والتأليف الفلسفى . .

وعلى الرغم من أن كل هذه الإجابات محددة واضحة ، فإننى لم أعرف فى ذلك الوقت ما هى الخطوة التالية . .

ففىّ جميع الأحوال : القرار من صنعى . . فأنا أصنع قرارى وأصنع نفسى أيضا . . هكذا علمتنى (الفلسفة الوجودية) التى أنادى بها . . والتى لم تثبت أمام هذه التجربة البسيطة . . التجربة الرافضة لكل تجربة أخرى وكل قرار . .

وعلى الرغم من أننى تلقيت إجابات كثيرة ، فإن قوة فى أعماقى ترفض .. تقول : لا .. تدير ظهرها .. تمط شفتيها فى قرف .. ويأس من أن أجد حلا لمشكلتى .. لمعضلتى .. والتى ليست مشكلة وليست معضلة .. ولكن الفلسفة الملعونة هى التى علمتنى أن أجعل كل شىء مشكلة لكى أجد لها حلا .. حتى إذا لم تكن مشكلة فأنا لا أعرف كيف أواجهها إلا إذا كانت عقدة .. ورحت أدير رأسى يمينا وشمالا لعلى أجد لها حلا .. أو أشرك غيرى فى هذه المعضلة ..

وليس فى فلسفتى شىء بديهى .. وإنما كل شىء لغز .. سر .. معجزة .. أسطورة .. يريد حلا ..

وضاعت من العمر سنوات طويلة لا أحل فيها المشاكل .. ولكننى أتباهى بكثرتها .. وتعقيدها ..

وأنا عندما تخيلت نفسى أحد أبطال مسرح اللامعقول ونزلت إلى الجمهور لم أكن أبحث عن حل عند الناس .. وإنما كنت أبحث عن تأييد لهذا النوع من التفكير اللامنطقى واللاعقلى ..

كأننى واحد من ذلك الطراز من الناس الذين يخنقون أنفسهم .. يشنقونها ثم يطلبون من الناس العفو والسماح ..

أو مثل ذلك المجرم الذى قتل أباه وأمه ووقف أمام القاضى يطلب الرحمة لأنه أصبح يتيما !

أو كما أراد توفيق الحكيم : أن أبحث عن اللبن عند بقرة فوق شجرة !!

طه حسين بذكائه وفطنته هو الذى قال لى بسرعة : إن هذا الذى تعانيه يا سيدى هو تجربة وجودية من الدرجة الأولى .. مشكلة .. معضلة .. أزمة .. معايشة أزمة وتجميل لهذه المعايشة .. دون حل .. أو دون رغبة فى ذلك ؟!

صح يا أستاذنا العظيم .. ولعنة الله على الفلسفة .. وعلى الفلسفة الوجودية بصفة خاصة !!

وأتذكـر فى أول مـرة سـافـرت إلى أوروبا مع عـدد من كـبـار فنانى مـصـر التشكيليين . . كانت عندنا مشكلة يومية عندما نحاول الجلوس على ظهر المركب ، نظل واقفين لأن آخرين قد سبقونا واحتلوا مقاعدنا ، فاهتدينا إلى حيلة . . لا أعرف من الذى اخترعها . . أنا أو الفنان عبد السلام الشريف أو الفنان صلاح طاهر أو الفنان حسن فـؤاد . . وكـانت حيلة بسيطة جـدا ، نقف أمـام الناس الجالسين ونتكلم كلاما فارغا وبصوت مسموع ويندهش الناس وينظرون بعضهم إلى بعض . . وفى لحظة يقررون أننا مجانين . . فيتركون لنا المكان ، ونجلس فى منتهى الهدوء ، فقد أدى الكلام اللامعقول إلى حل معقول ، وكان حوارنا هكذا :

ـ وأنت عملت له ماذا ؟

ـ ولا حاجة . . ذبحته . وقطعته وألقيت به للكلاب . .

ـ معقول ؟ ! ولماذا لم تشعل فيه النار ، وبالشكل ده تختفى معالم الجريمة . .

ـ هذا ما فعلته بالضبط فى زوجته . .

ـ متى ؟

ـ قبل سفرنا . .

ـ وماذا سوف تفعل اليوم . .

ـ نفس الطريقة . . أدخل غرفة القبطان وألف الحبل حول رقبته .

ـ عندك حبل ؟

ـ عندى . . وعندى مواد مخدرة . .

ـ أين ؟

ـ معى . .

ـ وماذا ستفعل فى هذا العدد الكبير من الناس الذين حولنا . .

ـ كما اتفقنا . . سوف نلقى بواحد منهم فى البحر . . والباقى سوف يهربون . .

ـ . . . .

وبسرعة ينظر الناس بعضهم إلى بعض . . ويمشون على أطراف أصابعهم . . ويتركون لنا المقاعد . . وأحيانا مائدة الطعام . .

إنه كلام فارغ من أجل هدف . . أو كلام لا معقول من أجل حل معقول !

لقد كانت هناك مشكلة ووجدنا لها حلا .

حتى عندما اشتغلنا بالصحافة ، لم أستغرق فى همومها ومشاكلها اليومية . . ولم أقتحم ميادينها . . وإنما ظللت على شاطئها فى أجمل مكان منها : فى الصفحة الأخيرة . . صفحة الأدب والشعر والفن والنقد . . ولم أبرح هذه الصفحة الأخيرة طول عمرى . . كتبت القصة والقصيدة والمقالة واليوميات و (مواقف) سواء فى جريدة « الأساس» أو فى جريدة «الأخبار» و « أخبار اليوم » و « الأهرام » . . ولم يكن انتقالى صعبا من الصحف اليومية إلى المجلات الأسبوعية : الجيل وهى وآخر ساعة وروزاليوسف والمصور وأكتوبر . . فأنا أكتب نفس النوعية من الفكر الأدبى والنفسى والفلسفى والسياسى . . حتى عندما كان لى باب يومى كانت لى فى نفس الوقت مقالات أخرى أسبوعية . .

ولذلك لم تطحنى عجلات السرعة فى الصحف اليومية ، وإنما كان عندى وقت لكى أقرأ على مهل . . وأكتب على مهل . .

حتى بعد أن تحدد حاضرى ومستقبلى نهائياً كنت أسأل الناس : ما الحل ؟ هل أمضى فى هذا العمل ؟ هل أتركه ؟

مع أننى وجدت الحل ، ولا مشكلة هناك . . ولكنى أريد إحياء المشكلة وأعايشها وأطيل فى عمرها ليتخذ تفكيرى مذاق الأزمة والمحنة والكارثة . .

واكتشفت أنه لا مشكلة هناك ، فأنا كالذى يشرب القهوة سادة ليس بسبب نقص السكر ، ولكنه يحبها كذلك . . فأنا ـ مثلا ـ أشرب القهوة سادة وأشرب الشاى بالعسل . . فأحسن مذاق للقهوة أن يكون بلا سكر ، وللشاى أن يكون بالعسل . . وهناك من يفضل القهوة بالسكر والشاى السادة . . إنها مسألة مذاق ومزاج ، ثم تصير عادة بعد ذلك . .

هل أنا أقلد (قوس قزح) الذى تكون ألوانه زاهية لامعة كلما كان السحاب تحته أسود قاتما . . هل أنا حريص على الألوان ، ولذلك فأنا أكثر حرصا على سواد السحاب . . هل من أجل هذه الألوان أجعل الدنيا سوداء . . سادة ؟

وعرفت فيما بعد أنه ليست هناك أزمة نفسية أو عقلية . . أو فلسفية . . وإنما هى (أزمة فنية) البحث عن أزمة الألوان والتعبير عنها . . أى أنها أزمة (تقنية) . . أزمة حرفة الكتابة وحرفة الفن . . والفنان صانع ألوانه ومشاكله . . وهو يحبس نفسه بنفسه لكى ينتج . . يخربش نفسه بأظافره ليصرخ ، يعتصر عينيه ليبكى . . فهو مثل حيوان اللؤلؤ الذى يفرز دموعه الفضية فى عزلة تامة . . ومثل دودة القز التى تحيك حولها كفنا من الحرير . . تموت فيه ثم تظهر فراشة لتستأنف الحياة من جديد . .

هل كان فى استطاعتى أن أوفر على نفسى كل هذا العذاب؟ لا . . إنها مرحلة ضرورية يمر بها الكاتب والفنان . . يمر بها سريعا أو بطيئا . . يتوقف عندها . . ولكن لا يدعها توقفه . . توقف نموه . . وتجهضه . . وتجهز عليه بعد ذلك . .

فأنت إذا نظرت الآن إلى ملابسك وأنت طفل . . فأنت لا تعرف إن كانت لك أو لغيرك . . فأنت لا تستنكرها ولا تسخر من طفولتك . . فهى مرحلة من عمرك . . جاءت وذهبت . . وبعدها مراحل تمضى . .

إنما يجب أن نقول ونمضى . . ونتغير ونمضى . .

إن يدى هذه قد دقت أبوابا كثيرة برفق وبعنف . . وفتحت أذنى لما أحب وللذى لا أحب . . وأعطيت عقلى لأفكار كثيرة ومفكرين كثيرين . . أحياء وأموات . . وأموات أكثر . . ووجدت ما أقوله . . وقلت . . وليس عندى ما أخجل منه . . فأنا أردت أن أعرف . . أن أعرف نفسى بنفسى أو عن طريق غيرى . . ورحت أشهد الناس على فكرى . . على قرارى . . ولم أتخذ أعظم قرار . وإنما تابعت نفسى ، ووصفت حالى . . وعلقت على جدران حياتى صورة هى صورتى . . ليست أجمل الصور ولا أسلوبى أجمل الأساليب . . ولكننى هكذا .

ثم جلست على سلالم كثيرة . أفكر فى أمرى . كأن الدنيا ليس بها غيرى . . وهذا صحيح . . فدنياى هى أنا . . أنا أحسن من فيها أو أسوأ . . ولكنها دنياى . . وهناك ملايين الناس كل واحد منهم له دنياه . .

ولا أدعى أننى أحسن من الذين فكروا فى حالى . أو أننى أعقل من كل الذين ناقشوا مشكلتى . . ولكنها فى جميع الأحوال مشكلتى . وقرارى . وهذا أقصى ما استطعت . .

هل كان فى الإمكان أحسن مما كان ؟ يجوز .

ولكن هذا أقصى وأقسى ما بلغت . .

كم ألف مرة قلت : آه . . كم ألف مرة تنهدت . . يوم أن اشتغلت بالصحافة . . وقبل ذلك عندما كنت طالبا وعندما كنت طفلا وحفظت القرآن الكريم فى السابعة من عمرى . . وتمنى لى الناس أن أكون أستاذا فى الأزهر . . وأمى تقول أن الموت أهون عليها من أكون قارئا أعمى أو مؤذنا فقيرا أو مأذونا شرعيا !

* * *

ومن هنا كانت البداية . . وكان الخلاص من عذاب الفلسفة . . فى هذا الشارع . . ومنه . . وإليه . . وعلى جانبيه . . ومن نوافذه . . والمطاعم هنا وهناك . . هنا كانت خطواتى الأولى السريعة المضطربة . . الصاعدة . . إلى فوق . ومع كل خطوة : آهة . . ومع كل خطوة : أرق وعـــرق . . ونفس طويل من أعماقى . . كأننى أخوض بحارا . . كأننى لا أركب سفينة وإنما أجرها على الشاطىء . . ولا أعرف لماذا يركب الناس السفن ، ولماذا آخرون يسحبونها على الشاطىء . . لماذا الناس أمواج . . ولماذا الناس أسماك . . لماذا أناس يقولون : آه . .؟ وأناس يقولون : الله . . ؟ ويطلبون المزيد من الآهات والتأوهات . . لماذا أناس ألوان قوس قزح . . ؟ ولماذا أناس هم السحاب الأسود تحته ؟ . .

فى هذا الشارع كانت دنياى الجديدة فى شارع الشواربى الذى به جريدة « الأساس » التى عملت بها . .

كل شىء بدأ هنا . . وكل الناس وكل الآمال والأحلام والأوهام . . وكل من عرفت وكل من أحببت وكل ما كرهت ومن كرهت . . وهنا كان « البج بانج » . . أى الانفجار الكبير . . بداية الخلق . . نهاية البداية وبداية النهاية . . والطريق الذى مشيت فيه ولا أزال . .

يدك على كتفى ، وامش ورائى وإلى جوارى . . وتقدمنى . . واعذرنى ولا تتعجل الحكم . . وسوف تجدنى دائما أمشى . . وحدى ومع الآخرين . . وضد الآخرين . . ولكنى وحدى دائما . . مهموما بما أفكر . . حزينا على الذين تساقطوا فى الطريق . . ملتفتا بكل جسمى وببعض عينى إلى الذين كانوا ولم يبق منهم إلا ظلالهم وصداهم . .

وبعض الذين ذهبوا لم يذهبوا من نفسى . . ما تزال لهم حياة أقوى من حياتى . . وماض أقوى من حاضرى . . هل هم كذلك . . أو أننى استرحت إلى هذه التضحية . .

إن الطريق يلتوى ولكنى أسير فيه . . ويصعد ويهبط . . ولا أزال ماضيا . . مغمض العينين مفتوح العقل ، موجع القلب . . ولكنى ماض إلى الأمام وإلى أعلى . . صادقا كل الوقت . . حزينا بعض الوقت . . راضيا معظم الوقت . .

* * *

فهذا الكتاب ليس إلا مقدمة لكتاب طويل عريض . . إنه مقدمة لمشروع لم يتم بعد . . فما دمت حيا فهو ناقص ، ولن يتم إلا بالموت . .

وهنا مذكرات ناقصة أيضا . . ناقصة من أولها ومن آخرها . . فقد ضاع منها الجزء الأكبر . . ولا أعرف كيف ضاع . . وما تبقى رأيت أن أنشره ففيه أفكار وأسماء وعناوين لكتب صدرت وكتب لم تصدر . . ففى سنة ١٩٦٠ خطر لى أن أكتب عن شارع التنهدات . . ورسمته وحددته وتركته ومضيت إلى مشاريع ومغامرات فكرية أخرى .

ثم عدت إليه ، ولما عدت وجدته طويلا عريضا . . فاكتفيت مرة أخرى بالإشارة إليه . وليس هذا الكتاب إلا إشارة لما أريد أن يكون أو أحلم بذلك . .

* * *

وهذه صفحات عن (الجزمة) . . أو بمناسبة الجزمة . . أو الكلام عنها أو النظرة إليها . .

وهو جزء من مشروع . فقد كان فى نيتى أن أتحدث عن الملابس فى كل تاريخها من أيام ورقة توت أمنا حواء إلى شفافيات فساتين مارلين مونرو والقضية التى أقامها الناقد الأمريكى الكبير (أدموند ولسون) عندما قارن بين الضرائب التى يدفعها عن مؤلفاته والضرائب التى لا تدفعها مارلين مونرو رغم أن أرباحها بالملايين . فهى تقدم كشفا بمصاريفها كممثلة إغراء لابد أن تقدم فواتير بملابسها الغالية الشفافة وخصوصا ملابسها الداخلية من حرير وورد . . ثم تقدم كشفا بمصاريف الطبيب لأنها مصابة بتوترات عصبية بسبب الإرهاق والحرمان والعذاب . . وكشف بمصاريف العناية الصحية والتدليك وحمامات الماء والبخار . . ومساعداتها للجمعية الخيرية . . والنتيجة أنها لا تدفع دولاراً واحدا ! بينما هو يدفع مئات الألوف من مئات الألوف التى يكسبها . .

وكان فى نيتى أن أترجم موسوعة بديعة عن (الملابس الداخلية) وهى محلاة بأجمل الصور . واتفقت مع صديقى الناشر إبراهيم المعلم واشترطت أن تكون الترجمة باسم آخر غير اسمى . واشترط أن تكون باسمى . ولم تصدر الموسوعة لأننى رفضت ، ولكن بقيت رغبتى فى أن أستعرض تاريخ الملابس والأزياء والأناقة . وقد مارست كثيرا وطويلا الكتابة عن الفساتين . . ففى سنة ١٩٥٠ كنت أترجم الموضوعات التى تبعث بها مندوبة الأهرام فى باريس واسمها (أليس باخوس) . .

ومارست ذلك العمل اللذيذ فى المجلات التى رأست تحريرها : الجيل وهى وآخر ساعة وأكتوبر وكنت حريصا على أن أوقع بإمضاءات مستعارة كثيرة مثل : أحلام شريف . هالة أحمد . منى جعفر . . سيلفانا ماريللى . .

* * *

أما هذه الدراسة عن الأستاذ العقاد ، فهى دليل على أننى لا أمل الكتابة عنه . . لأننى كثير القراءة له . . والإعجاب به والحرص على أن أكون حاضرا معه أو هو حاضر معى . . أن نتواجد فكريا وأدبيا . . وقد أصدرت عنه كتابى (فى صالون العقاد كانت لنا أيام) . . وكتبت عنه فى كتابى (عاشوا فى حياتى) . .

وفى كتابى (هؤلاء العظماء ولدوا معا) . . وفى كتابى (أنتم الناس أيها الشعراء) فهذا المقال ليس إلا مشروعا لبحث جديد . . أو نظرة جديدة إلى الأستاذ العقاد . .

* * *

فليس هذا الذى بين يديك كتابا واحدا . . وإنما هو مشروع لعدة كتب نقلتها من حقيبة بها كل مشروعاتى الفكرية . . أو أضع فيها كل ما يخطر على بالى من (الأفكار البذور) . . أو بذور الأفكار ثم أتركها لتنمو فى داخلى . . حتى تستقيم أعوادها . . فتزهر وتثمر . . ثم أعاجلها بالنشر حتى لا تموت . .

فإن عدت إلى هذا كله مرة اخرى أو مرات أضفت لها . . وإن لم أعد فيكفى أننى وعدت ، وأن العمر لم يسمح لى بذلك . .

ولن أنسى بيتاً رأيته فى مدينة (رابالو) على ساحل الريفيرا . . هذا البيت بلا باب ولا شباك . . ولم يرتفع عن الأرض إلا طابقين . . وحوله يدور العشاق يتمسحون فيه ويتطلعون إلى السماء ويتعانقون . . ويسمونه (بيت الأحلام) . . فهو لم يكتمل كالأحلام . . والعشاق يكملون البيت فى خيالهم . . ويجعلون له لونا وعطرا ويملأونه بالورود والأطفال والأصدقاء . . كل واحد على هواه . . فبيت الأحلام ، كالأحلام لم تتم . . إنه مجرد مشروع . . إنه (سيمفونية ناقصة) . .

والفيلسوف الألمانى العظيم (كنت) كان يحب تأمل البيوت القديمة والكنائس العتيقة ويفكر فيما هو أعظم وأجمل وأروع . . فأقام فى الفلسفة صروحاً جديدة رائعة . . وكان يرى أن المبانى القديمة تدعوه لأن يقيم ما هو أجمل . . أحدث . . فأقام الذى بهرنا . .

أما أستاذ الفلاسفة الوجوديين (هيدجر) فقد وعد بإصدار موسوعة فلسفية . . ولكنه لم يستطع . . فكتب الجزءالأول منها وتوقف . وكان الجزء الأول هو كتابه (الوجود والزمان) . ولم يتجاوز بقدرته العقليه الجبارة أن يذهب إلى أبعد من (وجود الانسان) فقط . أما بقية أشكال الوجود فلم يجد نفسه قادرا على بلوغها أو احتوائها . . فقال كلاما عميقاً ، ولم يكمل عبارته . . وعبارته هذه جاءت فى أعمق وأصعب كتاب فلسفى فى القرن العشرين . .

وفى هذه (المشروعات الفكرية) التى فى هذا الكتاب : الذى بين يديك أعرض أفكارى كما كتبتها . . وأعود إليها من حين إلى حين . . وأضيف وأغير وأبدل وأكرر . . وكان فى الإمكان حذفها ولكنى لم أفعل . . دليلا على انشغالى بها وعودتى إليها واقترابى منها وابتعادى عنها . . وهو أسلوبى . . فأنا أعيد وأزيد وأدور حول المعانى وأحلق فوقها مقترباً ومبتعداً لعلى أراها أوضح وأعمق . .

وفى المحيط الهادئ توجد جزر (الفصح) وفيها أعجوبة التاريخ القديم : تماثيل صخرية ضخمة لرؤوس بلا أجساد . . تماثيل ناقصة . . لقد حيرتنا . . فنحن لا نعرف من الذى صنعها ولا المعنى ولا لماذا تتجه كلها إلى ناحية واحدة . .

قالوا : إنها ذكرى كائنات جاءت من فوق وتركتها . . أو جاءت وعادت فأقام لها أهل الجزر هذا الحفل الحجرى الضخم . .

وكانت هذه التماثيل الناقصة لغزا . . والمؤرخون يحاولون اليوم إكمال هذه التماثيل بخيالهم وفلسفتهم . . صحيح إنها ناقصة . . ولكن حيرتنا بها ومعها كاملة . .

شئ مثل ذلك جاء فى هذا الكتاب : رؤوس مواضيع لم تكتمل . .

وهذه حالى . .

وهذه مراهقتى العقلية ودوختى الفلسفية . .

وقد تجد هذه الأفكار قلقة حائرة كأنها لشاب فى أول الطريق . . أو فى بحثه عن طريق . . فى نيته . . إنه فى ضلال فلسفى . . وضياع بلاغى . . فاعذرنى فإننى مازلت كما بدأت أجادل . . أجاهد لعلى أكمل ما بدأت ، وأفى بما وعدت .

ولكن الذى قرأ لى ألوف الصفحات وملايين الكلمات . . ومائتى كتاب قبل ذلك ، يعرف أننى أحاول أن أعرف ، فإذا عرفت حاولت أن أعرف أكثر وأعمق . . لكى أكون أوضح وأسهل عبارة وفى متناول أى قارئ . . وقد كان ولا يزال أملى وحلمى . .

أول ما فتحت عيني

ويدي على الكتاب

(١)

امسكوه وهاتوه !

ويمسكوننى ويأتون بى إلى أمى فلابد أن تضربنى هذه المرة ، فالذى فعلته لا يمكن السكوت عليه . . فقد مزقت الكتب ورحت أضعها بين أسنانى وأمشى على أربع وأقفز بها من السرير إلى الأرض . . مقلدا القطة عندما تهرب بصغارها خوفا من القط أو الكلب . . وليست هذه هى المرة الأولى . فقد وقعت من السرير على أنفى وسال دمى . .

وقبل ذلك ضربتنى أمى لأننى أخذت كتب والدى وكتب أخرى ليست له ودخلت بها تحت السرير ، وأنا لا أعرف القراءة وأقلب فيها أو أتقلب فوقها . وأنام . ويبحثون عنى ويجدوننى نائما أو هاربا نائما . . فأحيانا أضع الكتب تحت رأسى . . أو تحتى .

وفى إحدى المرات هربت بالكتب تحت السرير وأشعلت شمعة لكى أرى الصور . . وكان دخان وخرجت أسعل وأعطس فقد وقعت الشمعة على الكتب وكادت النار تشتعل فى الكتب ومراتب السرير . .

وهكذا ولدت والكتب فى يدى أو تحت رأسى تحت السرير . لا أقرأ . ولكن ألمسها أقلبها وأتفرج على الصور . فلم تكن كتب والدى ، وإنما هى كتب أحد أقاربنا قد أودعها عندنا لأنه مسافر إلى القاهرة ليكمل دراسته فى كلية الزراعة . وكتبه فيها طيور وحشرات وأبقار . .

ولم يجد والدى حلا إلا أن يطلب منى أن (أقرأ) فى الكتب وأنا جالس على الكرسى أو فوق السرير . ولا يهم أن أضعها تحت المخدة . وقد ظللت أفعل ذلك عشرات السنين . ولم يكن هناك سبب ، وإنما هى العادة ، بل ظللت سنوات طويلة جدا أخفى الكتب وأهربها إلى البيت حتى بعد أن أصبحت فى غير حاجة إلى ذلك . . وحتى بعد أن كبرت كانت أمى إذا دخلت مكتبى وأنا أقرأ وضعت يدى على الورق الذى أقرأه أو الذى أكتبه . مع أننى كبرت وأمى لا تقرأ . ولكنه الماضى الطويل الذى لم يمض ولم يتلاشى ظله فى نفسى !

وكنت إذا ذهبت إلى بيت أحد أقاربى فإننى أتسلل إلى داخله وأقف على أحد المقاعد وأسحب الكتب من الرفوف . وأدخل بها دورة المياه . وأقلب فيها . فإن كانت بلا صور أعدتها إلى مكانها . وفى إحدى المرات وجدت مجلدا من إحدى المجلات المصورة . ولم أستطع أن أحمله إلى دورة المياه . . فدخلت به تحت السرير . وتركته هناك . ولما حان موعد العشاء وسمعت نداء على اسمى خرجت وادعيت أننى كنت فى دورة المياه . وأدركوا خوفى وكذبتى . فدورة المياه مشغولة . ولكن أمى هى التى عرفت أين كنت . فسحبتنى إلى جوارها . ونظرت وأطالت النظر فهززت رأسى أننى نقلت الكتاب تحت السرير . وأشارت أن أذهب وأحضر الكتاب لكى أضعه فى مكانه ، واختفيت لحظات ورحت أبكى . فلما وجدونى تحت السرير ، اكتشفوا أن الكتاب قد تمزق من يدى وأنا أسحبه . .

وكان ما كان مما تكرر عشرات المرات : ضرب وتهديد ووعيد وبكاء .

ووجد أبى حلا لكل هذه المشاكل . فقد أتى بكل الكتب ووضعها إلى جوار السرير إلى الأرض . وطلب منى اختيار الذى أحب أن أراه واستبعد ما لا أحب . وذهبت كتب أبى كلها بعيدا فهى بلا صور .

ودخلت كتاب القرية . وفى الكتاب بدأت أتعلم الكتابة والقراءة . أما القرآن الكريم فقد حفظته قبل ذلك بسنتين فى كتاب « الشيخ السيد » . . أما الكتابة فقد بدأت أتعلمها فى كتاب الشيخ متولى . وهو أحد أقاربى . وكان خطه جميلا . ولا يكتب إلا بالقلم الأحمر . . أو الأحمر الميال إلى الزرقة . وكان يسمى هذا اللون دم الغزال !

ويبدو أننى تعلمت الكتابة بسرعة لكى أتمكن من القراءة . . وبعد أن تعلمت القراءة لم ترحمنى أمى من الضرب . فقد أدت الكتابة إلى أن أكتب على الجدران وعلى الملابس وإلى أن أنشغل بالكتابة عن الطعام وعن غسل وجهى ويدى . وإلى أن أتسلل فى الليل وأدخل دورة المياه وأكتب على الجدران أو على ورق أى كتاب من الكتب !

فلا يزال الكتاب فى يدى . . ولا زلت أحرص عليه . . لكى أحاول القراءة أو الكتابة . . وبعد ذلك انتقلت إلى الإسراف فى حماية الكتب . فلم أعد أكتب على هوامشها . . بل إننى أقوم بتجليد بعض الكتب من ورق الصحف . وأبالغ فى ترتيبها على الأرض أو على المقاعد . . أو على الرفوف . وتعلمت أن يكون ذلك علنا . . قبل الأكل أو بعده . . ثم أننى اعتدت أن أقرأ جالسا . ولم يحدث فى كل حياتى أن قرأت فى السرير . أو متمددا على مقعد طويل . . إننى إذا قرأت جلست . وإذا كتبت جلست أيضا . .

(٢)

أول كتاب تلقيته هدية فى عيد ميلادى العاشر كان من جارتنا الإيطالية . . وظللت أحتفظ بهذا الكتاب سنوات دون أن أعرف ما هو . . ولما تعلمت اللغة الإيطالية وأنا فى السنة الأولى الثانوية عرفت أنه قصة الطفل « أنجليو فى الفاتيكان » . . ولم أذهب إلى أبعد من ذلك فى فهم هذه القصة الملونة لطفل أشقر الشعر أزرق العينين فى مدينة الفاتيكان . . واحتجت إلى سنوات بعد ذلك لأتمكن من القراءة والفهم . . وظل هذا الكتاب فى أعمق مكان من نفسى . . وانغرس كل ما هو إيطالى فى مكان قريب جدا من قلبى . . ثم فى قلبى . .

وعدت أقرأ كتب والدى . . إنها كلها فى الدين والفقه والتفسير . . وهى كتب صعبة . وشكلها لا يشجع على القراءة . ولكنها كتب . وقلبتها . وقرأت وحاولت أن أفهم . وحاول أبى أن يشرح . فلم أتمكن من حفظ شىء إلا الشعر . فالذى حفظته كثير جدا . . كنت أردده وراء أبى . وكان موعدنا كل يوم عند الفجر . أصلى وراءه . ونشرب الشاى بالنعناع . هو يخرج وأنا لا أنام . وحدث أكثر من مرة أن دخلت تحت السرير بحكم العادة . وصحوت قبل أن تصحو أمى . . والذى أيقظنى كلب صغير . . كان يريد أن يخرج إلى الشارع حتى لا يلوث البيت ، ويلقى ما ألقاه كل يوم من الضرب بالعصا . . وأصبحنا نحن الاثنين صديقين . أنا أنام تحت السرير وهو يوقظنى . ويبدو أننى فى إحدى المرات نمت نوما عميقا وصحوت على الكلب الذى قد مزق وأكل واحدا من الكتب !

وكان إصرارى شديدا على العثور على الكتب . لقد تمكنت منى الكتب وأحسست أن الكتب مثل أصابعى وأن هذه الأصابع تنبت وتطول كل يوم فى يدى .

واتجهت إلى حيث الكتب فى كل البيوت وفى المكتبات . ومررت بالصحف . ولا أذكر أننى قرأت صحيفة . وإنما فقط كنت أرى الصفحة الأخيرة من جريدة « الأهرام » . كانت فيها صور . صور نساء جميلات . ولا أذكر أننى قرأت شيئا فى الأهرام غير ذلك .

وفى بعض الأحيان كنت أتحايل على الحصول على الصفحة الأخيرة . واحتفظ بهذه الصور بين المراتب . أو أخفيها فى الكتب التى لا يقرؤها والدى . وأعود إليها عندما أكون وحدى .

واندهشت جدا عندما عرفت أن عددا كبيرا من زملائى لا يلقون ما ألقاه بسبب الكتب . . اندهشت أن أمهاتهم لا تضربهم . . واندهشت أكثر أنه لا يوجد فى بيوتهم كتب . وأنه لم يحدث مرة واحدة أن اضطروا إلى النوم تحت السرير . . وأنهم لا يعرفون شيئا عن الشعر . ثم أن أحدا منهم لم يحفظ القرآن الكريم ولذلك كنت أبدو أعجوبة للجميع !

(٣)

لم يكن فى كل حياتى المدرسية أية أحداث . فأنا أنتقل من كتب إلى كتب . ثم إننى الطالب الأكثر تفوقا فى المدرسة . وفى المديرية (المحافظة) ثم الأول على مملكة مصر فى شهادات الابتدائية والثقافة والتوجيهية . ثم الأول فى مملكة مصر على طلبة قسم الفلسفة . .

ولابد أن الناس قد ضحكوا كثيرا فى إحدى الليالى ، ولعلهم يضحكون إذا تذكروا الآن ما حدث على سلم أحد البيوت . ففى تلك الليلة ذهبت مع صديق لكى أغنى فى أحد الأفراح . وجلست فى الصف الأول . ولم يكن صوتى عاليا . ولم أكن ملفتا للعين أو الأذن . وقد جاء صاحب الفرح وجعلنى أجلس أنا وزميلى الذى يرافقنى على العود وسط الناس لكى يسمعونى . وطلب أحد الموجودين من المدعوين أن يسكتوا فصوتى جميل ـ والله جميل ـ هو الذى قال . وأسعدنى ذلك ولكنه لم يخفف العرق الذى يسيل من كل مكان إلى كل مكان . . وغنيت : خايف أقول اللى فى قلبى . . وأنا هويت وانتهيت . . ومن زيك

عندى يا خضرة . . وأنا أنطونيو . . وأنا الذى أقول أننى غنيت كل هذه الأغانى . فهل حدث فعلا؟ أو أننى تخيلت أو تمنيت ذلك . .

ففى تلك الليلة كنت غارقا فى أشياء كثيرة : العرق والخجل والخوف . . وتسللنا خارجين . . ولكن لحقنا أحد أصحاب الفرح واقترب منى وقبل أن يقول لى شيئا قلت له : عاوز كتاب . .

ولم يفهم الرجل . فقلت : فقط هات لى أى كتاب من عندكم . .

فقال له زميلى : إنه يحب القراءة . ويتقاضى كتابا أى كتاب فى أى موضوع !

ولا أعرف ما الذى قاله عنى . . أو عنا . ولكنه ضحك . . وبسرعة سمعت ضحكات كثيرة . سمعتها حتى عندما وصلت إلى باب بيتنا . فالضحكات ملأت أذنى . واستقرت ولم تخرج . وأسمعها من حين إلى حين كلما فكرت فيما حدث وفى غرابة هذا الطلب الذى لم يلق أى صدى عند أحد !

(٤)

لا أعرف كيف كان شعور دياز عندما اكتشف رأس الرجاء الصالح سنة ١٧٤٤ . وقد رأيت أنا هذا المكان من سنوات قليلة .

ولا أعرف كيف كان شعور كولمبوس عندما اكتشف أمريكا سنة ١٤٩٢ . .

ولا ما الذى قاله ابن بطوطة عندما وقف فوق جبل آدم فى سرى لانكا . .

وقيل لى إن آدم عندما هبط من الجنة وضع قدما فوق هذا الجبل وقدما أخرى فى عدن . . أما القدم التى وضعها فوق جبل سرى لانكا فقد صار موضع القدم بحيرة كبيرة . . دار حولها ابن بطوطه . . ووقفت أنا فى نفس المكان أتفرج أيضا . .

ولا يمكن أن تكون سعادتهم أعظم من سعادتى عندما اكتشفت أنه توجد فى المنصورة مكتبة اسمها (المكتبة الفاروقية) - تيمنا باسم الأمير فاروق . مكتبة عامة . . بها مئات الكتب . . تدخلها وتختار ما يعجبك وتجلس فى هدوء وعلى راحتك . . ووحدك . . وبلا خوف . . وذهبت مذهولا وخرجت أكثر ذهولا . . واقتربت من أمين المكتبة أسأله إن كان ممكنا أن أقرأ . فقال مندهشا : نعم يا ابنى . . اتفضل فى أى وقت وأى كتاب . أنت مين ؟

ولم أكن أعرف أنى معروف بالاسم كطالب نموذجي وأول المدرسة فى جميع مراحل الدراسة . . وكان أول احترام وترحيب وإعجاب لقيته فى حياتى لأن لى علاقة بالكتاب . . وظللت أتردد على هذه المكتبة سنة بعد سنة .

حتى فوجئت بناظر المدرسة وكان رجلا متجهما دائما . ولم أره عن قرب . يقترب منى ويضع يده على كتفى ويقول لى : مبروك . .

ولم يكن العام الدراسى قد انتهى . . فلا امتحانات ولا شهادات ولا نتائج . . ولكن قدم لى شهادة بإمضاء مدير (المكتبة الفاروقية) . تقول : لقد قرأ الطالب أنيس منصور كل الكتب الموجودة فى المكتبة وعددها ٩٥٠ كتابا . تمنياتنا له بمستقبل عظيم !

ولم أكن أعرف كيف أتحدث عن الذى قرأت . كنت أقرأ لنفسى . وأسمع وحدى . ولكن تعلمت من زميلى خالد حسونة الذى صار رئيسا لمحكمة الاستئناف كيف أقرأ وكيف أعرض الذى قرأت . . كيف ألخص الذى قرأته وكيف أحلله واستنتج المعانى ويكون لى رأى . ولم أكن أعرف ذلك . وكان خالد حسونة يتفوق علينا فى عرض الذى قرأ وجذب انتباهنا . . كأنه محام يترافع . . أو كأنه قاض يعرض ويحكم . . ولم أكن أعرف ذلك . .

ومن تلقاء أنفسنا أنشأنا جمعية اسمها (جمعية المفكرين الأحرار) . إنها فكرتى ، ولم أعرف معانى كل هذه الكلمات الضخمة : إننا مفكرون وإننا أحرار . فهل نحن فكرنا ؟ هل عارضنا أحداً من الناس . . لا شىء من كل ذلك . ولكنى اخترت الاسم . أما هؤلاء المفكرون الأحرار فقد كنا خمسة أنا وخالد حسونة وجمال أبو رية الذى كان جميل الصوت والذى صار بعد ذلك مؤلفا لكتب الأطفال . . ثم ضياء الدين بدر ، صار مهندسا . . وأخيرا صديق يونانى ميخائليدس كان يبهرنا بعلمه الغزير وأسلوبه البديع فى شرح أرائه . .

وكانت متعتى بزملائى أكبر من أى شىء فى الدنيا . . فهذا يقرأ ويعرض بقوة . وهذا يقول محتجاً على الأفكار السائدة فى ذلك الوقت ـ ولم أكن أعرف أن هناك أفكارا سائدة وأنها لا تعجبه ـ فقط كنت أنا غارقا فى القراءة فى التحصيل . . فى تخزين المعلومات دون ترتيبها ودون فرزها . فأنا ألتهم وأبتلع فى سباق مع الزمن . أو فى سباق لا أعرف مع من . .

أما الصديق اليونانى فهو الذى سحرنى . إنه يقرأ كتبا أخرى لا أعرفها . . أو لم أعرفها إلا متأخرا جدا . كان يتحدث عن هيرودوت . . وعن سقراط وأفلاطون وفيثاغورس . وهى كلمات عجيبة الشكل والنطق . . وكان يتحدث كأنه يغنى . وكان إذا تحدث رفع رأسه الجميل إلى فوق . . وانظر إلى رأسه فأجد الملامح الجميلة والجبهة العريضة العالية . . والهواء يتعمد نكش شعره الذهبى ويرمى به يمينا وشمالا . . أما السماء فقد تجمعت فى عينيه الزرقاوين . . أما ابتسامته فكانت ضوءا ينير أفكاره . كان حديث ميخائليدس متعة كبرى . . ما الذى كان يقول؟ . . وكيف يقوله ؟ . . وكيف يصل إلينا كلامه ؟ . . وكيف يبقى فى أذنى طويلا ؟ . . حتى أننى أنهض من فراشى لأعيد سماع صداه . . وكأن كلامه استقر فى أذنى فلا أكاد أصحو من النوم حتى يدور الكلام بصوته الهادئ ونبرته الرجولية المليئة .

وفى يوم قفزت من الفراش . وفزعت أمى . فقالت : مالك ؟

قلت : نسيت كتبى عند مخالى !

قالت : ولكنك سوف تراه فى المدرسة اليوم .

قلت : إنه مسافر إلى أقاربه فى بلاد اليونان . .

ولم يكن ذلك صحيحا . وإنما سمعت من مخالى حكاية لم أفهمها . فقررت أن أسمعها منه مرة أخرى . وذهبت إليه ، ووجدته على السلم . فقلت : إلى أين؟ قال : أحسست برغبة أن أراك قبل أن تذهب إلى المدرسة . . لكى أحكى لك حكاية أخرى . .

ـ . . ولكنى لم أفهم حكاية الأمس . .

ـ حكاية كيف خلق زيوس كبير آلهة الإغريق هذا العالم وكيف خلق الإنسان . . من أجل هذا جئت إليك فأنا لم أنم . . ولا أعرف أين أقرأ ذلك . . عندك كتب ؟

ـ كثيرة جدا باليونانية . ولكن عند أختى كتب بالفرنسية . .

وقد أحسست برغبة قوية فى الكتابة . فقد رجعت إلى البيت أكتب كل الذى قاله مخالى وقاله حسونه وجمال أبو رية وكتبت اقتراح ضياء الدين بدر بأن ندرس فى الأزهر بعد حصولنا على التوجيهية . وعرضت على أمى هذه الفكرة . . وكان ما كان مما لست أذكره ، كما قال الشاعر وإذا بى اكتشف أن فى أسرة والدى عددا

من رجال الدين . . وفى أسرة أمى عدد من الوزراء والباشوات والباكوات ويستحيل ـ إلا على جثتها ـ أن أدخل الأزهر . . أبدا . . وإننى إذا ذكرت الحرف الأول من هذه الكلمة فالنار . . تشوينى أو تحرقنى بالنار حتى الموت !

ولا أعرف كيف استطاعت أمى أن تقوم بتركيب مثل هذه العبارات الكبيرة الغليظة الحارقة . ولكنه إصرارها على أن أكون شيئا آخر . . غير أن أكون معمما أو أكون أزهريا . أبدا !

وأقفل الكلام فى هذا الموضوع .

ولم أفهم إصرار أمى فى يوم من الأيام على دعوة صديقى ضياء . . إلى الغداء . . وأن يجىء مبكرا لأنها تريد أن تتحدث إليه وأن تسأله عن صحة والدته المريضة . . وفى يوم عدت إلى البيت ووجدت ضياء جالسا إلى جوار أمى والدموع فى عينيه . فأدركت أن والدته قد ماتت . انزعجت . وسألته : ماذا جرى . . كيف حال والدتك .

قال منكس الرأس : إنها بخير . .

قلت : إذن ولماذا الدموع ؟

فلم يرد . وجاءت أمى من الداخل . وقبل أن استوضحها .

قالت : طبعا لما حدثته عن مستقبله بعد دراسة الأزهر راح يبكى !

لقد استدرجته إلى البيت وأفزعته ولا أظن أنها ضربته . لا أظن ذلك . ولكن من يومها لم يعد ضياء الدين يتحدث عن اليوم الذى يسند ظهره إلى أحد الأعمدة فى الأزهر الشريف ويكون أستاذا يلتف حوله الطلبة والمريدون . انتهى الكلام عن الأزهر . وانتهى أيضا الكلام عن الهرب إلى بلاد اليونان لنتعلم الفلسفة على أصولها وعلى أساتذتها . . ولم يعد أحد يحلم بأن يكون ضابطا فى البوليس أو الجيش كما كان يحاول إغراءنا جمال أبو رية . . فقد استدرجته أمى أيضا وهمست فى قلبه كلمات مخيفة . وصور مفزعة لمستقبل أسود لمن يطاردون الجريمة فى الليل والنهار . فما الذى كانت تريده أمى ؟ لا أعرف بالضبط . . ولكن فقط أن يكون الإنسان قيمة ومركزا . . فقط . دون أن توضح لنا معنى القيمة وأى مركز هذا ؟ ولم أجرؤ ـ ولا أحد ـ على أن يستوضح منها أهدافنا فى الدراسة وفى الحياة .

إنها وضعت هذه الكلمات والعبارات لتدفعنا بعيدا عن الأزهر والبوليس وشوارع أثينا . . وتركت لنا الحرية فى أن نفعل أى شىء بعد ذلك ؟!

وتعلمت أن أكتب مذكراتى نقدا لما تقوله أمى . وأنا آمن فى أن أترك هذه المذكرات على المكتب دون خوف فأمى لا تقرأ . ولكن أخفيت الأوراق خوفا من أن تقع فى أيدى إخوتى أو أقاربى أو يدفعهما حب المعرفة أن تعطيها لأحد فيقرأها . . ولكن ذلك لم يحدث مرة واحدة . فقد أسعدها جدا أن تجدنى مشغولا . ثم أننى متفوق . فأنا لا أضيع وقتى . ولا ألعب . هى متأكدة من ذلك !

وقد تأخر نموى الاجتماعى كثيرا جدا بسبب انطوائى فى البيت وفى المكتبة وانكسارى على الكتب وإغلاق النوافذ ليلا ونهارا حتى لا أرى بنت الجيران أو ترانى . . ولم أعرف أن للجيران بنتا حلوة إلا متأخرا جدا . ولم أعرف أنها ترانى ذهابا وإيابا . وأن الوردة التى وجدتها عند باب الشقة كانت هى التى وضعتها . وأخذتها . ورأتها أمى وهى تقول : أما تزال هذه البنت تفعل ذلك !

ولم أفهم . ولم تشأ هى أن تضيف شيئا حتى لا أفهم واختفت الورود . فقد ذهبت أمى ونبهت البنت وأمها ألا تشغلنى عن المذاكرة فأنا ما أزال صغيرا . ولم أعرف ذلك إلا عندما انتقلنا إلى القاهرة . أى بعد ذلك بسنوات . .

وكتبت فى مذكراتى أن طغيان أمى يضايقنى . ووجدتنى أكتب عن أساطير الإغريق . وعن كبير الآلهة عندما خلق أول حواء ، نسى أن يجعل لها قلبا ـ يعنى أمى بلا قلب !

وهى عبارة فظيعة !

ولكننى أتدرب على الكلام . وأتدرب على المقاومة . وإطلاق النار يمينا وشمالا . . المهم أن تنطلق النيران . وأن يكون لها دوى ودخان . وهذا يؤكد شجاعتى وقدرتى . وانتقلت من نقد والدتى إلى نقد أساتذتى فى المدرسة ثم أقاربى وزملائى . . ثم عدد من المفكرين الذين أقرأ لهم . . كأننى أحسست أننى أيضا كاتب ومفكر وأقول وأعترض . ولا يهمنى !

هذا الزميل كأنه
من كوكب آخر!

(١)

فما الذى قرأت فى ذلك الوقت ؟

نسيت كل الذى قرأته فى (المكتبة الفاروقية) لماذا ؟ هل لم أكن على حريتى فى اختيار الكتب والوقت والصفحات ؟ كنت حرا ، هل لأن الكتب كانت مدرسية ؟ أو كأنها كذلك ؟ كل هذه الساعات الطويلة صباحا ومساء أين ذهبت؟ . . بلا طعام ولا شراب .

لقد كنت وحدى طول الوقت . إذا دخلت المكتبة تلقيت مكافأة من أمين المكتبة : ابتسامة الترحيب . . وإذا خرجت ابتسامة الرضا والدعاء والأمل فى أن أكون شيئا مختلفا عن بقية الشباب . كيف أكون مختلفا ؟ لا هو يعرف . ولا أنا . ولكن فى إحدى المرات سألنى أمين المكتبة : ماذا تريد أن تكون فى المستقبل ؟ . ولم أجد ما أقوله . وإنما أشرت إلى الكتب . وقلت : هكذا . . هكذا ماذا ؟ هكذا أقرأ أو هكذا أكتب أو هكذا أفهم أو أحاول ذلك . . هكذا والسلام .

وظل هذا السؤال قائما قاعدا نائما فى دماغى . . ولم أجد له جوابا لا فى ذلك الوقت ولا حتى بعد أن تخرجت فى الجامعة . ما الذى أريد أن أكونه . . ومن الذى استطاع ذلك . بعض الناس عرفوا من سن مبكرة ماذا يريدون . فكانوا كما يريدون . ومعظمهم أراد ولكن لم يتحقق لهم ما أرادوا . . وأنا ماذا أريد ؟ لا أعرف . أمى تريدنى أن أكون وزيرا أو قريبا من ذلك . . أقاربى يريدوننى أن أكون طبيبا أو مهندسا ولا أعرف على أى أساس اختاروا ذلك المصير . ولم يكن عندى طموح من أى نوع . . فقط أريد أن أنجح وأن يجىء ترتيبى الأول . وبس . وقد حدث ذلك . ثم ماذا ؟ لا أعرف . ولم أعرف .

كان الفيلسوف أفلاطون يرى أن الطفل يجب أن يبدأ التدريب العسكرى فى السنة الأولى والقراءة فى السنة الثالثة والموسيقى فى السنة العاشرة . . وبعد ذلك يحشره فى قوالب من حديد حتى يكون الفيلسوف الملك فى الستين أو فى السبعين . .

وكانت هذه الصورة المثالية لما يجب أن يكون عليه الطفل حتى يكون فيلسوفا ملكا . .

وفى التاريخ عباقرة بدأوا فى سن أصغر . فالموسيقار موتسارت كتب أول سيمفونية له وهو فى الثامنة .

وفى الرابعة عشرة ، بدأ خليل جبران يكتب أفكاره عن كتابه (النبى) . وأكمله عندما بلغ الأربعين . .

وفى تلك السن كان الأستاذ العقاد ما يزال يمارس أشكالا من الشعر ، وبعض الأفكار . وكان همه الأكبر هو أن يجرى وراء الطيور التى تجىء إلى أسوان . يحاول أن يعرف من أين ولماذا جاءت ؟ . .

وفى هذه السن تخيلت نفسى بطلا فى قصة . . أو فى حكاية . . ورحت أروى هذه الحكاية لأنها وقعت لأحد أقاربى ، ولم أكن أعرف أن الذى قلته هذا هو قصة قصيرة . . أو هى بداية لفن كتابة القصة القصيرة . ولكن لم أعرف . ولا عرف أحد أننى أحاول . ولذلك لم أكتب هذه القصة . فلم يعلمنى أحد أن أكتب مثل هذه الصور الأدبية . . وإنما انشغلت تماما بالكتابة عن الناس . . كل الذين

أراهم . . والذى كنت أكتبه هو نوع من الحوار بيننا . . وأكون أنا فى النهاية صاحب الكلمة الأخيرة . أو تجىء الحكمة من هذا الحوار على لسانى . . ولم أكن سعيدا فى هذه الحوارات . . ولا شعرت بالراحة لأننى كتبت . ولا بعد أن كتبت . ولم تؤد هذه الكتابة إلى تخفيف التوتر النفسى . . فأنا أجلس إلى المكتب . والورق يخرج والقلم يجرى . وتمضى الساعات . وأنا أكتب . وليس للذى أكتبه بداية ولا نهاية .

ولما عدت إلى مذكراتى التى مسح حروفها الزمن والتراب والإهمال وجدت مثل هذه العبارات الجادة ، ولم أعرف من الذى كت أتحدث إليه :

« وكان وجهه أصفر . وأنفه أكبر . وكرشه أضخم . وإذا تكلم فإن أسنانه تكاد تسقط . ولا أحب النظر إليه . إنه ليس مدرس الفلسفة الذى كان هادئ الصوت ناعم الحركة . وإن كلامه ليس واضحا . بل أن يتعمد ذلك . . أو هو كذلك لأنه مسرف فى التدخين . ولذلك له رائحة كريهة ، ولكن رائحته أرحم من رائحة مدرس الألعاب الرياضية . . إلخ » .

وقد فكرت كثيرا أن أعرض هذه المذكرات على أحد المدرسين ، وترددت ، ثم عدلت ، وترددت فى أن أعرضها على أبى . فهو يفضل الشعر وفى بيتنا كان يسكن فى الطابق الأعلى مدرس اللغة الإنجليزية . وبعثت بهذه المذكرات إليه ليقول رأيه . فلا رآها ولا وعد بذلك . وقال : أفضل أن تكون بالإنجليزية !

ووجدت طريقة أفضل للكتابة . فقد كنت أختار الجمل الجميلة من الكتب التى أقرؤها . وأنقلها فى كراسة . مع الإشارة إلى الكتاب وإلى صفحته . وامتلأت كراريس كثيرة بهذه العبارات التى تعجبنى . ولكن لم أصبر طويلا على ذلك . فعدت أكتب أنا تعليقات على الذى أقرؤه من الكتب .

وأقل هذه الكتب هى الروايات أو القصص . . هل أنا الذى لم أتجه إليها ، أو أننى لم أجدها . . فأنا قرأت ما أجد . ولم أبحث عن الذى أحب أن أقرأ . فلم يكن من السهل فى ذلك الوقت أن يكون لى (مزاج) خاص فى القراءة . . فأنا فى القراءة كما أنا فى الطعام . آكل ما أجده ولا أطلب طعاما آخر . ولم يحدث أن اعترضت على أى طعام من أى نوع فى أى وقت . وفى الكتب أيضا .

لا أعرف من الذى فتح أمامى طريقا مثيرا جدا اسمه (روايات الجيب) . . كتاب يمكن أن تضعه فى جيبك . . وله غلاف من ورق ملون لامع . وعلى الغلاف صور لرجال ونساء لهم شكل أوروبى غريب . وامتدت يدى لروايات الجيب البوليسية . . وكان ذلك طريقا عريضا طويلا مخيفا . . وممتعا . . دنيا أخرى . . لأناس آخرين لا أصادفهم فى حياتى .

ولأول مرة أجد كتبا توضع فى المقاطف ويشتريها الناس بالجملة . وكان لى صاحب أبوه يملك أحد المطاعم . وفى المطعم توجد هذه الكتب . وهم يمزقون أوراقها ليضعوا فيها الجبنة والحلاوة ! وكان صاحبى يسرق هذه الكتب قبل أن يمزقوها . . وأتلقاها واحدا واحدا وأخفيها فى ملابسى لأعيدها فى اليوم التالى لكى تلقى مصيرها المعروف !

ولم أكن أجد فى هذه الكتب ما أريد . . إنها مختلفة عن الكتب الأخرى التى اعتدت أن أجدها فى المكتبة أو كنت أجدها فى البيت . . لا الأسلوب ولا الأفكار . . ولا حتى الورق ولا أسماء الخواجات فى هذه الروايات ، ثم أننى لا أعرف فيما بينى وبين نفسى أن أقول : ما هذا ؟ أى شىء قرأت . ما المعنى ؟

وأحاول أن أجعل لها معنى . ولكن لم أجد ، فلا صدى لها فى حياتى ، ولا جاءت من حياتى . ثم ما هى حياتى فى ذلك الوقت . ليس فيها شىء من كل ذلك . . لا أحد بهذا الاسم . ولا أحد يطارد أحدا . ولا يحاول أن يقتله . ولماذا؟ فحياتى خطوط مستقيمة أو مربعات أو مثلثات . من البيت إلى المدرسة إلى البيت إلى المكتبة إلى البيت إلى المدرسة انتهت حياتى .

وإذا حدث شىء ففى الطريق . وإذا توقفت فمع الزملاء . وإذا تمشيت فى الشارع فمن المكتبة الفاروقية وحديقة شجرة الدر . فالطريق عبر المدرسة وإلى البيت . وإذا كانت هناك سيارات أو عربات فلا أدرى بها . . فنحن على الرصيف ذهابا وإيابا وكلامنا عن الذى قرأنا . ولم نقرأ إلا الكتب . فالحياة أولها كتاب وآخرها أيضا .

وفى يوم وقف مخالى اليونانى يقول : يا أيها الأصدقاء إن حياتنا مملة جدا . ولابد أن نفعل شيئا !

وسألته : يعنى إيه مملة ؟

قال : يعنى اليوم كالأمس وكالغد . .

فقلت : وماذا فى ذلك ؟

ـ لم تزهق ؟

ـ لا .

ـ لم تشعر بالملل ؟

ـ لا . .

وتغيرت ملامح وجهه وقال : إننى أريد أن أقترح أن نبنى لك مسجدا أو كنيسة فأنت شيخ أو قديس . . تقول أنك لم تقرف من عيشتك ؟

وعدت أقول وأنا مندهش لما يقول : يا أخى لا !

وطلب إلينا أن نذهب إلى بيته لنرى الجانب الآخر من الحياة الذى لا نراه . ولا نعرف . ومن الضرورى أن نقفز . . أن نهرب . . أن نخرج من جلودنا . . أن نفعل شيئا يهز الركود فى حياتنا .

وأدهشنى هذا الذى قال . فلا عندى ملل . ولا فى حياتى ركود . ولا أعرف كيف نكون شيئا آخر . ولا زهقت من الكتب ولا من المشى فى نفس الطريق . ولا فكرت يوما واحداً ألا ألتقى بنفس الأصدقاء ونردد معا نفس الأفكار والتعليق عليها . . وأن يتحدث بعضنا عن أمله فى الحياة فى القاهرة . فحياتنا لن تكون فى المنصورة . وإنما حياتنا هنا من أجل حياتنا هناك . وأننا هنا نستعد لأن نكون شيئا مختلفا هناك . . فكل شىء من أجل هناك . .

(٢)

أما الذى رأيناه فى بيت مخالى فهو الشىء المختلف . له غرفة مستقلة لها باب على السلم . الغرفة نظيفة . والإضاءة مريحة وبها مكتب ومقاعد . والكتب على الجدران أشكال وألوان وكلها مجلدة تجليدا جميلا . وفى ركن من الغرفة براد شاى وفناجين نظيفة . وإلى جوارها أطباق بها جاتوه . . وإذا أغلق الباب انعزل عن الدنيا . فلا يسمعه أحد ولا يسمع أحدا .

وسمعنا دقات على الباب . إنها والدته . أوروبية شقراء جميلة لها ابتسامة حلوة . قال لها مخالى : أنيس .

قالت : أزيك يا حبيبى . . مخالى يحبك كثيرا ويقول أنك ولد شاطر لازم ماما بتاعتك مبسوطة منك خالص . .

وقال مخالى : خالد . .

وقالت : أنت كويس . . ماما كان عيان مش كده مخالى قال لى . . وهو بعث لماما ورد . . سلم عليه كثير . .

وقال مخالى : ضياء

قالت أمه : أنت الخواجة اللى زينا . . ماما كويس أنا شفته فى الشارع أنا أعرف شوية ألمانى . . وهيه تعرف شوية يونانى . .

ونظرت إلى مخالى وقالت : إذا كانوا عايزين حاجة لازم تعمله يا مخالى . . أهلا وسهلا . . أنا مبسوطة كثير إنى شفت أصحاب مخالى . .

وظللت طول الليل أقلب هذه الصور وهذا الحوار الذى لم أصادفه فى حياتى . . ما هذه الغرفة وما هذه الكتب والنظافة والطعام والأدب والأم الجميلة اللطيفة . . هل هذا هو الشىء المختلف ؟ هل هذا هو الذى يريدنا مخالى أن نقفز إليه . . ولكن مخالى هو الآخر قد زهق من هذه الحياة ـ حياته . ويريد شيئا آخر . ولكن كيف ؟ وهل فى الدنيا أحسن من بيت مخالى وأهل مخالى ؟ لابد أن هناك ما هو أفضل . . لابد أن يكون ذلك فى بلاد اليونان . . أو فى القاهرة التى لا أعرفها . .

وظللت بين النوم واليقظة أياما أعيد وأكرر ما رأيت وما سمعت . ولكن ليس عندى حل لأنه ليست عندى مشكلة . فأنا لا أضيق بالبيت الذى أنا فيه . ولا بحياتى ولا بأهلى ولا بالكتب . . ليس عندى شىء واحد مما عند مخالى .

أول شىء : لا أرى الصحف والمجلات بأية لغة . ولا أعرف ما الذى أفعله إذا وجدتها . ولكن مخالى يقرأ ويتابع وعنده كلام عن السياسة فى مصر وخارجها . . وخارجها أكثر . ويستطيع أن يدخل فى مناقشات طويلة . ولا أستطيع أنا . .

وفجأة سألت : إن كان أحد قد قرأ قصة (زينات) .

وكانت دهشة الزملاء كبيرة . فهذا السؤال ليست له مقدمات . فلم نكن نتحدث عن الروايات أو عن الأدب . ولكن أنا الذى فاجأت الجميع بهذا السؤال . لأنى قرأتها . وانشغلت بها . ووجدت فيها شيئا أغرب من القصص البوليسية . وفى نفس الوقت وجدت شيئا ليس فى نفسى . ولم أجد أحدا قد قرأ هذه الرواية أو صادفها أو وجدت سببا وجيها لذلك فسألونى : وما هى هذه القصة وما الذى أعجبنى فيها ؟ . غدا تشرحها لنا . فالدور عليك . استعد لعشرين سؤالا على الأقل .

ولم يقرأها أحد . ولا وجدت سببا لأن أتحدث عنها . إنها رواية رومانسية من تأليف حسين عفيفى . . وهى مثل الروايات البوليسية تتحدث عن عالم غريب . . لا الناس ولا الأحداث ولا الكلام قد رأيته أو سمعته أو سمعت عنه . . ولكنها غريبة . ولم يضايقنى كالروايات البوليسية التى لا أجد نفسى فيها . ولا يمكن أن يقع لى شىء من كل الذى قرأت عنه . .

ولكن رواية (زينات) فيها كلام كثير عن الريف وعن جماله وعن فتاة ، وأناس وعن أسرة . . ولم أطل النظر إلى المرأة كما فعل المؤلف . ولم أشعر بوجودها . . ولكن مخالى يتحدث عن البنات كثيرا . ويغمز بعينه . ويبدو أن هناك شيئا مشتركا بينه وبين بقية الزملاء . . إنهم يتغامزون وأحيانا يتركوننى وحدى ويضحكون . ويكون كلامهم عن البنات وأحيانا عن بنات تسكن فى البيت المواجه لبيتنا أو المجاور . . وهم عادة لا يشركوننى فى هذه الأحاديث . وأنا لا أتضايق من أن لهم أسرارا لا أعرفها . .

وعرفت أن هناك أشياء كثيرة تهمهم ولا تهمنى . فليست الكتب الأدبية أو الفلسفية وحدها . وإنما هناك حكايات وسهرات ولقاءات حتى منتصف الليل فى أماكن لم أعرفها . .

وقرأت وحدى ترجمة رواية (الحب والدسيسة) للشاعر الألمانى فريد ريش شيلر . . وكانت هذه الرواية قنبلة فى حياتى . إنها دعوة لأن أفعل شيئا . . لأن أفتح عينى على العلاقات الإنسانية . . على العلاقة بين الشاب والشابة . . على الحب . . على الذين يحبون . . ويبدو أنه من الضرورى أن ينظر شاب إلى شابة وأن يطيل النظر . . وأن يذهب إليها ويكلمها . وهى سوف تكلمه ومن هذا الكلام

تجىء القصص والروايات والشعر . . فليس صحيحا ـ إذن ـ أن يظل الإنسان يحدث نفسه ويكتب لنفسه ويقرأ لنفسه . لابد من فتاة . . لقد رأيت أكبر تجمع للفتيات فى حياتى فى بيت مخالى . كان عيد ميلاد أخته . . ولم أستطع أن أنظر إلى مكان كل هذه الفتيات اللاتى صافحهن مخالى . . وعانقهن وكان يقبلهن جميعا . . وهن أيضا يقبلنه . وكانت أول مرة فى حياتى أرى واحدا يقبل هذا العدد من الفتيات . كيف ؟ هذا ما حدث . وفى رواية (الحب والدسيسة) يجب أن يذهب الشاب إلى الفتاة التى يحبها ويقنعها بنفسه وبحبه . . وبأن تكون زوجة له . أى لا يعتمد على أمه أو أبيه أن يخطب له البنت التى يحبها . .

وأقفلت باب المناقشة فى هذا الموضوع فقد رأيت أنه ليس من الضرورى أن تكون فتاة فى حياتى . . فليس فى حياتى أشياء كثيرة : لا عندى غرفة خاصة ولا عندى مكتبة ولا أسرتى عندها سيارة . . ولا عندى أخت لها هذا العدد من الصديقات . . ولا أنا يونانى ولا ألمانى . .

وسحبت الغطاء على وجهى . وعلى دنياى ونمت . وصحوت كما أصحو كل يوم . وليس فى ذهنى شىء مما كان بالأمس .

وتعلمت عادة جديدة وهى أن أتساءل قبل أن أنهض من فراشى إلى أين ؟ وماذا عندى اليوم من عمل أو من قراءة أو من زيارة ؟ . ومن الذى عليه الدور اليوم لكى يلخص لنا كتابا جديدا ؟ . .

ووجدت فى الأسواق كتباً صغيرة جدا فى السيرة النبوية وفى التاريخ الإسلامى . ووجدت كتباً مترجمة . .

ثم وجدت كنزا . ذلك الكنز هو كتاب اسمه (قصة الفلسفة اليونانية) و(قصة الفلسفة الحديثة) من تأليف أحمد أمين وزكى نجيب محمود . . لا أعرف عدد المرات التى قرأت فيها هذا الكتاب من أوله لآخره ومن آخره لأوله . . أما الذى بهرنى فهو العبارة السهلة ، والوضوح والقدرة على الإقناع ، وعرفت فيما بعد أن هذا الكتاب بأجزائه الثلاثة منقول عن كتاب (قصة الفلسفة) للكاتب الأمريكى العظيم ول ديو رانت . . وعرفت من د . زكى نجيب محمود أنه هو الذى كتبه وحده وأنه قد وضع اسم أحمد أمين لأنه صاحب الدار التى طبعت ونشرت هذا الكتاب!

والكتب تفتح الشهية على الكتب . . والقراءة تفتح شهية الكتابة . والكتابة

تفتح شهية القراءة . . وكما علمتنى القراءة أن أكون وحدى ، فأكدت الكتابة هذا المعنى وهذا السلوك ، وصارت العزلة والانطواء هو شكل حياتى . . فأنا وحدى أقرأ وأنا وحدى أتأمل ، وأنا وحدى أكتب .

ولكن الكتابة لم تتطور كما تطورت القراءة . . فالقراءة لمن هو أعظم وأحكم وأعمق ، ولكن الذى أكتبه هو صورة صغيرة لقارئ صغير وكاتب أصغر . . وأنا لا أتوجه بالكتابة لأحد . . فأنا القارئ الوحيد لكاتب وحيد . .

ولم أعرف كيف أكتب لغيرى . المهم أننى أكتب ، وأجمع ما أكتبه وأخفيه فى أدراج مكتبى . . ولم أفكر فى أن أعرض ذلك على زملائى ولم يفعل أحد منهم ذلك . . ولا أحد قال أنه يكتب أو فى نيته أن يكتب لأحد غيره . . ولا بد أن يكون رأيهم فى الكتابة مثل رأيى . . فهم يكتبون سرا ولأنفسهم . . ولا يجدون سببا لأن يقرأوا ما كتبوا . . إنه نوع من الحوار الشخصى البحت . . فبدلا من أن يتحدث الإنسان بصوت مرتفع فيتهمه الناس بالجنون . فهو يتحدث صامتا .

وفكرت فى أن أعود إلى ما كتبت وأغلقت الباب والنافذة كأننى أخشى أن يرانى أو يسمعنى أحد . . أو خشيت أن تتكلم الكلمات نفسها فتفضحنى . وقرأت وقرأت ، ولم يعجبنى الذى كتبت . . فأنا افتعل خناقات لم تحدث . . ومعارك لم تقع . . وليس الناس جميعا بهذا السوء . . ولا أنا على صواب دائما . .

ولم أتردد لحظة واحدة فى أن أمزق كل الذى كتبت فى سنوات ـ كلام فارغ ـ هذا ما قلته عن كل الذى كتبت فى عشرات أو مئات الساعات .

وهو كلام فارغ لأنه ليس كالذى أقرؤه فى الكتب . . فكلام الكتب له أول وله آخر . . والكاتب يعرف ماذا يريد أن يقول وكيف يقول . . ولكن هذا الذى مزقت لا يدل على شىء له معنى أو له قيمة . . إنه ليس كما يكتب المؤلفون الكبار . .

و حتى الخامسة عشرة من عمرى لم أكن قد عرفت العقاد وطه حسين والحكيم والمازنى ولطفى السيد وسلامة موسى . . وإن كنت قد حفظت أبياتا للشعراء القدامى ، ولكنى لم أقرأ عنهم ولا قرأت كتابا واحدا عن تاريخ مصر كلها ولا عن تاريخ الأدب العربى أو الشعر العربى أو الأدب المصرى . .

ولذلك فأنا أقرأ من هنا وهناك . . وليست عندى صورة عريضة واسعة لها أول

ولها آخر عن أى موضوع ، ولم أعرف كيف أنقل ذلك . .فليس عندى وقت لكى أتأمل طريقى . . طريق اليوم . . أو طريق الغد . . كأننى أجرى يمينا وشمالا . . كأننى أطارد عصافير فى كل الاتجاهات . . كأننى أجمع ثمارات تتساقط من أشجار كثيرة فى أوقات مختلفة . . ولم أفكر لحظة فى أن آتى بأوعية أضع فيها الثمار ، وأن أختار بعض الثمار . . فأنا كالنمل يجمع ، ولست كالنحل الذى يمتص رحيقا ويفرزه عسلا . . أنا أجمع . . أنا أكدس . . أنا أحشد . .

وعدت إلى قصة (الفلسفة اليونانية والحديثة) ورأيت الأفكار كيف تتوالى وكيف يكمل بعضها البعض . . وكيف أن كل فيلسوف يضيف جديدا إلى قديم . . ويرفض قديما ويثبت جديدا . . كيف يكون الفكر له نمو ويقوى كالإنسان . . له جذع كالشجرة التى لها أغصان وأوراق وأزهار وثمار . .

وأحسست أننى أدور حول كل الأشياء وأحيانا تدور الأشياء حولى . إنها دوخة مضاعفة . عقلى يدور . ورأسى أيضا . وأحيانا أجد رأسى على كتفى وأحيانا لا أجدها .

وفى ذلك الوقت كتبت قصة قصيرة لم أدرك عمقها إلا فيما بعد . . عن شخص ظل ينطوى وينكسر حتى دخل رأسه فى بطنه وراح يتدحرج مثل كرة . ولم ينقذه من هذه الدوخة إلا فيلسوف حكيم . رآه يتدحرج . فاستوقفه . وأبعد بطنه عن رأسه . وصلب عوده وشد ذراعيه وساقيه . وأثبت رأسه على كتفيه وفتح عينيه ودق رأسه مرة بعد مرة حتى أفاق . وعندما أفاق قال له : الآن قد عادت لك الحياة . وعاد لك نور العقل ، واستقامت الأرض احتراما لاستقامة ظهرك ونظرتك . . أنت الآن مخلوق جديد . . والدنيا جديدة لمن يريدها كذلك . . فنحن الذين نجعل الدنيا جديدة وقديمة . . ونحن الذين نسمح لها بأن تكون قريبة وبعيدة ، وليس صحيحا أن الدنيا تدوخ ، بل نحن الذين ندوخ . هذه دنياك ما دمت حيا . . فإذا مت أنت ، ماتت دنياك أيضا . . وأنا وأنت نعيش فى لحظة واحدة فى زمان واحد ولكن كل واحد منا له مكان فى هذا الزمان .

أدهشنى هذا الذى تخيلت ، وأدهشنى أكثر أننى انتقد سلوكى انتقادا عنيفا ، وأدهشنى أكثر وأكثر أننى لم أقرأ ذلك فى أى كتاب . . إذن . . إذن أستطيع أن أكتب وأن أقول ، وأن يكون لكلامى معنى !

وجاءتنى الفرصة . . فقد نشرت مقالا فى مجلة (المنصورة الثانوية) وكان مقالا عجيبا . . فقد تخيلت حواراً بينى وبين عزرائيل . . وانتهى الحوار بأننى أقنعت عزرائيل بأن موعد موتى لم يحن بعد . . وأنه أخطأ فى الاسم وفى العنوان !

فإن كان لهذه المقالة من معنى فهو أننى أريد أن أبقى أكثر . . وأننى أرفض الموت . . أو لا أتعجله . وأن من الممكن إقناع عزرائيل بشىء آخر . وقد أقنعته . . !

وقد عدت إلى هذا المعنى مرة أخرى عندما نشرت مقالا فى مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ، وكان موضوع المقال فلسفيا . . فقد كنت طالبا فى قسم الفلسفة وما دمت فى قسم الفلسفة فلابد أن يكون مقالى فلسفيا . . واخترت موضوعا غريبا هو أننى كنت أسير فى شوارع إحدى بلاد الهند . . وفجأة وجدتنى تحولت إلى ملاك ثم تحولت إلى شيطان ثم إلى نسر ثم إلى سلطان ثم إلى تمثال من السكر ، وفجأة هجم النمل على السكر فحطمه ونقله إلى أحد الجحور . . وهناك دبت الحياة فى ذرة سكر فصارت ملكة على مملكة النمل !

ما المعنى ؟ هل كنت مقتنعا ببعض الفلسفات الهندية بأن يتحول الإنسان إلى حيوان إلى جماد . . وهل كل شىء فى الكون كان قبل ذلك شيئا آخر . . وهل الإنسان ـ أى إنسان ـ كان شيئا آخر قبل ذلك . . قطا أو كلبا أو نملة أو نحلة . . وأننا سوف ننتقل من حيوان إلى حيوان وإلى مالا نهاية . . يجوز . . ولكن أحدا لم يعلق على هذه المقالة . . ولابد أنهم قالوا فلسفة . . يعنى كلام مش مفهوم !

(٣)

الصدفة هى التى جعلتنى أرى مجلة (الرسالة) . . ولم أكن قد سمعت عنها . . ووقفت أقلب عينى فى صفحاتها . عناوين غريبة ، وأسماء جديدة .

وكما يحدث فى كل مرة أجد كتابا جديدا ، فإننى أذهب به مباشرة إلى البيت . وبقية الطقوس معروفة . أدخل الغرفة وأغلقها . وأجلس إلى المكتب بعد أن أكون قد ارتديت جوربا ثقيلا وبلوفر ـ حتى لو كان ذلك فى الصيف ـ وأشعر بأن الجورب والبلوفر هى جدران أو طبقة واقية . واقية من ماذا ؟ لا أعرف . ولكن من غير ذلك أحس بكل شىء حولى . . ببرودة الجدران وبرودة الأرض ، وأضع إلى جوارى شيئا آكله . . أى شىء . . حتى لو كان خبزا طريا . . لابد أن يكون طريا أمضغه فلا يكون له صوت . . وتمضى الساعات وأنا أقرأ حتى أقرأ المجلة كلها فى ليلة . . وقد لا أفهم معظم المقالات .

ولكن من المؤكد أننى قرأتها . . فإذا أعجبنى مقال أعيد قراءته فى نفس الوقت . . أو أعود إليه فى الصباح .

واكتشفت الأستاذ العقاد فى مجلة (الرسالة) ، ولم يهدنى إليه أحد ، ولا سمعت أحدا تحدث عنه أو قرأ له ، ولكن كان اكتشافى للعقاد حدثا هاما جدا فى حياتى .. قرأت له مقالا واثنين وثلاثة .. وذهبت إلى البائع أطلب منه الأعداد السابقة من مجلة (الرسالة) .. وقال لى أحد الأساتذة إن للعقاد كتبا أيضا .. وهذه الكتب موجودة فى المكتبات فى شارع السكة الجديدة .. وذهبت مبكرا . وقبل أن تفتح المكتبة أبوابها ورأيت له كتابا فى الفترينة ..

وكان الكتاب القنبلة .. أو الكتاب الثورة .. أو الكتاب الزلزال . الكتاب اسمه (هذه الشجرة) وهو يتحدث عن المرأة . لم أقرأ مثل هذا الكلام من قبل .. لم يكن أسلوب العقاد رقيقا ولا ناعما ولا جميلا ، ولكن العبارات كأنها حديد مسلح .. قضبان حديدية .. قوية تخرج منها المعانى .. وكل ما يقوله يقنعك .. وترى المعانى تخرج بعضها من بعض .. ويصنفها وينظمها ويبنى بها تكوينا هندسيا متينا .. ولا أحد يكتب مثل العقاد ، ولا أحد عنده هذه القدرة العقلية ولا هذا الشمول ، ولا هذا العلم .. إنه اكتشاف .. إنه أكبر مصباح أضاء طريقى ..

فكيف كان ذلك للعقاد .. كيف هذا العقل ؟ هذا العلم . هذه الحجة ، إن موارده الفكرية لا حدود لها .. ولكن الذى يملكه العقاد ولا يملكه غيره هو هذا العقل الذى يهضم كل هذه المعلومات . وهذه القدرة على ترتيب وتنظيم هذه الأفكار . كيف ؟

هذا هو السحر وهذا هو الوضوح وهذا هو النور الهادى ..

ولم أعد أقرأ مجلة (الرسالة) إلا إذا كان فيها مقال للعقاد ، فإذا لم يكن لم تكن هى أيضا ، فأنا أقرأ ما كتب العقاد ثم لا ألتفت إلى بقية المجلة .

ومن آثار هذا الحماس للعقاد ، أننى انشغلت به كثيرا عن أدباء كبار معاصرين .. عن طه حسين والمازنى والحكيم وحسن الزيات .. ولم أتنبه إلا فى مرحلة أخيرة جدا إلى أن العقاد قد شغلنى عن قمم أخرى ..

وكنت أندهش جدا كيف أن كتابا آخرين يهاجمون العقاد ، ويكون الهجوم شديدا .. ولا أعرف أنا كيف أرد عن العقاد . إما لأننى لا أعرف ، وإما لأننى لست أفهم ما الذى كان الخلاف عليه .

ولم أكن أسأل أحدا عن معنى هذه المعارك الفكرية . لا زملائى سألتهم ، ولا

أساتذتى ، واعتبرت أن هذه مسألة سرية خاصة . . خاصة بى وحدى . فأنا قد اهتديت إلى شىء جديد . إلى كنز . . إلى دنيا جديدة . وعيب هذه الدنيا أننى لا أستطيع أن أنشغل بها كل يوم وإنما مرة كل أسبوع . .

وفى مرحلة المراهقة هذه عدت كثيرا إلى كتاب (هذه الشجرة) للعقاد . ولا أدعى أننى فهمت كل الذى قاله العقاد . فلم أكن واعيا تماما لما يقول . . ولا هذه القضايا والمشاكل مما يشغلنى . فأنا مشغول جدا ، ولكن ليس بما يقول العقاد . وفى نفس الوقت لا أعرف بالضبط ما الذى أريد . . أو ما الذى يعجبنى أو الذى يريحنى ، أو من الذين أصادقهم من المؤلفين . . أو ما هى الأفكار الأقرب والأحب . . فأنا فى سوق فى مهرجان . . فى متحف . . وسط شىء كثير من كل شىء له لون وله صوت وله رائحة .

أو كأننى ألقيت فى البحر ، ولا أعرف السباحة . .

أو أسقطت بمظلة إلى جزيرة بعيدة مسحورة . . لا اعرف اسمها ولا رسمها . . ولا أعرف ما الذى أريد أو الذى أريد لى . . ولابد أن أنجو من السقوط . . وأن أترك المظلة وأن أنطلق . إلى أين ؟ لا أعرف . لماذا ؟ لا أعرف . . ما هو المطلوب ؟ ليس مطلوبا أى شىء غير أن أقف والتفت حولى واتجه إلى أية جهة . . فالجزيرة وما فيها وما حولها كل ذلك جديد فى جديد . . أو كأننى كنت ماشيا فى الطريق . . وامتدت يد خفية قوية . . ودفعتنى . . بقوة . . وبمنتهى القوة . . وانفتح الستار . . إننى على المسرح ومطلوب أن أقول وأن أرقص وأن أغنى . . وأنا لست كاتبا ولا ممثلا ولا مطرباً . . وإنما المطلوب أن أرتجل . . أرتجل سلوكا وفكرا وحياة . . كيف ؟

كأننى فى مقدمة مظاهرة طويلة عريضة تهتف . . كل الناس يهتفون . . وكل واحد يختار له اسما أو شعارا . . يعيش . . يعيش . . يسقط . . يسقط . . فمخالى صاحبى يقول يعيش أفلاطون . . وخالد يقول : يعيش شفيق باشا المصرى . . ضياء يقول : يعيش بسمارك . . وجمال أبو ريه يقول : يعيش محمد عبد الوهاب . . وأنا أقول : يعيش العقاد .

ما المعنى ؟

لا معنى ! أنا فقط يجب ألا أتوقف عن المشى . . عن الحركة . . لا تغمض لى عين ولا تهدأ لى نفس . . ولا يتوقف لى عقل . . أما دقات قلبى فهى تهز كل شىء من عينى حتى قدمى !!

حاولت أن أحب اثنين
في وقت واحد وفشلت!

(١)

وفى ذلك الوقت عرفت الأرق . . ليس الأرق تماما . . ولكنه النوم القصير . . بسرعة أنام . . وبسرعة أصحو . . فإذا صحوت جلست . . نهضت . . وقفت . . اتجهت إلى المكتب . . كأننى إنسان آلى برمجوه . . فى الساعة الرابعة ينام على ظهره ثم على جانبه الأيمن ، ثم ينهض جالسا وقدماه فى الشبشب ، ثم يقف ، وبسرعة إلى المكتب . . وفى المكتب يجلس ويمد يده ، ويسحب ورقة وقلما ، ويكتب .

وأكتب وأكتب . . كأننى حفظت هذه العبارات أثناء النوم ، وأظل أكتب . وأنا أعلم أننى سوف أمزق هذه الأوراق كلها بعد يوم أو يومين . لماذا ؟ لا تعجبنى . لماذا كتبتها ؟ لا أعرف . ولماذا بهذه السرعة ؟ .

وبعد أيام أعيد كتابتها أفضل ، لها أول ولها آخر . .

ولكنى كنت دائما أفضل أن أجد شيئا أقرؤه .

ووجدت كنزا ، ففى يوم قرأت مجلة (الرسالة) فوجدت أحد زملائى فى الفصل يكتب فيها . . زميل لى ويكتب فى الرسالة التى يكتب فيها الأستاذ العقاد ؟ كيف ؟ ظللت أتأمل هذا الزميل وكأننى أرى كائنا من كوكب آخر . . ليس بينى وبينه أى شبه ، فأنا أجلس فى الصف الأول . . وأنا أول الفصل . . وأول المدرسة . وهو يجلس فى الصف الأخير ، ثم إنه لم ينجح منذ سنوات ، وهو يرتدى ملابس أنيقة جدا ، بدلة كاملة ، أكثر أناقة من ناظر المدرسة ، القماش يلمع ، والكرافتة ، والكرافتة يربطها دبوس ، يقولون إنه من الذهب وفيه فص من الماس . ويرتدى طربوشا أحمر قاتما ، والطربوش مختلف عن الطربوش الذى أضعه على رأسى . . أما حذاؤه فهو شديد اللمعان ، محكم له بوز مدبب . . وانظر إلى حذائى إنه كبير . واسع عريض . إنه حذاء أحد إخوتى ، ولم أر أنه قبيح حقير أجرب إلا فى ذلك اليوم . . وقدمى فى الحذاء صغير ، وجوربى قصير . . وبنطلونى قصير وقميصى قصير ، ولا أرتدى جاكتة . والطربوش قد جعلت زره إلى اليمين وأميل إلى الأمام ، ويقال فى ذلك الوقت أن هذا من علامات الوجاهة . . أو لفت النظر . .

وفى المقعد الذى أمامى يجلس عبد السلام داود ، الذى صار صحفيا بعد ذلك . .

وورائى يجلس محمد عبد الفتاح محسن الذى صار بعد ذلك مديرا للمساحة العسكرية . .

وإلى جوارى يجلس جمال الباز الذى صار طبيبا كبيرا . .

أما زميلنا الكبير هذا فأنا لا أحول عينى عنه . . أعجوبة فى كل شىء . . حتى إذا خرج من الفصل كانت خطوته سريعة ، وكان يمشى جادا لا يلتفت إلى أحد ، وكان لحذائه صوت موسيقى .

ويختفى فلا أراه بعد ذلك . .

وفى يوم قررت أن أمشى وراءه ، ومشيت واقترب من سينما عدن التى على كورنيش النيل . . ودخل شارعا ثم توقف عند أول باب . بيت صغير أو فيلا .

وأخرج من جيبه مفتاحا وانفتح الباب ، ومن داخل البيت هبت روائح غريبة .. عطرية ولحم شواء وفاكهة . إنه ـ إذن ـ مختلف فى كل شىء ، فكيف لا يقرأ مالا أقرأ ويكتب مالا أستطيع وأن يجىء مقاله فى نفس المجلة وبعد العقاد بصفحات .. ثم لا ينجح فى الدراسة ! لا أفهم !

ولم أسأل أحدا من الزملاء من يكون هذا ..

وقررت أن أعرف بنفسى ، فى اليوم التالى ذهبت إليه ، لم أكد أقف حتى بادرنى قائلا : طبعا أنت سوف تكون الأول فى التوجيهية .. أنا لا أستطيع أن أفعل مثلك . ومن سنوات لم أفلح .. أنت تذاكر ليلا ونهارا ويقولون أنك فى إحدى الليالى أحرقت حاجبيك ورموش عينيك لأنك انكفأت على المصباح الغازى .. كل ذلك لا أستطيعه !

كيف يعرفنى ؟ وكيف يعرف عنى حكاية احترق شعر رأسى وحاجبى .. لابد أنه سأل عنى . ولماذا ؟ لعله أراد أن يعرف ما أنا ومن أنا ، وعرف أننى سوف أتقدم عليه ، وهو عاجز عن أن يكون مثلى لأننى تفوقت عليه .. بينما هو قد تفوق على المدرسة وعلى المنصورة كلها بمن فيها من قضاة ومحامين وأطباء وأدباء وينفرد وحده كالأستاذ العقاد بالكتابة فى مجلة (الرسالة) ، إنه يرانى أفضل منه .. شىء غريب ! لم أكن أعرف أننى أفضل من أى أحد ، فأنا غرقان لاأرى ولا أسمع كأننى أمشى تحت الأرض وفى الظلام ، وهناك بعيدا جدا أرى مصدرا ضوئيا يجب أن أتجه إليه وبأقصى ما عندى من قوة وأرق وقوة ذاكرة وخوف من الفشل لكى أحقق أحلام أمى التى لا أستوعبها كلها ، ولكن لابد أن هذا قرار نهائى !

وفى يوم اقترب منى أو أنا الذى اقتربت . هل هو الذى قال أو أنا الذى قلت : طبعا عندك مكتبة هائلة ؟

فعلا هائلة .. إنها الغرفة التى على يمينك وأنت تدوس فى سجاجيد على الأرض . وتتخبط فى المقاعد الكبيرة والكثيرة ، وتقاوم الروائح العجيبة التى لم أشمها فى أى مكان قبل ذلك ، وفى البيت أصوات أو أصداء ناعمة . هل هى أصوات أحد؟ .. أو أصوات الأطباق والشوك والسكاكين وموسيقى من راديو بعيد .. حتى الأصوات مختلفة .. حتى الأصداء مختلفة .. حتى باب المكتبة

زجاجى . . إنها غرفة خاصة . . بها الكتب من الأرض إلى السقف وكل شىء يلمع . . الزجاج والخشب والأرض والمكتب والمقاعد . . وفى ركن ترابيزة عليها فناجين وبراد ألبسوه (طاقية) حتى لا يبرد الشاى . والسكر قوالب شديدة البياض . . ودقات على الباب وخادم يتقدم وقال كلاما لم أفهمه ، واقترب من البراد والفناجين ، وسألنى : قطعة سكر واحدة أو قطعتان .

فقال صاحبى : اثنتان إنه يسهر ثم إنه ضعيف كما ترى فى حاجة إلى سكريات . . بل ثلاث قطع !

وضحك ويبدو أننى أيضا ضحكت . . فلم يعجبنى الذى قال . وانطفأت الدنيا كلها أمامى . . واختفت معالم الكتب . ولم يعد هناك فارق كبير بين الأرض والجدران . وبين قوالب السكر وجلباب الخادم . . ولا رائحة البيت ورائحة الشارع . ولم أفلح فى إنقاذ نفسى من هذا الذى أغرقنى أو استولى علىّ . . أو سحب منى القدرة على رؤية وسماع أى شىء . .

ويبدو أن كل ذلك قد ظهر واضحا على وجهى . فسألنى صاحبى : أنت فى حاجة إلى نوم ، ولكن الشاعر القديم قال : من طلب العلا سهر الليالى . . أنت الذى يقصده بهذا المعنى . . أما أنا فقد خصنى ببيت آخر :

ومن طلب العلا فى غير كد أضاع العمر فى طلب المحال !

وبدأ كل شىء يعود إلى مكانه ولونه واسترد الهواء الدافىء فى المكتبة روائحه . . واستردت الأصواد والأصداء أماكنها من أذنى . . وتعلق كل شىء من السقف . . وارتفعت عينى أرى . . الكتب كلها مجلدة تجليدا فخما . وسألنى : ماذا تريد ؟ كتب العقاد أستاذك ؟

وهو ـ أيضا ـ يعرف أننى أحب العقاد ؟ وكنت أظن ذلك سرا بينى وبين نف . وأدهشنى ذلك وسألته : كيف عرفت ؟ من قال لك؟ !

لابد أننى أقول ، ولكنى فى حماس لا أدرى . أو أدرى ولكننى أنسى وأنسى لأننى أريد أن أنسى . . فأنا أريد أن أؤكد امتيازى باختيارى لما أقرأ ولمن أقرأ . وفى نفس الوقت لا أريد أن يعرف ذلك أحد . .

وسمعته يقرأ كتب العقاد . . خمسة . . عشرة . . عشرين . . ولم أكن أعرف من كل هذه الكتب إلا ثلاثة أو أربعة ، وبعضها لم يعجبنى ، وهى لم تعجبنى لأننى لا أهتم كثيرا بدراساته الشعرية . . فهى بعيدة تماما عن اهتماماتى . . وإن كنت فى ذلك الوقت لم يكن لى اهتمام واضح محدد ، ولكن الكتب التى تهمنى هى التى أجلس إليها طويلا ولا أتركها ساعة وراء ساعة . . يوما وراء يوم . . ولكن الكتب التى لا تلقى ارتياحا منى هى التى أقلبها وأقرأ . . وأقلبها وأقرأ . . من أولها ومن آخرها . . ولا أجد فيها الذى أريد . . أما الذى أريده فهو أنا . . إننى أبحث عنى فى هذه الكتب !

وكان صاحبى هذا كريما معى . . أعطانى كتبه . . ولم يكن فى حاجة أبدا لأن يقول لى : كما أخذتها نظيفة ، لابد أن تعود لى كذلك !

كتاب وراء كتاب بعد كتاب . . وفى يوم سألنى : قرأتها

ـ نعم .

ـ جميعا ؟

ـ نعم .

ـ يا راجل حرام عليك .

ـ ولخصتها أيضا . ولى تعليق عليها . .

ـ كتبت التعليق على هوامش الكتب ؟

ـ لا فى كراريس عندى .

ـ معقول ؟

ـ إذن سوف أذهب إلى بيتك لأرى بنفسى .

ـ لا . . غدا آتى بها إليك هنا !

وذهبت إليه ومعى الكراريس . . لم يصدقنى . . حتى قلبها . . وقرأها وقال : طبعا لابد أن تكون أول هذه المدرسة ومصر من أولها لآخرها ، إننى لا أستطيع ذلك ولا أجد سببا لأن ألخص هذه الكتب وأكتب تعليقا عليها . . ثم لا توجد غلطة واحدة نحوية ، ولكن لماذا أنت تكره المنصورة هكذا . .

ـ أكرهها ؟ أنا لم أكتب ذلك . .

ـ بل كتبت ذلك فى مجلة المدرسة .

ثم أشار إلى (مجلة المنصورة الثانوية) ووجدت مقالا بقلمى . . واندهشت جدا . . وسألنى أنت لم تكتب هذا المقال . .

قلت : لا أعرف أننى أرسلت للمجلة هذا المقال . . ولكن يخيل لى أننى كتبت شيئا كهذا . . ولكن آه . الآن فهمت . . إنه مقال كتبته وعرضته على أستاذ اللغة العربية . وقد حزنت جدا أننى رأيته عشرات المرات ، ولم يشأ أن يقول لى شيئا . وأيقنت أن المقال لم يعجبه ، ولم يشأ أن يكسفنى ، ولكن ما دام قد نشره فى المجلة ، فالمقال ـ إذن ـ قد أعجبه .

ـ وأعجبنى أيضا ، واندهشت لما تقول من أنك كرهت المنصورة . . كرهت كل شىء فيها . . والناس أيضا !

ورويت له الحقيقة ، فقد طلب أستاذ اللغة العربية أن أكتب مقالين أحدهما : أحب المنصورة . . والثانى : أكره المنصورة . . وكتبت المقالين ولكنه أحب الذى أكره . . وكره الذى أحب !

ـ والحقيقة ماذا ؟

ـ أصعب سؤال . الحقيقة ؟ أية حقيقة ؟ حقيقتى . . حقيقتك . . حقيقة الناس . . حقيقة الأشياء . . حقيقة ما بيننا . . الأرض . . السماء . . النجوم . . الماضى . . المستقبل . . حقيقة ؟ سؤال كبير مطلوب من إنسان صغير أن يرد عليه . . إن كل تاريخ الفلسفة الذى درست منه القليل هو محاولة للإجابة عن هذا السؤال . . ولا جواب واضح . . ولا رأى مؤكد . . ولا حقيقة واحدة . . ولكن ألف . . مليون بعدد الناس وأحوالهم العقلية والوجدانية ومصالحهم ومخاوفهم وآمالهم . . وأديانهم وألوانهم . . الحقيقة كل هؤلاء . . أو ليست هؤلاء !

ـ أوه . . أوه . . أنت ذهبت بعيدا جدا . . وتهت وتريد أن تتوهنى معك . . ياه أين ذهبت . . أين ذهبوا بك . . أين أخذوك . . أين تخلوا عنك . . أين تركوك . . أين أضاعوك . .

ـ لهذا أنا كرهت المنصورة .

ـ قصدك الدنيا كلها ؟

ـ فعلا .

ـ لأنك حائر ؟

ـ لأنى جاهل .

ـ بدليل أنك تعرف أكثر مما يقدر عليه عقلك . . من الذى جرجرك إلى الفلسفة . . من الذى استدرجك . . من الذى أغراك . . أهو الأستاذ العقاد ؟

ـ ليس العقاد . . فلو لم يكن لى عقل . . أو عندى استعداد ما اتجهت إلى العقاد ولغيره من المفكرين الألمان . .

ـ هل قرأت شيئا فى الفلسفة الإسلامية ؟

ـ القليل جدا . .

ـ هل قرأت لطه حسين ؟

ـ أبدا . .

ـ وتوفيق الحكيم .

ـ أبدا . .

ـ مصطفى صادق الرافعى . .

ـ لا . .

ـ المويلحى . . المنفلوطى . .

ـ لا .

ـ سلامة موسى . .

ـ لا . . ألست على حق فى كراهيتى لكل هؤلاء . . إننى لا أجد الوقت . . ولا أعرف كيف أنام أقل . . وآكل أقل . . وأسهر أكثر . . ولا أعرف إن كانت هناك طريقة أخرى لحشر المعلومات فى دماغى غير القراءة . . الكتب كثيرة جدا . . والوقت ضيق . .

ـ العمر كله قصير . . المهم ألا تفقد هذه الشهية المفتوحة . . الجشع الثقافى . . النهم الفكرى . . الشراهة الفلسفية . . أنت الذى اخترت العطش والجوع والأرق والإحساس بضيق الوقت وقصر العمر . . أنت الذى اخترت . لا أعرف هل أحسدك . . أو أرثى لحالك . من المؤكد أننى لا أحسدك لأننى لا أحب أن أكون مثلك . . ولا أرثى لحالك فإن أحدا لم يفرض عليك ذلك . . أقول بمنتهى الصراحة . . اضرب دماغك فى الحائط ولا تصرخ من الألم .

وانفتح الباب وأطل علينا وجه أبيض أحمر ضاحك وهى تقول : مين اللى يضرب دماغه فى الحيط ؟ أهلا يا ابنى . . اتفضل يا حبيبى . . أنا جئت لكى أسلم عليك . . لأن ابنى يتغنى بأخلاقك واجتهادك . . لا أريد أن أفسد عليكما هذه الخلوة التى أسعدت ابنى كثيرا . . فهو حكى لى فى المرة الماضية ماذا قلت وماذا قال . . ربنا يكمل عقلك يا ولدى (تلتفت إلى ابنها وتقول) : هذا هو الصديق الجاد . وليس الأولاد الذين يلعبون ويدخنون ويعاكسون البنات ويريدون أن ينجحوا من غير مجهود وأن يتزوجوا قبل دخول الجامعة . . فرصة سعيدة يا ابنى . . أهلا بك فى أى وقت يا ابنى . . تفضل يا حبيبى أنت وهوه . .

وتوارت وراء الباب ، ومعها الصوت والصدى وكثير من العطور التى أدخلتها على جو المكتبة !

(٢)

وفى مذكراتى كتبت عبارات قصيرة لها شكل الحكمة .. وعبارات فيها سجع .. وعبارات فيها كلمات كبيرة .. مثلا : إننى أختلف كثيرا جدا عن العقاد فى .. أو لم يكن أفلاطون على حق عندما قال بشكل غامض .. ولا حتى أرسطو .. أو العبارة التى قالها الشاعر الألمانى شيلر بديعة ولكن تنقصها الحقيقة .. أو فيها حقيقة ، ولكن أين الصدق ..؟

وكلها عبارات خطابية ليس لها إلا معنى واحد وهو أننى أقول فى الظلام : أنا هنا - أنا أفكر أيضا .. أنا جدع !

ولم أشعر بشىء من الاحترام لمثل هذه المذكرات ، ففيها عصبية .. وفيها زعيق ليس له مبرر .. وفيها محاولات لأن أكتب .. أو أن أقول لأحد آخر شيئا .. فلم أجد سواى فرحت أقول وأقرأ لنفسى ..

وأول درس حقيقى .. كنت أنا فيه المدرس والتلميذ عندما قررت فى إحدى الليالى أن أقرأ صفحة من أى كتاب وأحاول أن أكتبها على طريقتى .. مرة ومرة ..

ودون أن يقول لى أحد أو يرشدنى . . وأجد فى ذلك عناء شديدا . أما المعنى فى النهاية فبعيد ، لأننى مشغول بإيقاع ورقص الكلمات ، أما المعنى فقد جاء متأخرا جدا . . ولم أطق صبرا على هذا النوع من الكتابة . ولما بدأت أقرأ لمصطفى صادق الرافعى أحسست أننى أعجب له وأعجب به ، ولكن لا أحب أن أكتب مثله . . وأشعر أننى مقيد بخيوط من الحرير . . ولكنها خيوط تعوقنى . . تعوق حركتى . . تعوق قدرتى على الجرى وراء المعانى . . وإن كان هو يجرى وراء وقع أقدام المعانى فى طابور منضبط . .

لا أستطيع . .لا أستطيع قلت ذلك لنفسى وسمعت فى داخلى صدى قوياً لهذا العجز . فأنا لا أستطيع وليس من الضرورى أن أحاول . .

وحاولت أن أكتب بأسلوبى صفحات من (السحاب الأحمر) لمصطفى صادق الرافعى فأفسدت صورتها الأنيقة . . واتجهت إلى كتب أخرى .

ولقنت نفسى الدرس الثانى وهو كيف أكتب هذه السطور الكثيرة فى سطور قليلة . وأحسست أننى أفسدت الشكل والمضمون . .

فكل كاتب له أسلوبه الذى يستريح إليه . .

وكنت أتدرب فقط على كتابة ما كتبه الآخرون . . أى الأساتذة . ولم أخرج من هذه التجربة بشىء ، ولكنى أحاول .

وكان الدرس الثالث . فقد قلت لنفسى : ولكنى أعرف كيف أكتب ، وكل الذى ينقصنى هو أن أجد ما أقوله . .

وكيف لا أجد ما أقول ، فكل شىء من الممكن أن يقال عن أى شىء . . فوقوفى الآن ودورانى حول مكتبى ، صورة يمكن وصفها . . ما أشعر به الآن حتى لو لم يكن شيئا ، فمن الممكن أن أصفه . . وعندما أقف على المقعد وأنظر من وراء النافذة لأرى بنت الجيران التى لا يحلو لها الكلام والضحك إلا إذا أحست أننى فى غرفتى أذاكر . . هذا الذى فعلته وهذا الذى ترددت فيه . . والذى رأيته والذى سمعته . . وإذا كانت هى رأتنى أو حاولت أن تتجاهلنى ، كل ذلك كلام يقال ، كل شىء يمكن أن يوصف وأن يقال . . وكل شىء من الممكن أن يتكلم . . فأنا

أستطيع أن أجرى حوارا مع الكتب والمقاعد . . أو حواراً بين الكتب بعضها وبعض . . بين مؤلفها وبينى . . إن (كليلة ودمنة) فيها حيوانات تنطق بالحكمة . . كل شىء يمكن أن يقول . . ويمكن أن نقول على لسانه ما نريد . . فلا أول ولا آخر لما أستطيع أن أقول وأن أكتب . . مادمت قادرا على الكتابة . . إن صديقنا خالد حسونة قرأ نفس الكتاب الذى قرأناه ، ولكن عندما يجىء يحكى لنا ما قرأ فإنه يحكى حكايات عن نفسه وعن الذين قطعوا عليه القراءة . . وكيف يتخلص منهم . . وعن الذى رأى فى الطريق . . ثم إنه أحيانا يسخر من مذكرات شفيق المصرى والجبرتى . .

أى أن عنده كلاماً . . عنده حكايات . . وأنا أيضا عندى ، ولكنى أفضل أن أكتب لا أن أقول . ولكن ماذا ؟ هذا ما لم أناقشه مع نفسى . خجول أنا ؟ نعم . فما الذى يخجلنى ؟ إنها أمى التى عمقت عندى الشعور بالخجل . حتى أصبحت أخجل أن أقول . . أن أمشى . . أن أنظر . . أن ألتفت . . يوم قابلتنى جارتنا وقالت لى : مبروك . .

عندما ظهرت النتيجة ونشرتها صحيفة (الوفد المصرى) وكان ترتيبى الأول فى مسابقة الفلسفة . ارتبكت وأغرقنى عرقى وارتفعت درجة حرارتى ولم أعد أرى الشارع تحتى أو أمامى . . ورأيتها هى الأخرى غارقة فى ضباب أبيض ، وأظننى لم أقل لها شيئا ، وإنما اندهشت وانزعجت وكدت أقول لأمى : البنت دى قليلة الأدب فاجأتنى فى الطريق وقالت لى مبروك .

ولابد أن أمى سوف تقول : مين دى . . البنت أم عين فارغة . . إزاى تكلم واحد زيك مؤدب ابن ناس . . دول بنات عاوزين قطع رقبتهم . . وأنت عملت فيها إيه ؟

فأقول : زعقت فيها وقلت لها أنت مالك يا قليلة الأدب .

ـ آه . . كده كويس ! دى بنات مش لاقيه حد يربيها ، وهيه عملت إيه لما أنت شخطت فيها . .

ـ طلعت تجرى يا ماما . .

ـ وأنت عملت إيه ؟

ـ طلعت أجرى وراها . . لكنى هى سبقتنى .

ـ برافو عليك ! وبيتها فين واسمها إيه ؟ . . وشكلها إيه ؟ . . تكونش البنت عواطف ؟ . .

ـ لا . .

ـ وانت تعرف عواطف ؟ .

ـ لا . .

ـ ولا هى سناء ؟ . . مش هى قصيرة ومكعبرة كده وشعرها أكرت ومبهدلة فى نفسها .

ـ لا . . دى طويلة . .

ـ البنت أم طويلة الهايفة التافهة اللى أبوها بيبيع جرايد . . وشعرها ضفيرة وبتجيبها على صدرها . .

ـ لا . .

ـ لونها أبيض ؟

ـ شقراء . . وشعرها ذهبى . .

ـ شعرها ذهبى . . أنا عرفتها . . ماهى بتصبغ شعرها زى أمها . . ويبقى دى عندها وقت للمذاكرة . . دى تبقى عاوزه تتجوز . . وعلشان تتجوز لازم تشغل أولاد الناس اللى بيدوروا على مستقبلهم . . وهيه قالت لك إيه وقابلتها فين بالضبط . .

ـ عند الكوبرى .

ـ ياه . . هناك كده

ـ كنت حأقول لك بلاش تمشى فى السكة دى . . ولكن أنا عارفة إن دى سكة المكتبة وأنت وصحابك الجدعان المؤدبين بتتقابلوا هناك . . ولا تسأل فيها المرة الجاية . . وهيه من المؤكد بعد ما أنت ماورتها العين الحمراء وشخطت فيها وجريت وراها مش ممكن حتتعرض لك تانى !

لم يدر هذا الحديث بينى وبين أمى . وإن كنت بعد بضعة أيام اخترعت لها

حكاية عن واحدة أخرى حاولت تعاكسنى . . ولم يختلف الذى قالته أمى عن هذا الذى تخيلته . . فقط فى ترتيب الكلمات وفى كثرة علامات الاستفهام والتعجب !

واتخذت كتابتى شكلا حواريا بينى وبين نفسى . . وبين كل الناس . . حتى هذه الطالبة جارتنا كان بينى وبينها حوار . . وبعد أن رأيتها بوضوح تعمدت أن أصفها وأن أبالغ فى الوصف الدقيق . . وتخيلت ما الذى يمكن أن تقوله أمى لو قرأت لها ما كتبت ؟ وما الذى يمكن أن يقوله أبى . ؟ وما الذى يمكن أن تقوله عواطف هذه إذا ما قرأت وصفى لعينيها وابتسامتها وشفتيها وفستانها ومشيتها وخصوصا مشيتها ؟ وكانت تعجبنى مشيتها مع أنها لم تكن ذات دلال . . وإنما كانت مثل مشية الأوزة . . أو راقصات الباليه سريعة . . ورأسها مرفوع . . ثم لا تلتفت إلى أحد .

ولكن فى حوارى معها : جعلتها تلتفت وتمسك يدى وتنظر إلى عينى وتحاول أن تقبلنى . . هى التى تحاول . أما أنا ففى حوارى معها وجلوسى الطويل إليها لم أحاول !

(٣)

أما صاحبى الذى دعانى إلى مكتبته فاسمه فهمى السلحدار . . ذهبت إليه أزوره على غير موعد . وكان بيته مليئا بالناس . وارتبكت ولم أعرف ما الذى يقال فى هذه المواقف . ولكن كان ارتباكى واضحا . وكان ذلك اعتذارا بليغا ، بل لم يكن اعتذارا ، بل كان عقابا صارما ، فقد اضطربت وارتطمت بالحائط . . ولم أتنبه إلى وجود حفرة فسقطت فيها . . والباقى لا أذكره الآن بوضوح . .

وفى بيته والناس حولنا يتساءلون ، عرف أننى جئت إليه لسبب غريب ، فقد كتبت له خطابا .

واندهش والناس أيضا ، ولم يفهموا أن أكتب له خطابا وهو زميلى ، ولماذا لا أقول له ما أريد . . ولم يفهموا لماذا فعلت ذلك . . إننى أريده أن يقرأ لى . فقد كنت أحدثه عن الذى قرأته وعن رأيى . . وعن خلافاتى مع أمى . وعن خوفها الدائم من البنات التى تتوهم أنهن يعترضننى فى كل طريق يردن خطفى منها وضياع مستقبلى . . وكنت أضحك من مخاوف أمى . .

ولم يخطر على بالى أنه قرأ هذا الخطاب لأمه . . فأمه هى الأخرى تخاف على ابنها الغنى الذى ورث الكثير عن أبيه . . والبنات يردن خطفه لا لأنه تلميذ فاشل ولكن لأنه غنى . . والبنات موجودات بكثرة فى حياته وهذا سر تخلفه فى الدراسة . ولابد أن تكون أمه قد تضايقت ، ويبدو أنها كانت كذلك . فكان ترحيبها بى أقل وسعادتها بزيارتى قد اختلفت . أو هكذا كان إحساسى . .

وانتظرت من فهمى السلحدار أن يقول لى رأيه . فقال فى خطاب بعث به إلى . الخطاب كبير . الورق أزرق وقوى وصغير . والخط جميل وأنيق . والصفحات لها أرقام أجنبية . وكان يكتب بحبر أخضر . .

وكانت سعادتى لاتوصف . فهذا مقال لم يشأ أن ينشره فى مجلة (الرسالة) وإنما بعث به إلىّ . . وأسعدنى ما قاله عن أسلوبى وعن أفكارى . . وأسعدتنى تمنياته لى بأن أكون كاتبا وأن تجىء مقالتى بعد مقالة العقاد مباشرة ، أو قبلها . .

كم مرة قرأت هذا الخطاب ، وكم مرة قرأت تمنياته هذه . . مائة مرة . . وأمسكت القلم ووضعت خطا ثقيلا تحت عبارة جاءت فى خطابه العبارة تقول : أؤكد لك أن أسلوبك أحسن وأجمل من ٩٠٪ من كل الذين يكتبون فى مجلة الرسالة !

أسعدتنى هذه العبارة ولكن لم أفهم ما الذى يقصده . ما معنى أسلوبى ؟ . . وهل لى أسلوب ؟ . وما هو هذا الأسلوب ؟ . . وكيف يكون أحسن ؟ . . بل كيف أجعله أحسن وأجمل وأروع ؟ . . وكيف أجعله يستحق أن يوضع فى الصفحات الأولى من مجلة (الرسالة) ؟ . . أو كيف أكتب عددا من أوله لآخره ؟ . . أو كيف أؤلف كتابا . . كيف ؟ متى ؟ وما الطريق ؟ ومن الذى يساعدنى ؟ ومتى أقرر ذلك ؟ وكيف كان الكتاب الأول لأى كاتب ؟ كيف فكر فيه ؟ كيف قرر . . كيف انتهى منه . . وما الذى يمكن عمله لكى يظهر هكذا كتابا فى الأسواق . . كيف ؟ كيف ؟

كان ذلك فى الأيام الأخيرة من العام الدراسى . . آخر شهر فى آخر سنة . . وبعد ذلك جامعة القاهرة ـ كلية الآداب ـ طبعا قسم الفلسفة . . كل شىء كان ينتهى أمامنا . . نحن نجمع أوراقنا . . نودع الأساتذة نودع بعضنا البعض . . نتفق على اللقاء . . ونخشى أن نضيع فى القاهرة أو فى الجامعة . . وننقل عناوين البيوت وأرقام التليفونات . . والأساتذة يتمنون لنا كل شىء جميل فى هذه

الدنيا . . والأساتذة يؤكدون أنهم يعرفون مستقبلى . . ويؤكدون ذلك فلابد أن أكون شيئا هاما . . هم على يقين من ذلك . .

ولم يبق على جرس الحصة الأخيرة إلا عشر دقائق عندما وقف فهمى السلحدار وقال لأستاذ اللغة العربية : عندى مفاجأة يا أستاذ . . هذه مقالة أدبية جميلة جدا كتبها أنيس منصور . . وأريده أن يقرأها فى الفصل . . أروع ما كتب أديب صغير ولد سرا فى المنصورة الثانوية .

وأخرج المقالة من جيبه . . وأعطاها للأستاذ الذى طلب منى أن أقرأها . وكان ارتباكى واضحا . واحمر وجهى . والمفاجأة .

قرر فهمى السلحدار أن يقرأها . . وكان صوته مليئا ونطقه واضحا ثم أنه لا يخطىء فى النحو . . وقرأها على مهل . . وأعاد بعض سطورها . . وكان يتوقف عند بعض العبارات ويتهدج صوته كأنه يغنى أو يريد أن يبكى . .

وانتهى من القراءة بأن طلب من الجميع أن يصفقوا لابن المنصورة الثانوية الذى كان أول الثقافة وسوف يكون أول التوجيهية كما كان أول مسابقة الفلسفة والذى تعلقت صورته على باب غرفة ناظر المدرسة . . ووقف الطلبة يصفقون والمدرس . .

نهاية حماسية مفاجئة لحياة غريبة عجيبة فى المنصورة . . والمنصورة الثانوية . . وانطلاق إلى المجهول مع كثير من الخوف والقلق والحيرة .

فقد انفتحت الدنيا فى القاهرة واتسعت وتباعدت . .

وكل شىء كثير فى الشوارع وفى المدرجات وفى المكتبة العامة . .

وازداد شعورى بالخوف من خمسين طالبا من مائة طالب فى المدرسة كلها . .

والآن واحد من ألوف . . من عشرات الألوف من ملايين من سكان القاهرة . .

(٤)

حاولت أن أحب اثنين فى وقت واحد . لم أستطع أن أحب فهمى السلحدار وأن أكون صديقا له . . وأن أحب مصطفى صادق الرافعى . .

إن فهمى السلحدار لطيف وظريف ورقيق ومجامل جدا . ولا يخطئ إذا تحدث عن أى أحد . كأنه يحب كل الناس . وكأنه فى مودة مع كل الكلمات . . شئ واحد يضايقنى وهو معاملته لوالدته . . الطريقة التى يتكلم بها عن أمه . .

فى إحدى المرات قالت له : ما الذى تحب أن تأكله غدا ؟ . .

قال لها : زفت !

فضحكت الأم وشعرت بالخجل من وجودى . وقالت : زفت باللحمة . .

فقال غاضبا : زفت بالزفت . خلاص . استريحت !!

فضحكت الأم وكأنها اعتادت على ذلك . . أو أنها حاولت أن تخفف من وقع هذه العبارات على واحد غريب مثلى . . فقالت : عرفت ماذا تريد . . أنت تريد حمام محشو . . حاضر من عينى دى ومن عينى دى . . وما هو الخضار . . أنا أعرف الخضار الذى تحبه . . وهل تريد صينيه بطاطس بالفرن . . وهل ستدعو صديقك أنيس للغداء معك . .

ـ خلاص بقى . . مش عاوز أتكلم !

فى تلك الليلة لم أنم . كأنه قد شتمنى . وبهدلنى . وضربنى . ثم ألقى بى من النافذة فى حفرة ثم أخرجنى وألقانى مرة أخرى . . كيف يفعل ذلك مع أمه ؟ كيف أقرأ له بعد ذلك . . كيف أنظر إلى وجهه . . إلى عينيه . . إلى ملابسه التى أعدتها أمه . . واختارتها أنيقة فاخرة . . والبيت البديع وهذه الموسيقى الهادئة والأصداء والأضواء والعطور . . وكل شىء خادم له . . كل شىء ينتظره . . المقعد والسرير . . والمكتب وتربيزة الشاى والكيك والخدم وواحد ينحنى له كلما خرج أو دخل . . وابتسامة غنية سخية على وجه أمه . . ابتسامة جاهزة فى أى وقت . .

حاولت . . وافتعلت مناقشات فى موضوعات مختلفة . . مثلا قلت له : أنا أريد أن أشعر بصداقة أو أستاذية أو مودة مع مصطفى صادق الرافعى . ولكن شيئا يمنعنى من الاقتراب أكثر . . هناك سور . . شوك . . علامات فى كل اتجاه مكتوب عليه ممنوع الاقتراب . . احترس .

فقال جادا : إنها عيوبك أنت وليست عيوبا فى الفنان العظيم والباحث الإسلامى الفذ .

فقلت : ما هى العيوب ؟

ـ عيوبك أنت . . تسألنى عن عيوبك . . ابحث أنت عنها . . ألست قارئا

للفلسـفـة ألست باحـثـا . . ألست تقـول من رأيى هذا وليس من رأيى . . اسـأل نفسك عن رأيك وأسباب وعناصر هذا الرأى . .

ولم أسترح إلى مثل هذا الحوار . .

ولكن فهمى السلحدار رجل لطيف ومهذب جدا . . كيف يكون النقاش معه حادا هكذا ؟ . . وكيف يتحول عن الموضوع إلى إدانتى أنا ؟ . .

ولا زلت حريصا على لقائه فهو أفضل كثيرا جدا من بقية الزملاء . . وكان هو حريصا على لقائى . . فربما كنت الوحيد الذى يتحدث معه بالعقل . . بينما كان الزملاء ينفرون منه . ويتهمونه بأنه متغطرس ويتعالى عليهم مع أنه طالب فاشل ـ هكذا يؤكد المدرسون وأولياء الأمور ينصحون بالابتعاد عنه . . وينصحوننى أيضا . .

فى الصباح إلى المدرسة وجدته أمامى فأسرعت لكى ألحق به . . ولم أكد اقترب منه حتى توقف سعيدا : صباح الخير . .

ـ صباح الخير . .

ـ كيف كانت ليلتك الحمراء ؟ . . أقصد التى أدت إلى احمرار عينيك واحتراق جفنيك ؟ . . هاها . . هاها . .

ولم يكن يتوقع جوابا . . وإنما يمضى عادة فى الأسئلة العادية كل صباح . . وفجأة يتوقف ويمسكنى من كتفى ويقول : لم نكمل المناقشة بعد . . أنت قلت أمس أن الإنسان ليس من الضرورى أن يكون أصله قردا لمجرد التشابه بين الإنسان والقرد . .

قلت : نعم . . هل لو كان هناك تشابه بينى وبينك فى معظم الملامح فهل من الممكن أن نستنتج أننا نحن الاثنين شقيقان ؟ . . هل لو كنا نسكن فى نفس البيت . . هل هذا دليل على أننا من أسرة واحدة أو أقارب أو إخوان . . فالتشابه ليس سببا كافيا والتعايش معا ليس سببا كافيا . . وكذلك تعايش الإنسان والقرد والتشابه الذى بينهما . .

ويقول : ولكن دارون هو الذى قال أن الإنسان أصله قرد . .

ـ لم يقل . ولكن الناس فهموا من كلامه أن هناك تسلسلا بين الإنسان والقرد . . وأن القرد تطور حتى صار إنسانا . . وإن كانت هناك مرحلة تحول فيها القرد إلى إنسان هذه المرحلة أو هذه الحلقة مفقودة . . أى أننا وجدنا القرد ووجدنا الإنسان ولم نجد فى جميع الآثار فى الصخور وفى الكهوف هذه الحلقة المفقودة . .

هذا هو ما قاله دارون . لا تنس أن هذه هى المعلومات القليلة التى عندى .. ولابد أن هناك معلومات أكثر .. وفى استطاعتنا أن نسأل أستاذ علم الأحياء ..

ـ من ؟ فلان هذا .. إنه حمار .. لا يفهم الفرق بين الحمار والحصان ..

ـ ما هو الفرق ؟

ـ اسأل أنت ..

ـ لا فرق ..

ـ لا فرق أو هناك فرق لا يهم .. اقفل الموضوع .. اترك هذا الكلام الفارغ .. ما رأيك فى مايسة ؟

ـ من هى مايسة .. ؟

ـ لا تعرف مايسة يانمس .. إنها البنت الحلوة الرشيقة التى تسكن فى الدور الثالث فى العمارة التى أمامك .. طبعا رأيتها .. طبعا وهى كلمتك .. وطبعا قالت لك أنها تريد بعض الكتب .. أو طلبت منك أن تساعدها على فهم الفلسفة والمنطق .. أنا تعجبنى جدا .. ما هذا الوجه الجميل والجسم البديع والابتسامة .. أذكى بنت رأيتها فى حياتى .. آه لو كانت أمى توافق لتزوجتها اليوم مساء .. اليوم وليس غدا .. فمثل هذه البنات لا يصح أن تتركها إذا وجدتها .. طبعا تحدثت معها وتحدثت إليك ..

ـ أبدا .. لم أرها ..

ـ أنت لا ترى شيئا فى هذه الدنيا .. أنت تمشى فى الشارع مغمضا أعمى .. نائما ذهابا وإيابا .. أنا لا أعرف كيف تهتدى إلى بيتك وكيف لا تصطدم بالناس .. طبعا أنت لا تعرف شكل البيوت المجاورة ولا شكل الناس الذين تمر بهم وأنت فى طريقك ذاهبا أو عائداً من المدرسة .. أنا متأكد من ذلك . سؤال شخصى جدا ومطلوب الرد عليه فورا .. كيف تهتدى إلى بيتكم ؟ .. ما هى معالم هذا البيت ؟ .. ما الفرق بين مدخل بيتكم ومدخل البيت الذى أمامه الذى تعبره مايسة كل يوم ؟ .. هل تعرف ؟

وتضايقت . والحقيقة أننى لا أعرف أوصاف مدخل بيتنا ولا الفرق بينه وبين بيت مايسة هذه . ولكنه يعرف وبمنتهى الدقة . تضايقت . ولم أرد .

وغالبت نفسى حتى لا أكرهه . أو حتى أتفاداه إذا رأيته . أو إذا رأيته ألا

أتحدث إليه . . وأن أعيد له كتبه التى لم أقرأها . وانشغلت عنها . واسترحت إلى أننى بعد أيام سوف أترك المنصورة إلى القاهرة . . أرجو أن يكون ذلك إلى الأبد . .

وتمنيت أن أجده فى القاهرة . . أى أن ينجح هذا العام وأن يدخل كلية الآداب قسم اللغة العربية أو قسم الفلسفة . . المهم أن يكون هناك وأن أراه . فليس لى أصدقاء . . وليس من بين جميع زملائى واحد سوف يدخل كلية الآداب . . معظمهم سوف يدخل كلية الحقوق أو الهندسة أو الطب . .

ولم يشأ أن يعطينى عنوانه فى القاهرة ، رغم كثرة أقاربه . . هو لم يعطنى . إما لأنه لا يريد وإما لأنه لن ينجح . فالنجاح لا يهم . . والقاهرة كلها لا تهم . فهو فى المنصورة سعيد بما لديه . والذى لديه كثير جدا . . والتعليم والنجاح ترف يمكن الاستغناء عنه . .

آخر ما اختلفنا عليه قلت له : أنا كتبت عنك فى مذكراتى . وقلت لو سار أحد وراءنا نحن الاثنين . ورآنا كيف نمشى لوجد الفارق واضحا فى كل شىء . . ولكن فى مشيتنا . . فأنا أمشى إلى المدرسة . فالمشى ضرورة . لأننى أريد أن أصل قبل أن يدق الجرس ويغلقوا الأبواب . . وأنت تمشى على مهلك وتمشى تتبختر . . كأنك تستعرض البدلة والجزمة والكرافتة والساعة الذهبية . . فالمشى عندك ليس ضرورة . إنه ترف . أبهة ولا يهم أن تصل إلى المدرسة فى الموعد . . فلو ذهبت متأخرا فالبواب سوف يفتح لك أنت وحدك . . وقد يردنى مع أننا وصلنا معا متأخرين . . فالطريق أمامك مفتوح دائما . . ولذلك فلست قلقا ولا خائفا !

ـ كلام سخيف واستنتاج عبيط . . الفرق بينى وبينك أننى أمشى واثقاً من خطوتى . . وأنت تمشى خائفا أن تنخلع الجزمة من قدمك لأنها واسعة ولأنها لأحد إخوتك الكبار . . ولذلك أقترح عليك أن تخلعها وتمشى حافيا كأنك تسعى بين الصفا والمروة . .

ومضى يقول ما لم أسمع . . ثم التفت ليجدنى قد توقفت . . ثم استدرت وعدت إلى البيت . .

وكان ذلك آخر عهدى به . .

ومضت سنوات الجامعة كلها بلا حوادث . . بلا علامات ولا معالم . .

فلم أره بقية حياتى . .

نصائحُ:
على السلالم
وفوق السطوح!

جلست على سلالم كلية الآداب .. كنا بعد ظهور النتيجة بأيام .. كل الوجوه جديدة . لا أعرف أحدا . ولا أحد يعرفنى .. ولا فرق بين الذى كان ترتيبه الأول والذى كان ترتيبه الأخير فى التوجيهية .. فكلنا بالقميص والبنطلون وفى غاية القلق .. ونحن جميعا أمام الباب على السلالم داخل الكلية أو خارجها ، والذين خرجوا لم يتركوها بعد .. هناك شىء يشدهم ويشدنى .. ما هذا الشىء ؟ فنحن مربوطون بالقاعات التى عشنا فيها سنوات والطريق إليها ومنها والمدرجات والمكتبة والبوفيه .. والجلوس على العشب والساعة تمضى ببطء وبسرعة هناك بعيدا .. ويكون لدقاتها صوت مجلجل .. ولا يكون لها صوت .. كيف تدق ولا تسمعه .. ما هذا الذى يشغلنا فيسد الأذن فلا نسمع ، والعين فلا نرى ، والعقل فنسرح ..

جلست كما كان يجلس تلامذة سقراط فى أثينا .. يتساءلون عن معنى الخير والجمال والحق .. ولكن أحدا منهم لا يسأل : ما العمل ؟ فسقراط نفسه بلا عمل .. أو له عمل لا يليق بفيلسوف عظيم .. ولكنه ارتضاه حتى لا يمد يده إلى تلامذته أولاد الأغنياء .. وحتى لا تعيره زوجته أكزانطيبه بأنه عاطل طويل

اللسان . . فقدكان يغسل مخلفات العصافير من فوق التماثيل . هذا هو العمل الذى ليس عملا . وتلامذته أثرياء ليسوا فى حاجة إلى عمل . فعملهم هو الفلسفة . . فالفلسفة ترف ، ولكنها الآن ليست ترفا لى . . كانت قبل ذلك ترفا . ولكن من الآن ضرورة حياة . .

فقد مات أبى . .

ولابد أن أنتقل من الترف الفلسفى إلا أكل العيش بالفلسفة . فأين يكون للفلسفة عيش ؟

أساتذتى يرون أن أمضى فى الدراسة . . د . عبد الرحمن بدوى قال : أكمل دراستك . .

ود . شوقى ضيف : إياك أن تبعد عن الجامعة . خسارة فادحة . د . لويس عوض قال لى : لا أجد لك مكانا مناسبا إلا هنا . .

سألنى الأستاذ العقاد : قلت له أريد أن أكون مدرسا فى الجامعة . وأضحكه هذا الرد وقال : خوجه . . هاها . . هاها . . إن أساتذة الجامعة يا مولانا يحتاجون إلى أن يدخلوا الجامعة . . إنهم يصنعون التماثيل الحجرية والخشبية لكل شىء . . فهم يقلبون المعانى والناس ويصنعون منها تماثيل ويرصونها الواحد إلى جوار الواحد . . هذا هو التدريس الجامعى . . أرنى واحدا منهم صار أديبا كبيرا أو شاعرا كبيرا أو فيلسوفا . . أما هؤلاء الكبار فقد خرجوا على الجامعة أو جاءوا من أماكن أخرى ولم يدخلوا الجامعة . . طبعا أنت قرأت ما كتبه الفيلسوف الوجودى كيركجور عن أساتذة الجامعة . . وأسماهم الدكاترة السفاحين !

قلت : يظهر يا أستاذ أن الإنسان يجب أن يكون إما شوقى وإما العقاد .

ـ شوقى أسهل يا مولانا . . يكفى أن تتمسح فى بلاط الخديوى . . هاها . . هاها . .

ـ إذن سوف أكون العقاد . .

ـ والله يا مولانا لم تندم أن اخترنا أنفسنا .

ـ لأنك اخترت نفسك يا أستاذ . . وأنا لم أختر نفسى أو لنفسى بعد . .

ـ . . . . (قال كلاما كثيرا لم أستوعبه . ولا كانت عندى رغبة فى ذلك) .

فوجئت بأن أمى قد حددت لى موعدا مع لطفى باشا السيد فهو أحد أقاربى . ذهبت إليه . وجدته كما هو فى الصور . ولكنه كان ألطف وأرق . وكان كلامه عن الشباب وعن دور الشباب . وعن المستقبل . وأننى الشباب والمستقبل . وأن مستقبل مصر كلها أمانة فى عنقى . . وأن أبدأ من الآن .

قلت : أبدأ ماذا يا أستاذ ؟

ـ تبدأ أن تكون ما تريد . لا تقبل قهراً أو وصاية عليك من أحد .

ـ أقوم بتدريس الفلسفة فى الجامعة ؟

ـ نعم الاختيار . .

ـ وأظل طول عمرى أقرأ أقرأ . . وتضيق الدنيا حولى . . ويغلظ زجاج منظارى . وتتمزق ملابسى . . ولا أقدر على أن أعول أمى وأخوتى . .

ـ ما هذا الذى تقوله يا ولد ؟

ـ ما يقوله كل زملائى . .

ـ الشباب يقول كلاما كهذا . . كم عددهم ؟

ـ كل الشباب . .

ـ إذن هذه كارثة . إذا كان شباب مصر يرى الذى تقول . إذن من الذى يبنى مستقبل مصر ؟

ـ يبنيه الذين بنوا حاضرها يا أستاذ .

ـ معنى ذلك أن نعيش نحن اليوم وغدا . . وأنتم متى تعيشون ؟ متى يكون لكم دور ؟ . . كل الشباب يقول مثلك . . كيف حدث ذلك ونحن لا ندرى ؟ . . كيف يكون هذا الجيل بلا شباب ؟ . . كيف يكون هذا الماضى بلا مستقبل ؟! . . هل تقصد أن شباب الفلاسفة هم الذين يقولون ذلك ؟ . . سمعتك تعجب بأستاذك عبد الرحمن بدوى . .

ـ نعم ، ولكنه غنى جدا .

وأستاذك العقاد ؟

ـ ولكنه غنى أيضا .

ـ العقاد غنى ؟

ـ بأفكاره ومعلوماته وتجاربه وعظمته . .

ـ لا أفهم هذا الكلام . . هل أنت جاد ؟ أم أنك تداعبنى ؟ لقد قيل لى أنك تحب الدعابة .

ـ إنما أداعبك يا أستاذ . .

ـ أرحتنى الآن . . توكل على الله يا ابنى !

ولم أكن أداعبه !!

* * *

ولم أكن فى حاجة إلى البحث عن عمل سريع . . فقد فهمت من أمى أن والدى قد ترك مالا ، وأنها أيضا تلقت مالا من أهلها . . وأننا نستطيع أن نعيش سنة أو أكثر دون حاجة إلى أن أعمل . .

ولم يرحنى هذا الذى قالته أمى . لعلها لا تريد أن تدفعنى دفعا . . لعلها تريد أن أبحث عن العمل الأفضل . . لا هى تعرف ولا أنا أعرف ما هذا العمل الأفضل .

وعندما أعود إلى البيت ليلا ثم أقبل يديها وأجيب عن كل سؤال لها بكلمة : لا . .

فإنها تفهم أننى لم أصل إلى شىء بعد . وأن البقية غدا أو بعد غد !

وجلست على سلالم كلية الآداب أقرأ كفى .

أنا فى الثالثة والعشرين من العمر . فى مثل هذه السن سافر دارون حول الدنيا واكتشف نظرية تطور الكائنات . .

وفى مثل هذه السن كان العبقرى موتسارت يجوب فرنسا بموسيقاه هو وأخته . عندما ماتت أمه . كما مات أبى . وكانت أمه لها مهمة محددة ـ حددها أبوه . وهى أن تجمع النقود لابنها موتسارت لأنه يخجل من أن يفاصل . ولا يرى أن الذى يعزفه هو الإبداع العظيم . . وكان الأب يبيع ويشترى ويفاصل . أما موتسارت فكان يرى أن يعزف بعد التصفيق . . حين يهرب إلى الحانات يشرب ويرقص طول الليل ـ هذا كل ما يريد . .

وأنا لا سافرت ولا كتبت ولا أبدعت . . بل جالس أحاول أن أعرف وجهة أو طريقا . .

وبهذا الجلوس أثبت أننى ما أزال تلميذا لسقراط ، حريصا على أن استمتع بالمناقشات الفلسفية التى أجد فيها المتعة الأولى والهدف من كل الحياة . . ونسيت أن المسافة بينى وبين تلامذة سقراط ٢٤ قرنا . وأنهم أولاد الأغنياء . وأن العمل ترف . . بل لا ضرورة له !

وليست عندى أمراض . فقط مصرانى الغليظ الذى يتقلص وينتفخ . والأستاذ العقاد ونابليون كذلك . فالمصران هو مرض المثقفين . وصديق ثقيل سوف يبقى العمر كله . .

ووزنى ٦٥ كيلو جراما ، لابد أنها نقصت فأنا لا أذوق أى طعام ولا أتوقف عن السير فى شوارع القاهرة دون هدف . إلا البحث عن طرق رخيصة لكى تجعلنى أستغرق فى النوم دون أن أفكر فى أى شئ . . وأحاول ـ مثل أمى تماما ـ أن أجعل وجهى باسما مضيئا . كأنه لا هموم ولا قلق فى حياتى أو عليها !

وأحسست أن الفلسفة الوجودية لم تساعدنى . لم تصنع لى سلالم لكى أخرج من هذا الخندق . لم تمد لى جسورا . . لم تفتح لى طريقا ، وإنما أقامت حولى جبالا . . وأطلقت أنيابا وأظافر تطل من كل مكان . . إذن لابد أن أبقى فى مكانى . . وأن أعيش هذه الأزمة ـ أى أن أجعل حياتى أزمة . . كأنها أزمة . وأن أدور حول الأزمة ولا أحلها . . فليس من المفروض أن أجد حلا . . وإنما فقط أن أتعمق المشكلة . . أن ألمسها . . أن أزنها . . أن أتذوقها . . وإذا اختفت منها الألوان أقوم بتلوينها . . وإذا تلاشى الطعم أن أضع لها ملحا أو سكرا . . فأنا ـ إذن حريص على الأزمة . . على بقائها على عمقها . . على تأزمها أكثر وأكثر . .

بل لاحظت أيضا أننى كنت حريصا على أن أنقل عدواها إلى كل زملائى . فبدلا من أن أكون أنا حائراً وحدى أن نكون جميعا كذلك . . فأرى نفسى فى غيرى ، ونكون معا صورة لعجز الفلسفة عن حل شىء ، وإنما الفلسفة فقط قادرة على تجسيم المخاوف وتعظيم القلق وتجسيد اليأس ، وترسيم حدود العجز العملى عن الخروج من أنفسنا . .

وإذا كنت من حين إلى حين أضع إصبعى فى أذنى . . فسبب ذلك إحساسى بأننى لم أعد أسمع بوضوح فقد تعالى التصفيق فى أذنى . . إنه تصفيق كل أساتذتى فى الفلسفة الوجودية . . فهذه لحظة وجودية ، وهذه معضلة وجودية لأحد تلامذة الفلسفة ، وأكبر دليل على نجاحه فلسفيا هو فشله عمليا فى أن ينقذ نفسه من نفسه ، فى أن ينتشل نفسه من مصيدة الأزمة الوجودية . .

وفى الليل ذهبت إلى أحد الكباريهات وقد اعتدت أن أذهب ولم أكن قد رأيت الكباريهات ولا دور السينما فى حياتى . . فقط بعد أن تخرجت فى الجامعة ، ولكن فى الكباريه كل الكلام الذى أحتاج إليه . . فلا أرى نفسى . . ولا أرى أى شىء بوضوح . . بل كل الألوان مصطنعة وكل الأصوات كاذبة . . والناس يدخلون من أجل أن يفقدوا وعيهم . . كأنهم هم الآخرون قد أعلنوا فشلهم . . فالعقل لم يعد قادرا على أن يحل أو يعالج . . إنهم مثلى . . لم ينفعهم العقل ولا الكتب . . هكذا تصورت حالهم وأنه شبيه بحالى . .

ورغم ذلك فكل الذين جلست إليهم تفكيرهم أوضح منى .

جلست وحدى فجاءت راقصة سمراء صغيرة ، حلوة ، أو هكذا بدت لى . وقالت : أنت تلميذ ؟

قلت : لا . . تخرجت . .

ـ درست إيه ؟ .

ـ موسيقى .

ـ حلو قوى . . ما تيجى تشتغل معانا ؟

ـ أين ؟

ـ هنا . . ورزقنا على الله . .

ـ أنا أداعبك . فأنا لم أدرس الموسيقى .

ـ وحياتك ولا أنا . . هوه أنا تعلمت الرقص ؟ أبدا . . قالوا : ارقصى يابت . . اتهزى يا بت . . اتقصعى . . رقصت وزى ما أنت شايف . . الوحيد المتعلم فينا هو أبو عواطف . . الذى يلعب على القانون . . والباقون كلهم زى حالاتى . .

ـ طيب وأنا أعمل إيه ؟ .

ـ اللى يعجبك .

ـ أنا كنت أغنى فى المدرسة . .

ـ أحسن حاجة قلتها . . تعالى . . هل تغنى لعبد الوهاب .

ـ أيوه .

ـ والست أم كلثوم ؟

ـ أيوه .

ـ خلاص فرجت . . أمك داعية لك .

ـ أمى مريضة .

ـ سلامتها عندها إيه . .

ـ حاجات كثيرة .

ـ يعنى إيه .

ـ يعنى ما أقدرش أسيبها لوحدها . .

ـ ما أنت دلوقت سايبها وقاعد معانا . .

ـ شوية كده وماشى .

ـ على راحتك .

ـ . . . .

بنت بلد . أفكارها واضحة . وعندها حل سريع لكل مشكلة . .

كانت لى زميلة يونانية فى قسم اللغة الفرنسية وجدتها تعمل عند والدها فى أحد محلات الزهور رأيتها . . ذهبت إليها . . تحولت كل ملامحها إلى باقة من الزهور . . عيناها زرقاوان شعرها ذهبى . . شفتاها وردتان . . أسنانها ياسمين . . كلامها عطر . . قالت لى : أهلا . . تفضل . . أهلا أهلا . . عملت إيه ؟ فرحتنى . . هه ؟

- . . . . . .

- بسرعة ، سوف تعمل مدرساً فى الكلية . طبعا .

- ليس بعد . .

- هل فى نيتك أن تهاجر إلى أمريكا . . ابن خالتى قد درس الفلسفة فى جامعة أثينا . . وهاجر إلى استراليا . .

- . . . . . .

* * *

وكان أحد زملائى قد ألح فى أن أذهب إليه فى بيته فى (بولاق الدكرور) ذلك الحى الشعبى الفقير جدا بالقرب من الجامعة ، سألت عنه فى بيته قالوا فى الدكان . . والدكان قريب من البيت . . ووجدته قد ارتدى الجلباب والطاقية والقبقاب ، وأخذنى بالحضن ورائحته صابون وجبنة وزيتون ، ولم يكد يرانى حتى قال : اقعد . . انزرع هنا . . كل ساعة حتنط لى هنا . . الله يخرب بيوتكم !

ولم يكن يقصدنى كما أيقنت فى اللحظات الأولى . . إنه يتحدث إلى أحد الزبائن ، كيف تحول عن الفلسفة بهذه السرعة إلى هذه اللغة . . وإلى القبقاب والطاقية والصابون والزيت ، ولم أكن فى حاجة إلى أن أسأله . . فالذى أراه هو قرار نهائى ، والقرار قد تم تنفيذه بالحرف الواحد . . وعلى وجهه ارتياح شديد . . إذن هو راض وأبوه وأخوته وكل الناس . . والدراسات الفلسفية قد ألقاها فى الزبالة . . وأمام الدكان صناديق زبالة كثيرة وترعة ماؤها أزرق أخضر . . كله زبالة !

قلت له : كيف تحولت بهذه السرعة ؟

- أنا لم أتحول . . فأنا أساعد والدى وأنا فى الكلية .

ـ وكنت تعلم أنك فى النهاية ستعمل فى الدكان . .

ـ طبعا .

ـ والفلسفة ؟

ـ ولا حاجة . أنا تركت لك أنت الفلسفة . . أنا نسيت كل شىء . . والله العظيم لو سألتنى عن أى حاجة فلن تجد عندى جوابا . . وأنت طبعا سوف تعمل معيدا فى الكلية . . كلنا نعرف ذلك . . فأنت الأول . . فى ستين داهية سقراط وأفلاطون وكارل ماركس كسروا دماغى ليل ونهار . . أضحكك . . مرة جاء والدى متأخرا وكنت أذاكر أيام الامتحانات حتى الصباح . . وكان أبى فى طريقه إلى المسجد لصلاة الفجر . . فسألنى وقال لى : أنا عاوزك تقرأ لى حاجة من اللى أنت بتذاكرها يا شوقى . . وانتهزت الفرصة واخترت كراسة المنطق وقرأت وقرأت . . وكأنى دبور يطن فى أذن أبى . . وظهر عليه الضيق الشديد وقال لى : إيه ده يا ابنى . . معنى الكلام ده إيه . . وإيه فايدة الكلام ده يا ابنى قلت له : مالوش فايدة فظهر الحزن على وجه أبى وقال : أربع سنوات تقرأ مثل هذا الكلام . . قلت له : نعم . . وسكت أبى طويلا وجلس وقال حزينا : طيب يا ابنى ما قلتليش ليه كنت دخلتك كلية الحقوق ولا التجارة ولا الطب . . لاحول ولا قوة إلا بالله . . أربع سنوات بالشكل ده . . وأنت فاهم الكلام ده . . قلت : لا . . أما الذى قاله أبى بعد ذلك فدليل على منتهى التعاسة وعلى ضياع الوقت والمال . . ولم يكن هناك إلا حل واحد هو أن أقعد فى الدكان وعليه العوض فى الوقت والمال والصحة والشباب . . ولا يزال أبى يحكى هذه المأساة على أنها غلطته هو . . وأننى خجلت أن أصارحه بذلك !

* * *

وأمام محل البن البرازيلى فى شارع سليمان باشا قابلت زميل الدراسة رشوان . . دمه خفيف . . بادرنى : طبعا وجدت عملا . . الأساتذة قد وضعوك فوق دماغهم . ألف مبروك . مدرس طبعا ؟

ـ لا . .

ـ أمال إيه ؟

ـ مش عارف . . وأنت ؟

ـ قرأت إعلانا فى الصحف عن شركة جديدة . سألونى ونجحت فى الامتحان . كان امتحانا له العجب .

ـ مبروك . .

ـ ولكنك لم تسألنى عن هذا الامتحان . . لابد أن أقول يجوز تفكر فى العمل هناك . . قالوا : من أين ؟ قلت : من الصعيد . . وماذا يعمل أبوك ؟ : قلت عنده ٥٠٠ فدان وهو يرى أن الفلاح الحقيقى هو الذى يعمل فى أرضه ولا يتركها لأحد . . وكل إخوتى التسعة يعملون معه فى الأرض . . مهندسون زراعيون وخريجو كليات التجارة والحقوق والهندسة . .

فقلت له : وأنت أبوك عنده ٥٠٠ فدان ؟

ـ أبدا .

ـ إذن كيف تقول ذلك ؟

ـ يا أخى أنا حر . . لم يسألنى أحد أين . . ولا يمكن أن يكذبنى أحد . . فقد كنت أقول ذلك بمنتهى البساطة وكأننى لست فى حاجة إلى هذا العمل .

ـ وعندك كل هذا العدد من الإخوات ؟

ـ وحياتك أنا الابن الوحيد . .

ـ وصدقوك ؟

ـ طبعا الناس لا يصدقون إلا الكذابين الذين يقولون الكذب بمنتهى الصدق . الناس يحترمون الأغنياء . . ويحترمون الذين يحتقرون العمل ويحتقرون المحتاجين إليه . . فأنا ذهبت وكأننى أقول لهم . . أنا لا يهمنى أن أعمل . . وإنما أنا أضيع الوقت . . ولو قلت لهم الحقيقة لألقوا بى من النافذة . . وبمناسبة النافذة كانوا إذا سألونى سؤالا ولا أعرف الإجابة فكنت أسرع إلى النافذة أنظر وأعود إلى مكانى . . فسألونى : قلت . . أنا أخشى على سيارتى الجديدة أن يسرق الأطفال المساحة أو أى شىء آخر . .

ـ طبعا ليست عندك سيارة لا جديدة ولا قديمة .

ـ طبعا .. ولم أكن أتصور أن أحدا منهم يملك مثل هذه السيارة الفخمة . وقد صدق ظنى ..

ـ ولو سألوك بعد ذلك عن السيارة فماذا تقول ؟

ـ أقول أننى تركتها لماما وسوف أشترى سيارة أخرى ..

ـ تركتها لماما ؟

ـ أنا حر فى أكاذيبى .. وعلى أساس هذه الأكاذيب تسلمت عملى من عشرة أيام ..

ـ مبروك ..

ـ أنا أستحق التهنئة لأننى قد بذلت مجهودا مسرحيا فنيا فى إقناع لجنة الامتحان .. ولم يكن ينقصنى إلا أن يصفقوا لبراعتى ..

ـ إذن أصفق لك أنا !

ـ ....

* * *

لا أعتقد أننى خجلت فى حياتى مثل ذلك اليوم . كدت أموت من الضحك . أقول لك كيف ؟

مشيت فى شارع جلال .. أريد أن أسأل ومكسوف أن أسأل عن عنوان السيدة أماليا قارئة الفنجان ، إنها روسية بيضاء ، ولم أكن أسأل إلا السيدات والسيدات هنا بائعات على الأرصفة . ووقفت أمام بيتها بالضبط وسألت . فضحكت واحدة وقالت لى : جواز ؟

قلت : لا ..

ـ معمول لك عمل .

ـ لا ..

ـ أنت طبعا مكسوف . على كل حال الست أماليا مفيش لها مثيل فى الدنيا . . اطلع . . اطلع على طول . . فقلت : إلى أين ؟

ـ إنها تسكن فوق السطوح . . وسوف تجد عندها مئات الناس . . وأنت وبختك . . وإذا كنت عاوز اكسبريس ؟

ـ يعنى إيه ؟

ـ يعنى استشارة سريعة زى الاكسبريس ادفع خمسين قرش لأم زغلول .

ـ مين أم زغلول ؟

ـ حتلاقيها بيضا ملظلظة وتسد الباب . . الناس أمم . . اغمزها بالخمسين قرش . . حتلاقى نفسك بعد دقيقتين عند الست أماليا . . لا تسلم عليها . . لأنها لا تحب أن يسلم عليها الرجالة . . أنت مسلم .

ـ أيوه . .

ـ قل لها إنك مسيحى . . علشان هى متعصبة لدينها قوى . . وتلاقى على صدرها صليب كبير . . هيه كده ! وقل لها إنك حتجيب لها زبائن كثير . . لازم تقول لها كده . .

ـ وهيه عاوزه زبائن ؟

ـ هيه . . يا خبر إذا كان البحر يشبع تبقى هى تشبع . . عندها فلوس كتير . . ولكن هيه زى الجلدة . . ولا متزوجة ولا عندها عيال ، لكن حتموت على الدنيا . .

وكنت سمعت عن أماليا هذه من الصديق الشاعر عبد الرحمن صدقى . . وكان يحكى حكايتها للأستاذ العقاد فى دهشة . . والعقاد لا يصدق ، وعبد الرحمن يصدق ولكن ليس عنده تفسير ، وقال إن زوجته المصرية كانت تتردد عليها ، أما زوجته الإيطالية فهى تؤمن بها إيمانا مطلقا لدرجة أنها فى كل مرة تتشاجر معه تقول : أماليا قالت لى كل الكلام ده . . الكلام ده مكتوب فى الفنجان بتاعى !

وفى الحيرة والدوخة التى أنا غارق فيها ذهبت . . ولا أعرف ما الذى يمكن أن يحدث لو قالت : استمر فى الجامعة . . أو اترك الجامعة واشتغل فى أحد البنوك

أو إحدى الشركات . . أو اترك مصر واهرب . ولكن أردت أن أرى وأن أسمع كلاما مختلفا . . كأننى أريد أن أبرئ نفسى أمام نفسى . كنت أريد أن أقول : إننى لم أترك أحدا دون أن أسأله عن خطوتى التالية . . الأدباء والفلاسفة والشعراء والزملاء . . وقارئة الفنجان . .

السلم طويل مكسر قذر . . مظلم . . حتى خيل إلى أن السلم نازل إلى جوف الأرض وليس طالعا إلى السطوح . . إلى السماء . . هل معقول أن الضوء لا ينفذ إلى هذا السلم . . هل هناك ستائر تغطى كل النوافذ . . أو النوافذ مفتوحة والستائر فوق عينى . . أو هناك غشاوة على عقلى . . وعلى الدنيا كلها أمامى . . وورائى . . وبدأت الأصوات الكثيرة تقترب . . هناك ضوضاء وراء الباب الذى يقضى إلى شقتها فوق السطوح . . أصوات رجال ونساء وأطفال . . وليس واضحا ما يقولون ، ولكن من المؤكد أنهم ينتظرون دورهم . . وأنهم لم يدفعوا شيئا للست أم زغلول . . دفعت الباب . . انفتح . . اطلت الست أم زغلول . . مددت يدى إلي يدها . . نظرت إلى يدها وابتسمت . . وحزنت أنا بعد ذلك فبدلا من أعطيها خمسين قرشا أعطيتها على سبيل الخطأ خمسة جنيهات - نحن فى سنة ١٩٤٧ . وهذا مبلغ كبير جدا . ولذلك كانت فرحتها وسعادتها لا توصف وفتحت الباب وقالت لى : اسمه الله عليك مش أنت ابن الست ماريكا . .

قلت : أيوه . .

قالت : زيها الخالق الناطق . . زى القمر . . تفضل يا حبيبى . . نورت يا حبيبى . . اتفضل . . على طول . .

وزحام شديد فوق السطوح . . الصور ليست واضحة . . ولا الأصوات وأخفيت رأسى فى جسم أم زغلول . . إنها ضخمة والعرق يتصبب من وجهها . . وهذه الروائح التى تنبعث منها : حنة فى رأسها . . وليمون . . ولبان دكر . . وعرق . . ولكنها تدوس الناس ، ولا يهمها ، ولا أحد يعترض . . فلا دخول إلا بإذنها . .

ودفعتنى أمامها . . ولم أجد أماليا . . وإنما كانت المفاجأة : كل زميلاتى . . وأربعة من الزملاء واثنان من الأساتذة . .

ضحكت وضحكت حتى خف وزنى وكدت أطير . . وأحسست أننى كواحد يحمل فوق دماغه مكتبة جامعة القاهرة ومكتبة الدير الدومنيكى فى العباسية . . وطارت هذه الكتب ورقة ورقة . . فكانت مثل مليون حمامة قد نشرت جناحيها وطارت من فوق دماغى أو من دماغى . . وقبل أن تنطلق بعيدا حرصت على أن تصفعنى على قفاى بأجنحتها . . لا أعرف من أين جاءت الدموع فى عينى ولا من الذى أقعدنى على الأرض . . وأصابتنى هستيريا الضحك . . ووجدت زملائى أيضا يضحكون دون أن يدور بيننا كلام . . لقد كان ذلك إعلانا لإفلاس الفلسفة !

كيف انتهى ذلك اليوم ؟

هذا لا يهم . ولكن الذى يهم هو أننا فضحنا أنفسنا . . فلم تترك الفلسفة أى أثر . . ولا وضعت لنا أية حوائط . . ولا علمتنا أن نحترم أنفسنا . . وأن نصبر . . وأن نتعقل . . وأن نكون أناسا عاديين يبحثون عن عمل . والعمل إما فى الجامعة أو خارجها . . فإن كان خارجها فلابد أن يكون له علاقة بالفكر وصناعة الكلام . . ويكون ذلك بالتأليف . . أو بالعمل فى دور النشر أو فى المجلات الأدبية مثل الرسالة والثقافة أو فى الصحافة . . أو السفر إلى خارج مصر . . لا أعرف إلى أين . وإنما هو هرب من الموقف من أوله لآخره إلى مواقف مجهولة ربما أكثر صعوبة !

ومما قالته الست أماليا وهى تقلب الفنجان يمينا وشمالا . وكنت وحدى معها . سألتنى : مسيحى .

قلت : نعم .

- أمك ماذا تعمل ؟

- مريضة وبابا مات ؟

- من شهور ؟

- نعم .

- البركة فيك انت ؟ إنت دايخ مش عارف تعمل إيه ؟

- صح !

ـ الأبواب كلها مفتوحة أمامك ، ولكنك لا تراها . . أو لا تريد أن تراها . . دق على باب . وسوف يكون الخير كله فى أى باب . . لا تخف !

ـ ولكننى لست خائفا .

ـ لا . . أنت خايفة يا كلبة يا كذابة . . اسمعى الكلام يا ولد !

ـ حاضر . .

ـ أيوه كده . . أنا زى ماما . . يمكن أكبر من ماما . . أنا مش عندى أولاد . . أنت ابنى . . أخويا له ولد زيك كده . . وخواف زيك كده . . مش أنت خايف يا حمار !

وسكتت ، وتغير لون وجهها تماما . ازداد ابيضاضا ثم اصفرارا وغابت عن الوعى . . ثم بدأ الوعى يعود إليها ألوانا صفراء ثم بيضاء ثم حمراء شديدة الإحمرار . . ونظرت ناحيتى وقالت : مش تزعل إذا كنت شتمتك . . أنا عندما أغضب اتلخبط فى الكلام . . باردون . . اسألنى عن أى حاجة . . اسألنى !

ـ . . . .

ـ أنت مستقبلك كويس كتير . . وكل ما تكبر حتبقى فوق . . ما تخفش خالص . . أنت بعد واحد . . اثنين . . اتناشر سنة حتبقى أوه . . كده فى السما . . أوه . . حتكون فى كل الدنيا . . افتكرنى . . هه . .

وبعد ١٢ عاما قمت بجولة حول العالم استغرقت ٢٢٨ يوما . وتذكرتها . وعندما عدت إلى مصر ذهبت إليها . . وقالت وقالت . .

* * *

ذهبت إلى الزمالك ، دفعت الباب . . انفتح . فقيل لى : الدكتور فى انتظارك . . أنت جئت قبل موعدك بنصف ساعة !

واعتذرت . ووجدت نفسى أمام دكتور طه حسين ، إنه لا يعرفنى ، ولم أذهب إليه إلا بمشورة من د . عبد الرحمن بدوى وكان طه حسين قد وصفه أثناء مناقشة رسالة الدكتورة أنه أول فيلسوف مصرى . .

ولم أكن أدرك بوضوح الفرق بين طه حسين والعقاد . . فالعقاد قد جذبنا ورحنا ندور حوله . . ونتلفت ونفكر فى الهرب ولكن من الواضح أن طه حسين ألطف وأرق . . وشىء عجيب أننى لم أتذكر هذا اللقاء وطوال ترددى على (صالون العقاد) . . فقط عندما بدأت أفكر فى التخلص من أثر العقاد وفى نفس الوقت المجاهرة بالاختلاف معه فى الرأى . . وأن طه حسين أكثر أبوة . . ولكن لسوء الحظ لم نتبين ذلك إلا متأخرا وإلا متأخرين . وبسرعة انتشلنى طه حسين من حيرتى . وسألنى : ماذا قررت يا سيدى . . لقد قال لى عبد الرحمن بدوى إنك من أحسن تلامذته . . وأن المستقبل الفلسفى لك وحدك من بين كل تلامذته . . فإذا كان هذا رأى عبد الرحمن بدوى فيك ، فأنت إذن أفضلهم وأحقهم بخلافة عبد الرحمن بدوى . . فماذا قررت أنت لنفسك بعيدا عن قرارات الآخرين من أساتذتك . .

وفى نفسى قلت : لو كان أبى لم يمت . . ولكنه مات .

فلم أرد . فعاد طه حسين يسألنى : طبعا أنت فى حيرة أنا كنت مثلك ولكنى قررت . فهل قررت ؟ أو أنك تحب أن يقرر لك أحد ! إذا قرر لك أحد ، وكانت هذه رغبتك فلست وجوديا يا سيدى ! ولا أظنك كذلك ، وإلا ما كان عبد الرحمن بدوى قد تحمس لك وطلب منى أن أقنعك بالتدريس فى الجامعة والبحث العلمى الذى اخترته أنا واختاره عبد الرحمن بدوى أيضا . . وكذلك أستاذك سقراط وأفلاطون وأرسطو وسارتر . .

وأحنى طه حسين رأسه وعلى وجهه ابتسامة رقيقة . . ابتسامة تدعوك إلى أن تضع رأسك على صدره . . أو على ركبتيه . . أو على يده تقبلها . وتقول له : بل الرأى لك يا أستاذ الأساتذة . .

وكأنه سمعنى فقال : بل الرأى لك أنت وحدك . أنت حر . إذن أنت موجود . . هكذا تقولون فى الفلسفة الوجودية .

وطال الكلام بهذا المعنى . . وكان ردى على طه حسين بكلمة أو كلمتين . فكان أذكى وأعقل عندما قال : الآن قلت ما عندى . واسمعنى ما عندك غدا أو

بعد غد . وأنت لن تختار إلا مستقبلك وهنا تكمن كل حريتك ! فأنت حر يا سيدى . . هاها . . هاها . .

ومددت يدى وصافحته . . وشكرته . . لقد قال ولم يقل . وقرر ولم يقرر ، ودخلت إليه خفيفا وخرجت ثقيلا . . كأننى أغوص بقدمى فى الأرض . . وأخوض فى الماء . . ومن حين إلى حين أرفع رأسى فوق الماء . . وهناك قوة هائلة فوق كتفى تفعصنى . . تريدنى ألا أمضى . . ألا أفعل . . ألا أختار . . ألا أكون !

قال لى أستاذى د. شوقى ضيف : ما رأيك فى جريدة (الأساس) . تعرفها ؟

ـ لا . .

ـ أنا من رأيى أن تقابل د. عبد الوهاب عزام . . فهو على صلة جيدة بالنقراشى باشا رئيس الوزراء وصاحب هذه الجريدة . . وفيها مجال لكتابة القصص والنقد مادامت هذه رغبتك فى ألا تعمل فى الجامعة . وإن كان رأيى ما يزال أن الجامعة هى مكانك الطبيعى . . والجريدة موجودة فى شارع شواربى . . اذهب . ليس الآن . . ولكن عندما . . . اعرف من د. عبد الوهاب عزام من الذى سوف تقابله هناك ؟

وكان د. شوقى ضيف هو أول من تنبأ لى بأن سيكون لى شأن فى صناعة الكتابة ، وهى حادثة مشهورة ذكرها بعد ذلك كثيرا . . فكان يدرس لنا الشاعر أبا تمام . . وطلب منا بحثا عنه وكتبت بحثا فلسفيا عنوانه (الذاتية والموضوعية فى شعر أبى تمام) . وقدمت البحث ، ونسيت أن أكتب اسمى ، فجاء د. شوقى ضيف فى اليوم التالى يسأل عن صاحب البحث ، فرفعت يدى . فقال : أحسن بحث ، وسوف يكون لك مستقبل عظيم فى صناعة الأدب والنقد الأدبى والفلسفة . . اقرأ بحثك على زملائك !

وكان لا يزال هذا رأيه . فقد جاء ترتيبى الأول فى الليسانس مع مرتبة الشرف الأولى . . وأسعده ذلك . . فقد صدقت نبوءته ، ولكنه لم يتنبأ لى أبدا أن أعمل فى الصحافة أو فى الصحافة الأدبية ، ولكن إصرارى ألا أعمل فى الجامعة هو الذى اضطره إلى أن يجد لى سبيلا إلى الصحافة . .

ولم أره بعد ذلك ، ولكن عرفت منه أنه هناك صحيفة اسمها (الأساس) وأن بها صفحات أدبية . .

وذهبت ورأيت مبنى الصحيفة فى شارع شواربى . وفى الصحيفة وجدت أحد زملائى فى دراسة الفلسفة . وكان يعمل هناك ، لم أسأل ما الذى يعمله ، هو الذى سألنى ظنا منه أننى أعرف طبيعة العمل : هل عندك قصة قصيرة . . أو قصة مترجمة . يمكن نشرها هنا !

وعدت إلى البيت . وكتبت قصة طويلة اسمها (سوزى) . ولم أعرف فى حياتى واحدة بهذا الإسم ، ولا سمعت هذا الاسم ، ولكن هذا ما خطر على بالى ، لابد أننى نقلت الإسم من الروايات الأجنبية ، وقالوا فى جريدة الأساس : اذهب بها إلى الأستاذ موسى صبرى . فهو المسئول عن الصفحة الأخيرة .

وذهبت إلى موسى صبرى . . وابتسم . . ووضعها أمامه بما معناه : اتركها . .

وتركتها ، ونزلت السلم الطويل ، فالجريدة تشغل الدور الأول . . والدور الثالث . . وبعد أيام رأيت القصة قد احتلت الصفحة الأخيرة كلها . عنوانها بالخط الأحمر . . واسمى فى آخر الصفحة بخط صغير جدا ، ولكنه اسمى .

نشرت القصة . ثم ماذا بعد ذلك ؟

لا فرحت بنشرها ، ولا قلت لأحد عنها ، ولا قال لى أحد أنه رآها أو قرأها ، إذن نشرت القصة فما الذى يمكن عمله بعد ذلك . . وهل هذه هى البداية ؟ . بداية ماذا ؟

وبعد أيام عدت ومعى قصائد من الشعر الألمانى ترجمتها إلى العربية ، وسألنى موسى صبرى : من ترجمتك ؟

قلت : نعم .

وأخذها . وجاءت ابتسامته بما معناه : اترك القصائد هنا ، وانتظر حتى ننشرها فى الصفحة الأخيرة . .

ووجدتها بعد أيام . . لا فرحت ، ولا أسعدنى أحد بأنه قرأها أو رآها . أو اتخذ منها دليلا على أننى بدأت . . وأننى خطوت . . وأن طريقى هو الأدب أكتبه

أو أترجمه . . ولم أعرف من أى أحد إن كان هذا عملا صحفيا . . أو أننى قد بدأت اشتغل بالصحافة ، وهل نشر قصة أو قصيدة هى البداية ؟ . . وهل سوف أستطيع ذلك من حين إلى حين ؟ . . أو ما الذى يمكن عمله ؟ . . أو يصح عمله ؟ . .

حتى فى صالون العقاد لم يلاحظ أحد من الحاضرين أننى فعلت شيئا ولا قلت لأحد .

واقترح أحد الأصدقاء أن أطلب مكافأة عن القصص العشر التى نشرتها . واندهشت ، فلم أكن أتصور أننى استحق الأجر على ذلك ، وإنما الجريدة هى التى تستحق الشكر على أنها نشرت .

وذهبت وقابلت رئيس التحرير د . على الرجال ، وكان عضوا فى مجلس النواب ، وقدمت نفسى وقلت : أريد مكافأة من فضلك . أريد ثلاثين جنيها عن هذه القصص .

وكانت نظرة د . على الرجال تدل على الدهشة وعلى سذاجتى إذ كيف أطلب مبلغا كبيرا كهذا . .

ولكنه بادرنى قائلا : لماذا لا تعمل معنا هنا . . وسوف ندفع لك ١٧ جنيها فى الشهر . ما رأيك ؟

فوافقت . ثم عاد يقول : أنت اسمك إيه بالكامل .

قلت : أنيس محمد منصور

- كويس جدا . اذهب إلى الأستاذ عزيز مشرفى مدير الإدارة وقل أنك (أنيس منصور) بس . . بلاش محمد فى الوسط . . وسوف يرى أنك مسيحى . . وسوف يصدر قرارا بتعيينك .

وذهبت . وصدر القرار وبعده وقعت باسمى كاملا مرة واحدة فى كل حياتى الصحفية .

وترك الأستاذ موسى صبرى جريدة الأساس وذهب للعمل مع الأستاذ جلال الدين الحمامصى فى إصدار صحيفة مسائية جديدة اسمها (الزمان) . . وكان جلال الدين الحمامصى يعمل مستشارا لجريدة (الأساس) . وأصبحت المسئول عن الصفحة الأخيرة . .

وتغيرت الدنيا أمامى وحولى . . فأنا الآن قد دخلت فى دنيا الصحافة ، ولكن لم أستوعب العمل الصحفى تماما ، فأنا فى الصفحة الأخيرة ولا أعرف ما هذا الذى قبلها ، ولا إن كان يعنينى . .

ومضى الوقت سريعا . ولا أزال فى موقفى فى آخر صفحة . . مشتغلا بالأدب لا بالصحافة ، فأنا أديب متفلسف ولست صحفيا .

وفى الصفحة الأخيرة نشرت المقال والنقد والترجمة .

وأهم من ذلك أننى بدأت أقرأ الصحف والمجلات ، وكانت عينى تقع أو لا تزال تقع على الأدب والفن والفلسفة والكتب الجديدة .

وفى يوم قرأت مقالا بقلم الزميل محمد شرف خريج قسم الفلسفة ، والمقال تلخيص لرواية كتبها أديب إنجليزى اسمه تشارلز مورجان ، والرواية اسمها (الدائرة) . . هزنى المقال ، ورأيت شيئا جديدا لم أكن أعرفه ، فهو لخص الرواية ، ولكنه راح يفسر معانيها . . أى : المعنى الذى وراء الرواية . وما الذى قصده المؤلف ؟ فهو لم يكتف بالعرض والتلخيص ، ولكن كان له رأى والرأى هو مدلولها الفنى والفكرى عند المؤلف !

هذا هو الجديد الذى لم أكن أعرفه ، فليس الهدف من الرواية هو أن تقرأها للمتعة ، وإنما تقرؤها لتعرف ما المعنى ما الهدف ما القصد ، وكأننى قرأت (حجر رشيد) . . فالأستاذ العقاد قال لنا أنه لا يحب قراءة الروايات . . إنها تدوخه . وهو يريد أن يعرف المعنى الذى يقصده المؤلف دون إضاعة الوقت ، فهو يفضل الأبحاث لا الروايات ولا المسرحيات . . ويبدو أننا سرنا وراءه فى ذلك . .

ولكن كنت فى حاجة إلى رأى آخر ، وكان هذا الذى قرأت هو الرأى الآخر . .

ووقع شىء خطير فقد كتبت مقالا عن (معنى الفن) عند تولستوى ، وفوجئت بأن الأستاذ العقاد قد أعجبه المقال ، اندهشت ولما قال أن الذى أعجبه فى المقال هو أسلوبه انزعجت ، فالأسلوب الذى يعجب العقاد هو القريب من أسلوبه ، وأنا لا أحب أسلوب العقاد ، فكانت صدمة ، وعدت إلى البيت حزينا على نفسى وقررت ألا أكتب مثل هذا الأسلوب مرة أخرى .

وأعدت كتابة المقال عشر مرات . . عشرين مرة حتى استخرجت منه كل التراكيب الفلسفية أو البلاغية الصعبة ، ولما وجدت أن أسلوبى قد أصبح سهلا بسيطا وفيه أقل عدد من المصطلحات وأنه مفهوم لأقل الناس تخصصا ، عدت إلى الكتابة ، وكان هذا المقال هو آخر عهدى بالكتابة الفلسفية !

* * *

وبعد الظهر من كل يوم كنت أمر على المكتبات فى القاهرة . .

فهذه المكتبة (د . هـ . سميث) وراء مبنى جريدة (الأساس) التى أعمل بها ، وفيها كل الكتب الجديدة الواردة من لندن . . وبها الموظفون أصدقاء رجالا ونساء . .

ثم مكتبة (الكتاب الفرنسى) للآنسة إيفيت فرزلى . .

ومكتبة هاشيت أمامها . . ومكتبة كادموس . . ومكتبة زلزل . . والنهضة والأنجلو . .

وحيث يكون الصديق المرحوم لطف الله سليمان المسيحى الماركسى فإننا نذهب إليه ، فهو رجل مثقف لطيف وله أصدقاء كثيرون من كل لون دينى وسياسى ، وزوجته جانيت عراقى يهودية . . ومما يدفعنى إلى الذهاب إلى لطف الله سليمان أن زوجته لها أخت فى غاية الجمال . . تحفة فنية . يضعونها على كل الملصقات السياحية فى مصر . .

ولم يدر بيننا أى حديث من أى نوع . تهز رأسها ، فأهتز أنا من أولى لآخرى . وتختفى وأسمع أن لها أصدقاء من كل لون ودين . .

يعنى أن أية مكتبة يعمل فيها لطف الله سليمان سوف تجد أشكالا وألواناً من الناس أكثرهم شيوعيون .

ولكن شيئا جديدًا لم أكن أعرفه قد لاحظته ، وبهرنى وأسعدنى بعد ذلك . فالذين يجيئون إلى لطف الله سليمان مصريون تعلموا فى الخارج . . أو أنهم يعيشون فى مصر كأنهم خواجات . . ولكن الذى أعجبنى أنهم جميعا يتكلمون يتناقشون . فكلهم قد قرأوا وفهموا واختلفوا . إن هذه الجلسات أمتع من جلسات

العقاد . فهو الذى يتكلم طول الوقت . . كأن الصالون امتداد لمحاضرات الجامعة . . ولكن فى مكتبة لطف الله سليمان كلهم مثقفون جدا . وكلهم قرأ كتباً جديدة . بعضها لم أسمع عنه ، ثم أنهم قد قرأوها وغيرها من الكتب ويتناقشون بحماس وحرارة . وقد تمضى الساعات لا يدخل زبون واحد يشترى كتابا . لا يهم . فالمناقشة هى التى تهم . . ومن أهم الشخصيات فى ذلك الوقت : الكاتب المصرى جورج حنين وحبيبته وزوجته بعد ذلك بولا العلايلى ـ إقبال العلايلى ـ حفيدة أمير الشعراء شوقى . . وفيكى ـ فيكتوريا وهى يونانية ـ وكيكى ـ كاترين وهى إيطالية ، وإيفا ـ إيفون وهى يهودية أسبانية . .

وأصدقاء لهن من رجال الأعمال ولكنهم جميعا يقرأون ، ولهم محادثات طويلة قبل ذلك وبعد ذلك فى البيوت والأندية التى لها أسماء لم أسمع بها من قبل . .

والتقينا كثيرا . وكنا أصدقاء يسألون عنى وأسأل عنهم . ونتبادل الكتب . ولكن القضايا التى تشغلهم لا تشغلنى كثيرا أو مطلقا . وخصوصا قضايا الفنون التشكيلية والمذاهب السياسية : الشيوعية والتحريفية فى الصين وبولندا . . إنهم قد درسوا جيدا جدا وهم على صلة بأقطاب الشيوعية فى أوروبا وآسيا . .

وفوجئت بأن واحدة من هذه (الشلة) تسكن فى الطابق العلوى من مبنى جريدة (الأساس) . . ياه . . فوق دماغى . . يمكن أن أراها وأن أسمعها . . وأحيانا كثيرة أسمعها وهى تتخانق مع أمها وأحيانا مع أختها . . وفى إحدى المرات وجدت لهجة الحوار عنيفة جدا . وسمعتها تصرخ وتبكى . وترددت . وسددت أذنى . . ثم صعدت وانفتح الباب . . ورأتنى والدموع فى عينيها بادرتنى بقولها : آسفة .

– بل أنا شديد الأسف يا كيكى . . ماذا حدث . . هل لم يكن من الضرورى أن أجىء . .

– لا . . أنت أخى . . ماما . . مامى سنيور أنيس . .

وجاء صوت الأم يقول : أهلا . . آسفون يا ابنى . . أنت عارف هى وأخوها لا يتفقان . . متى يظهر لها عريس ؟ . . حالا جاية يا ابنى . .

وكانت كيكي جميلة . . ولكنها صارت أكثر جمالا . . فعيناها الزرقاوان أكثر لمعانا . . وشفتاها مختلفتان . . وصدرها يعلو ويهبط . . ولم تكن قد ارتدت كل ملابسها . . وقميصها يبدو كأنه فستان قصير . . وذراعاها بديعتان وساقاها أيضا . . ولم تجد حرجا فى أن تمضى فى البكاء . . ولا أعرف ما الذى يمكن أن أفعله . . وهل اعتذر وأخرج . . وفجأة وجدت كيكى قد ألقت بنفسها إلى جوارى على صدرى وراحت تبكى . . وجاءت الأم لترى ابنتها فى هذا الوضع . فنظرت لحظة وقالت : كيكى كانت محتاجة إليك . . أنت جئت يا سنيور أنيس فى الوقت المناسب . . كيكى تكلمنى عنك كثيرا وعن أحاديثكما الأدبية الطويلة والمؤدبة أيضا . أنا لم أسمعها تتحدث عن أحد بفرحة وسعادة مثل الحديث عنك . . صدقنى يا ابنى !

ومن بعيد اقترب شاب طويل عريض إيطالى تماما . . له كرش عظيم . . وملامحه غجرية . . ولم أستطيع أن أرفع كيكى عن صدرى فهززت رأسى وأنا جالس . . ولكنه جاء حتى اقترب وصافحنى . . وقال ضاحكا : لو كنت أعرف أن هذا ما كنت تريدين لناديت السنيور أنيس من بدرى . . خلاص أنا عرفت علاج أختى . . هاها . . هاها . .

ورفعت كيكى رأسها لتقول له : ابعد يا خنزير !

فقال : شايف يا سنيور منصور . . ماذا حدث . . قبل أن تجىء كانت تقول لى : يا كلب . . ولما جئت أنت صرت خنزيرا . . كلها عشر دقائق وأصير حماراً . . مبسوط كده !

ولم أدر ماذا يقول أو ماذا أقول : فكيكى نامت على صدرى . . حرارة جسمها . . عطرها . . أنفاسها . . ضعفها . . كل هذه صدمات كهربية لا أقوى على احتمالها . . ولما رفعت كيكى رأسها عن صدرى معتذرة بأنها أرهقتنى ، لم تعرف نوع الإرهاق الذى أصابنى . . ليس رأسك ولا صدرك . . وإنما هى الصواعق الوجدانية والصدمات العصبية والكيمياء التى أذابت الحديد والجليد فى أعمق أعماقى يا كيكى !

وبعد أن فرغت من فنجان القهوة . أشارت كيكى أن أتبعها . . فقد أرادت أن أرى مكتبتها فى غرفة نومها . . ولم أر الكتب بوضوح ولكنها كثيرة . فقد كنت غارقا فى أعماقى . . لم أعد أشعر بأن رأسى فوق كتفى . . إنها قد تسللت من عنقى إلى حلقى إلى قلبى . . لقد تكورت وانطويت . .

أما هذا الذى وضعته كيكى على شفتى فهى قبلة استحقها وانتظرتها ، ولكن لم أجرؤ أن أقبلها أنا . . فسبقتنى . وتعمدت أن ترى أمها وأخوها أنها قبلتنى وذلك عندما مسحت الأحمر من شفتى ، ونظرت إلى شفتيها فلم يكن بهما أحمر!

وعند الباب وهى تودعنى قالت لى : تحب تعمل معنا فى البنك .

ـ فى البنك ؟ ماذا ؟

ـ لا أعرف . ولكن أليس البنك أفضل من هذه الجريدة . .

ـ ولكن لا أفهم فى شئون البنوك . .

ـ أنت تعرف لغات كثيرة ، تعال اشتغل فى الترجمة .

ـ ولكن ترجمة الحسابات والميزانيات وشئون البنوك لا أعرفها . . فأنا درست الأدب والفلسفة . . شكرا . .

ولما عدت إلى مكتبى فى جريدة الأساس كانت الشائعات قد انتقلت بسرعة من الدور الثالث إلى الأول إلى الأستاذ حامد جوده المشرف على الجريدة ورئيس مجلس النواب . . فسألنى الأستاذ محمد صبيح نائب رئيس التحرير ودينامو هذه الجريدة : إنها قصة حب . .

ـ لا . . إنها خناقة . .

ـ على من التى تتزوجك ؟

ـ يا أستاذ جواز إيه . . أنا عارف أنا بأعمل إيه . . ولا حاعمل إيه . . ولا حتى أنا مين . . ولا إيه مستقبلى ! جواز . . ياه لقد ذهبت بعيدا جدا عن الواقع وعن إمكانيات العبد لله !

ـ ليس بعيدا على الله أن نجدك عريسا غدا صباحا ! ولا أنت عريس فعلا ونحن لا ندرى ! طبعا حتقول إنها طلبت إليك أن تعلمها الفلسفة وأن تفرجك على مكتبتها .

ـ والله هذا حدث !

ـ وأنت عبيط علشان تتركها وتتفرج على الكتب ؟ رأيى الشخصى أنك فعلا عبيط وأنك ممكن تعمل كده .. يدى الحلق للى بلا ودان يا أنيس !

وعدت إلى البيت ولم أنم .. ولم أتوقف لحظة واحدة عن الحقد على كلبى الذى استغرق فى النوم وفى أحلام غريبة وهو قد وضع رأسه على قدمى .. وكلما حركت قدمى حرك رأسه ثم عاد فنام على قدمى وكان لنومه صوت غليظ !

حسدت كلبى على أنه نائم وغارق فى النوم .. ولا شأن له بما يحدث حوله .. وما حدث لسيده .. إنه أراد أن ينام فنام آمنا على قدم واحد لم يعرف النوم ولا الأمان !

شيءٌ جديد
أكتشفه كل يوم

كنت فى مكتبى ، وعندما أعلن الساعى عن واحد خواجه . . إنه مخالى . . قال لى : أنا مخالى خطيب فيكى . .

ـ أهلا وسهلا . تفضل .

ـ مستعجل . فيكى بتقول لك . . إن الليلة عندنا عشاء . . وبعد العشاء فيه مناقشة لكتاب سارتر الجديد . . وأنت تحب ذلك . مش كده ؟

ـ أيوه . شكرا . وسوف أحضر .

ـ أوكى . الساعة التاسعة كويس .

ـ كويس .

ـ كل الموجودين أنت تعرفهم . فيكى هى التى تقول ذلك . .

فيكى طويلة سمراء تعمل فى شركة دولية للتأمينات . . الشركة تقع على شارع قصر النيل . . وعلى مسافة مائة متر من مبنى الإذاعة بشارع الشريفين . . وكثيرا ما رأيت فيكى من البلكونة ، وأحييها وأحيانا تشير لى أن انتظر . وانتظر وتقول : ما رأيك تاخد شايا فى هذا المطعم بعد الساعة السابعة .

والمطعم فى نفس شارع الشواربى .

وتجىء فيكى . . كلها حيوية . وعن قرب تبدو أجمل ، ولكنها غير راضية عن خطيبها ، وغير راضية عن عملها فى شركة التأمينات . وحزينة على أنها لا تعرف اللغة العربية وإلا كانت اشتغلت بالصحافة . فهى تعرف كيف تكتب المقالات والقصص ، وهى تنشرها فى صحيفة (خرونوس) وصحيفة (تاخيدروموس) ولكن أحدا من أصحابها المصريين لا يعرف اللغة اليونانية . . وهى لا تجيد اللغة الفرنسية وإن كانت تجيد الإيطالية . .

وفى يوم جلست فى المطعم واقتربت منى تسألنى : أنت مش مبسوط من الصحافة؟

- ليه ؟

- شكلك كده !

- لا . . أنا لا أزال فى أول عهدى بالصحافة . . لم أعرف ما الذى يجب أن أكتبه . . أن أقوله . .

- مش فاهمه !

- أنت عندما عملت فى شركة التأمين هذه كنت سعيدة من أول يوم . .

- أبدا وحياتك . . إننى أعمل فيها من ثلاث سنوات ومش عاوزه أقعد فيها ولا ثلاث دقائق . . تبادلنى .

- نعم أبادلك فى السكن فقط . . أنت فى الزمالك وأنا فى بولاق . .

- شقة ضيقة . .

- ولكن فيها أجمل مخلوقات ربنا . .

- أختى ؟

- نعم .

- إذن أنا عرفت لماذا هى تتكلم عنك كثيرا . تحبها ؟

- ومن الذى لا يحبها .

ـ أنت تحبها ؟
ـ لا أحد يستطيع أن يفلت من سحر جمالها .
ـ أنت تحبها .
ـ أحبها .
ـ حب حقيقى . .
ـ حب لكن مش عارف يعنى إيه حقيقى ؟
ـ يعنى تتمنى أن تتزوجها . .
ـ إلا الزواج . . فأنا لم أحقق أى شىء فى هذه الدنيا . . أبدا . . إلا الزواج . . بعد سنة واحدة من العمل أتزوج ؟ يا خبر أسود . .
ـ إذن ؟
ـ ولا حاجة أنا أتعذب بالبعد عنها . . وسوف أتعذب أكثر بالقرب منها . . وأكثر إذا تزوجتها !
ـ كده . . الآن فهمت هى حزينة ليه . . أنتم تكلمتم فى كل هذا ؟
ـ نعم .
ـ وقلت لها كل الذى قلت لى ؟
ـ طبعا . .
ـ ولكنها لا تزال تقرأ الكتب التى تبعث بها ؟
ـ نعم . .
ـ وتتناقشان فى هذه الكتب .
ـ كثيرا .
ـ والنتيجة ؟
ـ متعة مؤكدة لنا نحن الإثنين .
ـ ولا تتكلمان فى الحب .

ـ بل لا نتكلم إلا فى الحب . .

ـ ولكن بلا زواج ! وهى موافقة ؟ ؟

ـ نعم .

ـ كيف ؟

ـ لا تنسى أن اختك ماريا عاقلة جدا . . ثم إنها سوف تتزوج شابا آخر أجمل وأغنى !

ـ من ؟

ـ هى لم تقل لك ؟

ـ لا . .

ـ إنه ابن المليونير كلوناريس . .

ـ مؤكد ؟

ـ نعم .

ـ وأنت موافق ؟

ـ نعم .

ـ ولا يحزنك ذلك !

ـ يا فيكى أنا عارف ظروفى . . وهى ظروف قاسية ، وليس الزواج من أهدافها ! فهناك نوعان من الناس : أناس ولدوا ليتزوجوا . . وأناس ولدوا فقط ، أنا من هؤلاء . . ويكفى أننى ولدت !

ـ إنها لم تعد تذهب إلى الكنيسة فأنت السبب !

ـ إننى أيضا لا أذهب إلى الكنيسة . . هاها . .

ـ اسمع كريو أنيس أنت فاهم كلامى .

ـ إن حبيبها لا يذهب إلى الكنيسة أيضا !

ـ يعنى أنت لست مسئولا عن عدم ذهابها إلى الكنيسة ، فقد ذكرت لى عن مناقشات بينكما فلسفية عنيفة . . جعلتها لا تنام أياما . .

ـ أنا عادة لا أتعرض للمناقشات الدينية . . فكل واحد حر فى دينه . .

ـ قل لى . . إذن أنت لا تريد أن تعمل عندنا .

ـ شكرا . .

* * *

إن حالتى النفسية فى ذلك الوقت كانت تدل على شدة الحيرة والقلق والأرق . وليس السبب عملى ـ أى العمل . وإنما هو المزاج الفلسفى . ثم إننى أريد أن أعرض وجهة نظرى فى الفلسفة الوجودية أوضح وأطول . . فقد نشرت عددا من المقالات الفلسفية والأدبية فى كثير من المجلات . .

وفوجئت بأن الكاتب الكبير إحسان عبد القدوس قد قدم أحد أعمالى الأدبية فى مجلة روزاليوسف قائلا : لا ترفع عينيك عن أنيس منصور إنه كوكتيل من العقاد وطه حسين وسارتر . . وإنه أديب الوجودية اليوم وفيلسوفها غدا . وأدواته الأدبية فى غاية القوة والفلسفة فى غاية العمق انتظر نجما فى سماء الأدب .

وظهرت الترجمة اليونانية والفرنسية والإيطالية لما كتب إحسان عبد القدوس . .

ووجدت كل أفراد شلة لطف الله سليمان يطلبوننى ويقيمون لى حفل تكريم صغير بمناسبة تقديمى لعالم الأدب والفلسفة . . كل يوم اكتشف شيئا جديدا فى شارع شواربى . . شارع الدنيا . . فكل شىء بدأ فى حياتى كان هنا . .

فلم أكن أعرف أننى إذا نظرت من وراء الشباك إلى البيت الذى أمامنا فى الساعة العاشرة أو الحادية عشرة من صباح كل يوم فسوف أجد سيدة تقف على السرير تخلع ملابسها وترتدى قمصان نومها واحدا واحدا . . وتدور حول نفسها أمام المرآة . . قبل أن تذهب إلى الحمام . . وبعد ذلك أيضا . .

وتظل تنظر إلى نفسها كأن واحدا آخر ينظر إليها ويتفحصها . . وتأتى بحركات إغراء . . مرة ترفع القميص عن ساقيها واحدة واحدة . . حتى خصرها . . ثم ترفع القميص فوق نهديها . . ثم تحتهما . . ثم تخرج نهديها خارج القميص . . وترى نفسها من الجانب ومن الظهر ومن الأمام . . وتنكش شعرها وتشده وتنكشه مرة ثانية . . وتختفى وبعد ساعة تعود ملفوفة فى بشكير . . ثم تعيد كل الذى فعلته

قبل ذلك . . وترتدى الأزرق والأحمر . . والأصفر والأبيض والأسود . . وتعيد ترتيبها . . وتضع الأحمر والأبيض . . وتغير أحذيتها وجواربها . .

كل يوم . . كان ذلك هو الفيلم المجسم الذى يراه كل من ليس لديه ما يعمله . . وكنا ندعو بعضنا البعض إلى المشاهدة . .

أما غرفتى فهى كبيرة . . وليس لها إلا مكتبان . . واحد أجلس عليه والثانى يجلس عليه عبد التواب يوسف الذى صار أشهر أدباء الطفل . . وعلى الرغم من أن عينيه ستة على ستة فإنه كان ينحنى على الورق عند الكتابة . ويظل ساعات يفعل ذلك . . وهو نحيف أسمر صعيدى وإذا ضحك كانت ضحكته مجلجلة . . هكذا صريح فى الإعراب عن مشاعره ، والضحك أكبر برهان على ذلك !

ولو كان عندى وقت لجلست أطول أتفرج وأتنهد . . ولكن لست فى حاجة إلى مزيد من التنهدات . . فأسبابها كثيرة عندى . .

وعندى أيام محددة فى الأسبوع لأنواع من الرياضة الجسدية والنفسية . . فسور الأزبكية متعة حقيقية . . وعلى السور توجد كل أنواع الكتب . . القديمة جدا . . والحديثة . . فى كل فروع المعرفة الإنسانية . . والكتب القديمة بعضها يرتفع إلى درجة التحفة . . ويكون الحرص على شرائها بقصد الاحتفاظ بها أو بيعها بسعر مرتفع بعد ذلك . . أول من نبهنى إلى ذلك صديقى الشاعر عبد الرحمن صدقى . وكان يقول لى : بعد أن تتفرج على سور الأزبكية تعال خد قهوة فى مكتبى .

وكان أيامها وكيلا لدار الأوبرا . .

وأمام سور الأزبكية كل الناس . . أكثرهم من المثقفين . . ولهم ملامح متشابهة . . ملابسهم نظيفة . . مهذبون . يحترمون أنفسهم والناس ونظرتهم وإقبالهم على الكتب يدل على أنهم فى مكان عظيم . فإذا أقبل الواحد منهم على كتاب فإنه يمسكه باحترام . ويقلبه بأدب . ويضعه فى مكانه بعناية . . نعرفهم من النظرة واللمسة . . والباعة يعرفونهم أيضا . وتسمع من يقول : بحثت لك عن الكتاب . وسوف يجىء إن شاء الله من أسيوط . . بعد يومين . .

أو من يقول : الجزء الثالث هو الموجود . . أما الأول والثانى فقد باعهما ابنى الصغير دون أن يعرف أن هناك جزءا ثالثا . . إنه صغير لا يعرف . . ولكن سوف نحاول أن نحصل لك على الجزئين الآخرين . . وربنا يسهل . .

ورأيت على السور دائرة معارفة (لاروس) الفرنسية الضخمة من عشرين مجلدا . قلت : اشتريها . . واقتربت وقلبت . وفضحتنى السعادة فاقترب البائع وهو يقول : تصدق بالله . . أنا عندما اشتريتها قلت أنها سوف تكون من نصيبك . . يا واد يا مصطفى . . يا مصطفى . . تعال قل لسعادة البيه أنا قلت إيه امبارح . .

ويقول مصطفى : إن سيادتك اللى حتشتريها . .

ـ طيب أنا مين ؟

ـ أنت بتاع الفلسفة . . وصاحب الدكتور عبد الرحمن صدقى بتاع الأوبرا .

ـ شكرا . .

واشتريتها ونقلتها فى تاكسى إلى البيت . ولم أنم حتى الصباح سعيدا بها أقلب واتقلب واستمتع . .

وحان موعد فنجان القهوة عند عبد الرحمن صدقى ، وكما هى العادة وجدت حوله ممثلات ومطربات الأوبرا من كل لون وطول وعرض وقدمنى لهن . . ولم يكن هناك سوى الابتسام التقليدى . . وكأنه لم يفعل شيئا . ولا أنا . .

وخرجت الممثلات . وبقينا وحدنا وقال لى : هه . . ماذا وجدت . .

قلت له : كتاب سارتر (الوجودية مذهب إنسانى) . . ومسرحية تنسى وليامز : (عربة اسمها اللذة) . .

ـ أنا عندى مفاجأة لك . .

وفتح درج مكتبه . وقدم لى كتاب سارتر وقبل أن ألمسه قال : النهاردة إيه . . الأحد . . الأحد القادم يكون عندى هنا . .

ـ حاضر .

ـ كلام رجاله ولا كلام فلاسفة . . هاها (ضحكته غليظة جدا ، وصوته أيضا غليظ) .

ـ كلام رجالة فلاسفة !

وبعد ذلك أتجه إلى شارع محمد على .. شارع غريب عجيب .. بديع .. الجانب الأيمن منه وأنا متجه إلى (دار الكتب) توجد الفرق الموسيقية والغنائية والراقصات ..

الوجوه شاحبة من السهر والإرهاق .. الرجال جالسون وقد أسندوا ظهورهم إلى الأعمدة وإلى الجدران .. والبنات قد ارتدين الجلاليب البلدى التى هى أقرب إلى قمصان النوم .. وينظرن من النوافذ .. الوجوه أكثر شحوبا .. وعلى الوجه بقايا مكياج والحواجب ثقيلة غليظة .. وبعضها قد مسحوه ليرسموه من جديد .. والرجال يدخنون والنساء أيضا ..

وكنت أفتعل السؤال عن أى شىء لكى أقف . أو أجلس أو أتفرج .. وفى إحدى المرات انحنيت على حذائى أربطه . ولم يكن بى حاجة إلى ذلك ، ولكن وجدت أنه عذر يكفى لأن أرى ثلاث راقصات جلسن يشربن الشيشة ولهن طريقة خاصة فى الكلام .. وفى تعرية سيقانهن .

وفوجئت بواحدة تقول : تفضل يا اسمك إيه .. اقعد ياخوى .. تحب تشرب إيه .. احنا أولاد بلد .. تشرب إيه ؟

وقبل أن أرد عليها جاءت واحدة وقدمت لى مقعدا . وجلست فسألتنى : تشرب إيه يا حلو إنت .. عندنا كل حاجة .. بس أنت تأمر .. قهوة سادة .. قهوة سادة يا نعيمة .

ـ حاضر يا أسطى ..

واتجهت ناحيتى وكأننى أعرفها من وقت طويل وقالت لى : الهوى رماك .. ولا عابر سبيل ..

ـ عابر سبيل يا .

ـ صلاح . اسمى صلاح .

ـ صنايعى ؟

ـ أيوه .

ـ والصنعة إيه يا حلو إنت ؟

ـ مدرس . .

ـ مدرس إيه يا جدع .

ـ إنجليزى . .

ـ ماشاء الله . . بتيجى هنا كثير .

ـ أبدا . . مرة كل أسبوع .

ـ بتروح فين .

ـ دار الكتب . .

ـ البنت نعيمه بتقول إنها شافتك عند الجماعة الخواجات اللى هناك دول . . الدور الثانى . .

ـ أيوه صحيح . . عندها قدرة على الملاحظة غريبة جدا .

ـ بنت عفريته البنت نعيمه . تشوف الحاجة مرة واحدة وما تنساش أبدا .

ـ شكرا على القهوة يا ست .

ـ أنصاف . . اسمك إيه قلت لى ؟

ـ صلاح .

ـ عاشت الأسامى يا صلوحه . . خلينا نشوفك كل ما تيجى هنا . . ولا الخواجات هيه اللى أولاد ناس وإحنا ولاد القطة . .

ـ أبدا . . انتوا أسياد الناس . .

ـ بجد ؟

ـ والله من قلبى يا أنصاف . .

ـ السيدة فى ظهرك إذا جئت هنا ولم تمر علينا . . انده من الشباك . . وأنا أقوم لك من أحلاها نومه . . الناس لبعضها يا صلوحه . . والنبى أنا استريحت لك يا آدى الجدع !

ما الذى قالته إنصاف هذه . . كلام عادى وهى تعنى ما تقول . وهى صادقة . فهى لا تعرفنى ولا تريد منى شيئا . وهى استراحت لى ، وأنا أيضا . وهذا الشعور الغريب . . هو شعور صادق . . وسوف أمر عليها . . وسوف أجلس إليها . .

وسوف أجىء نهارا وليلا وسوف أذهب معها .. معهم إلى أى فرح .. أنا عاجبنى الحال .. هنا أناس طيبون .. على فطرتهم يكافحون فى الحياة .. وفى الاحتفاظ بصورة قديمة من مصر .. وعلى مسافة مائة متر من دار الأوبرا .. الأوبرا فنون أوروبية غربية .. وهذه فنون مصرية تركية فارسية عربية أصيلة .. وأنا أحب هذا الجو ..

ماذا قالت لى أنصاف .. ليتها قالت .. بقدر ما كانت فرحتى عظيمة عندما رأيت كتاب الفيلسوف سارتر الجديد بقدر سعادتى البالغة لترحيب أنصاف ونعيمه .. ليس فى هذا الترحيب أى شىء خاص بى .. فهما لا تعرفان من أنا .. ولكن أسعدتنى هذه الحفاوة هذه البساطة .. هذا الصدق .. آه لو دعتنى إلى الجلوس أطول .. إلى الغداء .. إلى العشاء إلى المبيت ما ترددت لحظة واحدة .. فشارع محمد على له جاذبية .. له سحر .. فتنة لى ذهابا وإيابا .. وأنا لا أحب عبور الشارع أو المرور به .. وإنما البقاء .. الإقامة .. العيش ساعات .. أياما ..

ونظرت إلى أعلى ووجدت صديقى شارل ليفى ينظر من النافذة وقد أمسك تلسكوبا لكى يرانى .. ولما اقتربت من بيته كان لابد أن أعبر الشارع فنادانى من النافذة خوفا أن أمضى فى طريقى إلى دار الكتب دون المرور أو الجلوس ..

وهززت رأسى أننى فى الطريق إليه . عبرت الشارع . لم أتنبه إلى السيارات القليلة من الناحيتين . واتجهت إلى المدخل الذى يهب منه هواء بارد .. ليس فى الهواء أيه روائح للبهورات أو الزيوت أو التقلية .. الهواء بارد نظيف . فكل سكان هذا البيت من الخواجات . وكل شىء تقع عليه عينيك مغسول ممسوح . والبيت ليس له بواب . ولكنهم يتناوبون غسل السلم والأبواب .. كأن هذا البيت فى الزمالك وليس فى شارع محمد على .. إنها ليست الأحياء التى تجعل الشارع أو البيت نظيفا ، ولكنهم السكان .. فهنا خواجات فى شارع محمد على وكأن بيتهم فى الزمالك .. فالبيت المجاور لبيت طه حسين فى الزمالك تخرج منه الضوضاء والزعيق وصراخ الأطفال ورائحة الثوم والبصل والفسيخ تعوق التفكير وتعترض أى إحساس .. وتقطع شريط الاحترام والوفاء الذى تديره فى رأسك استعدادا للجلوس إلى طه حسين ..

وعلى باب الشقة وجدت شارل ليفى وزوجته حنا وابنه مارك وابنته لويز . فى غاية الأناقة والوسامة والنظافة . العيون لامعة والوجوه مضيئة والأيدى ممدودة : أهلا .. أهلا وحشتنا .. إننا لم نرك من أسبوعين .. أنت سافرت .. ولا هاجرت .. أهلا ..

وتعانقنا .. وقبلتنى زوجته .. وانحنيت أقبل طفليه .. والباب من ورائه ترابيزة السفرة .. مفرش نظيف أبيض .. وفوقه ورود من كل لون .. والأرض تلمع والزجاج والأبواب .. والأكواب والأطباق والسكاكين وليس عندهم خادمة ..

قال لى : شاى .

- شكرا .

هى : جاتوه ؟

- شكرا

- واحدة من دى .. وواحدة من دى .

- شكرا .

- أين أنت ؟ سألنا عنك ميشلين .. قالت إنها رأتك فى الأوبرا .. وسلمت عليها من بعيد .

- أيوه صحيح ..

- ميشلين فى كل مكان ..

- هيه اللى فى كل مكان وإلا أنت ؟

واقترب منى شارل ليفى الموظف فى محلات شملا .. وسألنى : إن كنت قد قرأت البحث الذى أعده .

قلت : قرأته .

- ما رأيك .

- لا بأس ..

ـ أعجبك .

ـ أيوه . .

ـ طبعا لا يرقى إلى مستوى المذاهب الفلسفية . . ولكنه وجهة نظرى فى الثيوصوفية ـ الحكمة الإلهية – . .

شيء عجيب صديقى شارل ليفى هذا . إنه موظف بسيط وثقافته عامة محدودة . ولكن له اهتمامات فلسفية . . وله نشاط ماسونى . . ويدعو إلى تعلم لغة الأسبرانتو ـ أى اللغة الأمل ـ أى التى تجمع بين كل اللغات . . وتلغى الفوارق النحوية والصرفية . . إنها حلم رجل أراد ألا تكون هناك عقبات بين اللغات . . لتزول العقبات بين الشعوب . . وهو حلم اليهود وحلم الشيوعيين أيضا . . وهو يهودى شيوعى . .

وهو رجل رقيق . . وعنده مكتبة كبيرة . وعلى صلة بمعظم المكتبات فى القاهرة والإسكندرية . وما من مرة سألته عن كتاب أو طلبت منه البحث عن كتاب إلا عرف أين يجده . . أو أين يحصل هو عليه . .

استأذن ليرد على التليفون وسمعته يقول بالألمانية : حظك من السماء . . موجود عندى . . ولو عرف أنك فى الطريق إلينا فلن يتحرك . . سوف ينتظرك . . أيوه . . أيوه . . أنا عارف . . سوف أقول له . .

وجاءنى شارل وقال لى : حظك من السماء . أنت سمعتنى ؟ يعنى أنت تعرف من الذى كان يتكلم .

قلت : أعرف . . إنها ميشلين !

ـ بالضبط . .

ـ ولكنى لم أرها منذ وقت طويل . . قابلتها عند لطف الله سليمان .

ـ إزاى جانيت ؟

ـ كويسه .

ـ وأمها ؟

ـ لم أرها منذ وقت طويل . .

ـ ما تزال تذهب إليهم هناك ؟

ـ كل يوم .

ـ يا بختهم . . عندى كتب جديدة أريدك أن تتفرج عليها قبل أن تجىء ميشلين ونصبح إلى جوارها صفرا على الشمال . . أنا عارف قيمتى . .

كل شىء فى البيت نظيف . . ومنظم . . والأطفال لم أسمع لهم صوتا . . الزوجة تتحرك فى كل مكان . . ليس لقدميها صوت . . العصافير فى البلكونة هى التى لها صوت . . الشجيرات الصغيرة شديدة الاخضرار . . الفاكهة على المائدة جميلة معروضة فى غاية الأناقة . .

هذه الصورة التى على الحائط هى للفيلسوف الهولندى اسبينوزا . . قد ورثها شارل عن جده الهولندى الأصل . وهى لوحة فنية قديمة . ثمنها بعشرات الألوف .

وسمعنا صفيرا على السلم . إنها ميشلين . لابد من أن تسبقها الموسيقى والضوضاء . . إنها لا تجىء أو تخرج فى هدوء . . الباب مفتوح . . وظهرت ميشلين وفى يدها لفة كتب . . وظهرت الزوجة والأطفال . . وتعالت صيحات الحفاوة والقبلات والأحضان . ووقفنا وجها لوجه وهى تقول بالألمانية : أعمل فيك إيه . . أموتك سأبكى عليك طول عمرى . . اخنقك ـ الطيب أحسن . .

وكانت قبلات وعناق وقبلات . . وتلفت حول فلم أجد أحداً لقد دخل الصديق والزوجة والأطفال . كيف اتفقوا بسرعة على ذلك . . وتركونا وحدنا . .

طويلة ميشلين شقراء . . زرقاء العينين . . ذهبية الشعر . . وجهها هو الذى يهم كثيرا . . ففى وجهها تعبيرات غنية . . هنا حول عينيها حول شفتيها . . فى جبهتها العالية . . كيف يساعدها شعرها عندما تتحرك . . هى فى ناحية وهو فى ناحية . . ولكن ميشلين كل المعانى فى عينيها . . كل البلاغة فى شفتيها . . سبع لغات . تنحنى لها لفظا لفظا وكلمة كلمة . . وتختار منها التحف . .

قلت لها : ميشلين أين أنت ؟

ـ أين أنت ؟

ـ كما تعلمين ؟

ـ وأنا كما تعلم .

ولم نكمل حديثنا ..

وهل أكملنا أى حديث قبل ذلك .. نحن فى حالة شوق مستمر .. فى حالة نقص دائم .. كل ما نريده هو أن نكمل عبارة .. أن ننهى بحثا .. أن نتخذ قرارا .. ولكن كل شيء (ليس بعد) كما يقول الفلاسفة الوجوديون ..

قالت : بالمناسبة ظهر كتاب لسارتر وبالمناسبة أتيت لك بهذا الكتاب لكى تعرف مدى حبى لك ..

ـ ولكى تعرفى مدى حبى لك .. سوف أقرأ كتابك .. وأعطيك كتاب عبد الرحمن صدقى لتقرأيه أنت .

ـ أوه مفاجأة ..

ـ عندى مفاجأة أخرى .. هذه مجموعة مقالات فى المجلات الفرنسية عن الموضة الجديدة .. موضه نيولوك التى أبدعها كريستيان ديور ..

ـ ماذا تقولين ؟

ـ كريستيان ديور قام بثورة لصالح المرأة . الفساتين الجديدة طويلة تحت الركبة .. واسعة .. صحيح لا توجد هناك أقمشة .. ولكن هناك أيضا أزمة أنوثة .. المرأة محشورة فى فساتين اقتصادية خشنة .. لقد حررها كريستيان ديور وألبسها الحرير الناعم الغنى بالألوان الواسعة . لقد جعل كل الفساتين كأنها فساتين الزفاف .. فالمرأة قد تعبت من الحرب وظروف الحرب ولم تعد تجد نفسها .. إنها أصبحت أقرب إلى الرجل ..

ـ فكرة جميلة ..

ـ وأنا اعتقد أن المرأة سوف تصاب بالجنون فقد كانت تحتاج إلى رد اعتبار عظيم .. أنا أعرف أنك لا تزال مهتما بالأزياء والموضة .. هذه فلسفة أيضا ، وهناك مفاجأة أخرى .

ـ من أين ؟

ـ من فرنسا أيضا . .

ـ فلسفية ؟

ـ أناقية . .

ـ ماذا عندك اليوم يا ميشلين ؟

ـ ظهور موضة البيكينى . . وبيكينى اسم جزيرة استخدمها الأمريكان لتجاربهم الذرية . والمايوه البكينى هو الصغير جدا . . الذى يعرى الصدر والبطن . . طبعا أنت تحب البكينى . . أنا قرأت ترجمة لمقال لك تصف فيه أسلوبك . . وتقول أن كلماتك « محزقة » على المعانى . . تستطيع الآن أن تقول أن عباراتك بكينى تكشف الكثير وتغطى القليل .

ـ يا سلام على ذكائك يا ميشلين . . وجمالك أيضا . . جمالك الذكى أو ذكائك الجميل . .

وجاء صوت شارل من الداخل يقول : أيوه . . مادامت ميشلين قد ظهرت يظهر الشعر والموسيقى والفلسفة . . الناس مقامات . . كفايه . . إحنا تركناكم كفاية . . اقعدوا معانا . . أو اسمحوا لنا نقعد معاكم . .

ميشلين تقول : نسيت أقول لكم ان ابن خالتى كلمنى من أمريكا وقال لى أنه شاهد فيلم شارلى شابلن الجديد : مسيو فيردو . . يقول إنه قنبلة الموسم . . وكل موسم . . شارلى شابلن . . وماذا يقول عن كل شىء فى الدنيا . . أنت عارف أننى درست كيمياء . . ولذلك كان أهم خبر سمعته من ابن خالتى وأعتقد أنه أهم خبر فى الدنيا دلوقت . . لقد اكتشف أحد الأمريكان ماده كربون ١٤ ـ كربون ١٤ موجوده فى كل المواد العضوية . . حتى إذا مات الإنسان أو الحيوان أو النبات بقى هذا الكربون . . وتتفكك ذراته بشكل منتظم . . ولذلك فالكربون ١٤ هو الساعة التى وضعها ربنا فى كل الكائنات . . فنحن عن طريقها نعرف أعمار الآثار القديمة كلها . . وذلك بأن نعرف عدد الذرات التى تفككت . . فالذرة الواحدة تتفكك وتتناقص مثلا كل ألف أو ألفى سنة . . سيداتى سادتى انتهت أخبار الدنيا كلها ونستودعكم الله على أن نلتقى غدا . . هنا هيئة الإذاعة البريطانية . . هاها . .

قلت : يا ميشلين .

ـ إيه ؟

ـ آه لو وافقت على أن نتناول عشاءنا هنا فى شارع محمد على .

ـ يا ريت . . كيف ؟ تعرف أحدا هنا . . لابد . . لقد حدثتنى عن واحدة راقصة لم تكمل تعليمها وتحب القراءة وتريد أن تهاجر من مصر .

ـ هاجرت .

ـ إلى أين ؟

ـ إلى استراليا . . وتلقيت منها خطابا تقول أنها دخلت الجامعة وأنها عدلت نهائيا عن الرقص . . فقد كانت لها خاله غنية تعيش هناك منذ عشرين سنة . . والخالة بعد أن مات ابنها تعيش فى وحدة قاتلة . . ولما ذهبت عنايات هذه وجدت فيها كنزا . . وأعطتها كل ما تتمناه . وكتبت كل ثروتها باسمها . .

ـ متى ؟

ـ بعد يوم أو يومين سوف اتصل بصديقة اسمها أنصاف . .

ـ هنا ؟

ـ نعم . .

ـ ممكن أدعو بعض الصديقات الموجودات . . فين . . فين يا مشلين . . فى السكاكينى . .

ـ آه ممكن .

ـ أنا فى الانتظار . .

ـ إلى اللقاء جميعا . .

* * *

واتجهت أكمل المشوار الذى أجد فيه سعادتى الأسبوعية . . المشوار طويل . . لا يهم . . ولكن عندى الذى أفكر فيه طول هذا الشارع وحتى شارع مصنع الطرابيش فى العباسية . . وأنا عادة لا أشعر بالمسافات . . فأنا أمشى وأمشى ومشغول بما فى

رأسى ولذلك لا أشعر بالزمان ولا المكان . . وأعرف معالم الشارع . . وأعرف الروائح أيضا . . وأسماء الباعة فهم لم يغيروا أماكنهم من سنوات طويلة . . وأكاد أعرف ماذا يقولون فى كل مرة أتوقف لأشترى كوكا . . أو أشترى بسكوتا . . إنهم نفس الناس . . ونفس ردود الفعل . . ونفس الدهشة . . وهم يبيعون وهم مغمضون . . وأنا اشترى وأمشى وأتناول كل شىء وأنا شبه نائم . . فقط أصحو هنا . . أمام باب (الدير الدومنيكى) . . وعلى الباب توجد لافتة أعرف منها أين يوجد الأب قنواتى والأب بولانجيه . . تقول لوحة الأب قنواتى أنه فى الحديقة . . وتقول لوحة الأب بولانجيه أنه فى المكتبة . . المهم أنهما موجودان . .

وقبل أن أدخل المكتبة أتساءل : ما الذى أريده منهما ؟ . .

أنا الآن لا أريد شيئا . كنت أريد أشياء كثيرة عندما كنت طالبا . . ففى الفلسفة المسيحية والتصوف المسيحى أشياء كثيرة غامضة . وعندهما الحل . وعندهما النور والمنطق والإقناع . أما الآن فلا أريد شيئا إلا التحية وأن أعيش قريبا من هذا الجو العلمى الصوفى . . فأنا لا أريد أن تبلعنى الصحافة . . أو قراءة الصحف . . فقط أن أشعر بأننى مازلت على مقربة من الجامعة . . على مقربة من الناس الذين ندروا حياتهم للبحث عن الحقيقة والحب والسلام فى هذه الدنيا . . أو من الدنيا والآخرة . . أو بيننا نحن البشر أو بيننا وبين أنفسنا . . وكيف نصالح ـ يوميا ـ العقل على القلب . . اليوم على الغد . . الأمل على القناعة . . الحب على الرحمة . .

ـ قل لى يا أب قنواتى كيف استرحت نفسيا . .

ـ كيف . . إنها حكاية طويلة . .

ـ أقصد كيف قررت أن تجرد نفسك من نفسك . . كيف قررت أن تكون شاهدا على جسدك دون أن يكون لك جسد . .

ـ حاسب عندك . . من قال أننى بلا جسد . . من قال أننى نزعت نفسى من نفسى . . كل شىء فى مكانه . . جسدى فى مكانه وعقلى وقلبى كل منهما فى مكانه . . وأنا أقاوم وأوازن وأصالح ـ كل يوم . . حتى أصبح السلام أسلوبا فى الحياة وهدفا فى الدنيا والآخرة . .

ـ كأنك ما تزال فى صراع .

ـ نعم .

ـ مثلى تماما .

ـ لا . . أقل منك . . لأنك أنت ما تزال فى بداية البدايات . . لابد أن يمضى عليك وقت تخفف فيه من أعباء النظريات والمذاهب وأن تختار منها ما يريحك . .

ـ فعلا . لم أبلغ هذه المرحلة . .

ـ وأنت جئت للسلام أو جئت للتزود بالوقود . .

ـ للاثنين معا . .

ـ أما السلام ففى أى وقت . . نحن هنا راضون قانعون محبون للخير . . وأما الوقود فالمكتبة كلها أمامك . . كما كانت دائما . .

ـ عندى مشكلة .

ـ أيوه . . وأنا جاهز . .

ـ ولكنى لست جاهزا

ـ إذن غدا أو بعد غد . .

ـ . . . .

الذي أوله:
آه.. وآخره!

أمسكت عصا فى يدى أتوكأ عليها . . ولم يكن هناك أى سبب لذلك . وإنما وجدتنى كلما رأيت سلما جلست عليه ، لا فى أوله ولا فى آخره ولكن عند منتصفه . . كأننى كنت صاعدا فتوقفت . . أو كنت نازلا فتوقفت . وطبيعى أن يسأل الناس وتكون إجاباتى غريبة غير مقنعة . ولذلك لم أجد إلا حلا واحدا هو أن أدعى أن ساقى توجعنى وأننى لذلك لا أستطيع أن أصعد السلالم أو أنزلها . .

والحقيقة أننى حائر . فلا أعرف ماذا أفعل . . هل أصعد هل أهبط . . ولذلك فأنا أجلس أفكر . أو أجلس دون أن أفكر . إنها قصة لا تهم أحداً سواى . .

فعندما أذهب مبكرا جدا إلى الصحيفة التى أعمل فيها . آخذ حريتى فى الجلوس طويلا . . وعندما أذهب إلى كلية الآداب . . أجدنى جالسا على جانب من السلم طويلا . . وافتعل القراءة أو الكتابة حتى لا يسألنى أحد . .

ومرة ذهبت إلى مبنى (القضاء العالى) فى مواجهة سينما ريفولى . . ووجدت أكبر وأوسع سلالم فى القاهرة . وكان بعض الناس تسألنى إن كنت أعمل عند

أحد المحامين ، وكنت أقول كلاما مختلفا . أقول : تعبان . . مريض . . فى انتظار أحد أقاربى من المحامين أو من المتهمين .

وفى إحدى المرات جلست سيدة إلى جوارى وراحت تبكى . وكان لابد أن أسألها . وكان ابنها متهما لا أعرف فى أية قضية . . لابد أنها حكت لى الحكاية . ولكننى كنت مشغولا بغيرها ، وليس عندى استعداد لأن أسمع أى أحد . . محاميا . . قاضيا . . متهما مجرما . . فهم جميعا أحسن حالا منى . . لقد صارت لهم صفات . . واحد مجرم وواحد متهم وواحد مجنى عليه . . وواحد ضحية . . وواحد يقترض مالا لكى يأتى له بأحسن المحامين لكى يترافع عنه . . وأم تريد البراءة لابنها قاتلا والرحمة لابنها قتيلا . . وفى نفسى قلت : وأنا مالى . .

ولكن الجلوس على سلم جريدة (الأساس) التى أعمل فيها هو الذى له معنى . . هو الذى له طعم . . فعلى يمينى أرى شركة التأمينات التى تعمل فيها (فيكى) . . إنها راضية بحالها وتريدنى أن أرضى بها وبحالى . . وهى معذورة فهى لا تعرف عنى إلا القليل جدا حتى هذا القليل يوجع دماغها . . وورائى توجد مكتبة (سميث) والشارع الضيق الذى ينتهى بمحل لبيع الأسطوانات رأيت فيه الممثلة كاميليا . . كل الناس أشاروا إليها . ولا أعرف لماذا فأنا لم أكن قد ذهبت إلى السينما بعد . . ولكنهم أشاروا طويلا وتحدثوا وسألونى : ماذا قالت لى ؟ ولا أعرف أننى تكلمت إليها ، أو هى كلمتنى . . فليس عندى ما أقول ، ولا عندها . . ولكنهم حاولوا إقناعى بأن حوارا طويلا دار بيننا لعلهم يداعبوننى ويغمزون ويلمزون . . ولكن ليس هذا ما يهمنى . . وفى نهاية الشارع يوجد مبنى الإذاعة . . وبالقرب منه شركة ماركونى للبرقيات . . وعند نهاية الشارع مبنى جريدة (الأهرام) . .

ولما شعرت ببرودة السلالم وضعت الصحيفة التى لم أقرأها تحتى . . وجلست . . وطالت الجلسة . فقد كان اليوم جمعة ، ولا أحد يجىء . . ومددت ساقى أمامى وأسندت ظهرى . . ولم أرد على النازلين والطالعين مكتفيا بالإشارة إلى العصا فى يدى . .

من هذا الشارع وفى هذا الشارع وبعيدا وقريبا من هذا الشارع كل بذور الهموم فى حياتى . . كلها زرعتها هنا . . بعضها ظهر وبعضها لم يظهر . . كل الناس . . كل الأصوات . . كل الوجوه . . الذى ظل فى حياتى . . والذى كان ظلالا ذهبت ولم تعد . . والتى بقيت وكبرت معى والتى ماتت وكبرت بها . . كل البدايات هنا فى (شارع شواربى) . . وشواربى هذا هو أحد الباشوات . . أحد القضاة . . أحد أعضاء البرلمان من أسرة جاءت من الشام . . شارع صغير قصير . . ضيق . . ولكنه الشارع البداية . . الشارع النهاية . . الشارع الذى كأنه حلق القاهرة وأنا لقمة وقفت فيه . . لا أنا طالع ولا أنا نازل . . ولا حتى البنات الحلوة اليونانية والإيطالية أصبح لها لون أو عطر . . كل شىء جلس إلى جوارى على السلم . . حتى الهواء وقف . جمد . اعتقل رائحة الفول المدمس . . أو اعتقلته رائحة الفول وفتشته وجردته من رائحة الجميلتين كيكى وفيكى - صديقتين لى . . أنا الذى أقول . وهما يقولان إننى حبيبهما . طبعا مجاملتان ، ولكنه كلام حلو يرن فى أذنى ولا يدخل دماغى . . فدماغى خلية نحل وأحيانا خلية نمل . . وأحيانا علبة صفيح فارغة مثقوبة لا ترد ولا تصد ولا تحتفظ بأى شىء . .

إنه شارع التنهدات . .

شارع التأوهات . .

طريق الآلام . .

إنه الحبل السرى بين القاهرة الأم وأنا الوليد الذى لم ينفصل عن أمه بعد . . ما يزال مربوطا بها ومنها . .

ونحن طلبة كنا نترك إمبابة ونذهب إلى الزمالك . وفى الزمالك على النيل شارع الجبلاية . . يبدأ من فيلا أم كلثوم وينتهى بكوبرى بديعة . . الراقصة بديعة مصابنى . . الذى صار كوبرى الإنجليز . . ثم صار كوبرى الجلاء . . والأشجار كثيفة حانية . . والشبان تحت الأشجار - وفى ظلالها وظلامها يتحولون جميعا إلى لصوص للقبلات واللمسات ، والشجر والليل والظلام يتستر على الجميع ولابد أنهم يقولون : آه . . لألف سبب . . . إنهم يتأوهون فهو إذن شارع الحب والغرام . .

ولما ذهبت إلى شارع شواربى ، كان هو شارع التأوهات . .

وفى مدينة البندقية ركبت الجندول وسرت به تحت (كوبرى التنهدات) .. وهذا الكوبرى يتزاحم تحته العشاق ويقولون : آه أيضا .. وعندهم أمل ألا تطول الآه .. وأن ينتهى كل شىء بنجاح العشاق فى أن يبلغوا أقصى ما يريدون . فإذا بلغوه احتفظوا به .. وبأنفسهم ..

مع أن هذا الكوبرى الذى بناه المهندس كورتينو كان طريقا إلى سجن المجرمين قبل إعدامهم .. فكانوا يقولون : آه .. قبل إسقاطهم فى ظلمات السجون أو فى الموت ..

وفى مدينة كمبردج كوبرى آخر اسمه (كوبرى التنهدات) .. صورة من كوبرى البندقية ، ولكن لكى يمشى عليه الناس دون أن يلتفتوا إلى جسمه أو رسمه أو اسمه أو إثمه ..

وفى مدينة تبيجين الألمانية توجد حديقة اسمها (حديقة التنهدات) .. هذه الحديقة يجلس فيها طلبة الجامعة .. اثنين اثنين .. وآه .. وألف آه .. مشغولين تماما عن الدراسة والبحث ووجع الدماغ .. مشغولين بوجع القلب ..

وقد سخر منهم الشاعر الألمانى أولان .. وانتشرت قصائده . وضاق به الطلبة والطالبات . ولما مات الشاعر جاءت لحظة الانتقام فأقاموا له تمثالا كبيرا . وتركوا فى التمثال جميع الأخطاء الفنية ، وكانت نظريتهم : بالضبط لا يصح أن يكون النحت هكذا .. فالتمثال غير متناسب الأعضاء فى الوجه والجسم والساقين والذراعين .. لقد تكامل نقصاً وعيوباً !

وظنوا أن هذا انتقام من الشاعر ، ولكن التمثال ظل واقفا يحكى عبث الطلبة وانشغالهم عن العلم . وكلما رآه الناس سألوا : ولماذا هكذا .. ويسمعون القصة .. فهو ميت يفضح كل الذين أقاموه . وظل الطلبة يتنهدون ويتأوهون .. وتلتف آهاتهم حول التمثال بلا نهاية ..

وأتذكر مقالا نشرته فى إحدى المجلات فبدلا من أن أكتب اسمى كتبت فى نهاية المقال : يانوس ..

وعرفت فيما بعد أن (يانوس) هذا هو أحد آلهة الأساطير .. وكانوا يضعون رأسه على أبواب الدخول والخروج .. فهو يبارك من جاء ويبارك من ذهب .. يبارك كل الذين بادروا بالحضور أو بادروا بالانصراف ..

وأحسست أننى (يانوس) هكذا جالس على السلالم أنظر إلى الطالعين وإلى النازلين ، وأنا قابع كأننى تمثال لواحد مات . . تمثال أقمته لنفسى . . ولم يقمه أحد . . فالمعنى عندى أنا . .

فما المعنى ؟

الشواربى باشا الذى اتخذ الشارع اسمه له علاقة بكثير من أساتذتى فهو أيضا مولود سنة ١٨٨٩ . . وهى نفس السنة التى ولد فيها العقاد وطه حسين والمازنى وعبد الرحمن الرافعى وشارلى شابلن ونهرو وهتلر والفلاسفة الوجوديون : هايدجر الألمانى ومارسيل الفرنسى وفتجنشتين النمساوى والمؤرخان عبد الرحمن الرافعى وتوينبى والأديبان كوكتو الفرنسى وأخماتوفا الروسية . .

ولكن الشواربى لم يكن حائرا حيرة هؤلاء ولا معذبا ولا طموحا . . ولا ترك أثرا إلا هذا الشارع الصغير . .

قلت لنفسى : افرض أننى اخترت سلما آخر . . أكبر . . أطول أعرض . ومددت يدى هل يعطينى الناس فلوسا ، ممكن . . ولكن لو قلت لنفسى : إننى أتسول حلا . . أتسول رأيا . . أطلب عقلا . . قلبا . . قارئ كف . . قارئة فنجان . . ضاربة ودع . . لقالوا : مجنون . .

هذا إذا أحسنوا الظن . أما إذا أساءوا الظن ، ونظروا إلى القميص والبنطلون وشعرى المنكوش ووجهى الشاحب . . والصحيفة التى أجلس على بابها . . وورقة بها سندوتش جبنة . . فسندوتش الجبنة التى كانت تصنعه أمى وأنا تلميذ فى المدرسة الابتدائية ما تزال تفعل ذلك ولا أزال أنتظره . . وكنت آكله حتى لو نسيت وتغديت فى أى مكان ، لابد أن آكله حتى لا تغضب أمى . . ولم يحدث مرة واحدة أن سألتنى ولم تكن الإجابة : أكلته يا ماما . . ولم يحدث مرة واحدة أن تركته فى أى مكان أو أعطيته لأحد . . أو حتى لواحد شحاذ . .

ولو أساء أحد الظن لقال أنه يبحث عن عمل . . أو جلس يعاكس البنات . . أو أنه صايع . . صعلوك . . ولكن أحدا لم يقل ذلك . أو فاتحنى أو صدمنى . .

وعلى الرغم من أننى اشتغلت بالصحافة . . وكانت لى صفحة كاملة . . أكتب وأترجم واستضيف كتابا آخرين . . أفعل ما أشاء ، فإننى لم اقتنع بأن هذا هو

العمل ، أو هذه هى الوظيفة ، فما يزال عندى متسع من الوقت لا أعرف بأى شىء أشغله . . إذن فأنا أرى أن العمل هو أن أظل مشغولا ليلا ونهارا . أعمل ماذا؟ أعمل والسلام . أقرأ . أكتب . ولكن حتى لو فعلت ذلك ، ألا يأتى وقت أستريح من كل ذلك . لم يخطر ببالى . فأنا وجدت نفسى أعمل فى الصحافة . لم أفكر . لم أضع أمامى عدة إمكانات . واخترت واحدة منها . . وإنما وجدت أمامى طريقا فمشيت وبابا فطرقت ومقعدا فجلست وورقا فكتبت . . وكتبت . . كيف حدث ذلك ؟ لا أعرف . هل كان من الممكن أن يحدث غير ذلك . كان من الممكن فليس كل الناس كتابا . ولا كل زملائى . ولم يلفت نظرى أحد إلى ما يجب أن أقرأ . . ماذا يجب أن أقول . إلى من أكتب . وما رأى الذين أكتب لهم . لا أحد يقول ، ولا حتى زملائى . لا أعرف إن كانوا يقرأون لى أو لا يقرأون . ولا أدرى إن قرأوا وسألتهم فما الرد ؟ . وما الذى يعجب وما الذى لا يعجب . ثم ماذا أفعل بعد ذلك ؟ . .

وقررت أن أهبط الدرج وأن ألقى العصا ـ التى هى عذر أعرج . . ولست أنا الأعرج . . وأترك العمل فى الصحافة . وبس . ولكن أعمل ماذا ؟ لا أعرف . فما عيب الصحافة ؟ لا أرى لها أية ميزة . إذن العيب فى تفكيرى أنا ، فما عيبه ؟ عيبه الفلسفة . التى علمتنا أن نفكر وأن نتأمل . وأن نقول : نعم لأفكارنا ونقول : لا . . لأفكار الآخرين . ونظل هكذا نقول ويقال لنا ولا نفعل أى شىء . . وإذا كان أستاذنا سقراط يتمشى ويتوقف فى الشوارع ومن حوله تلامذته يفكرون ويعيدون ترتيب الكون . . فهو بلا عمل . وهم ليسوا فى حاجة إلى عمل فأكثرهم من الأغنياء . . ثم إنهم تلامذة يدرسون . . وكذلك أستاذنا العظيم أرسطو يتمشى ومن حوله ومن ورائه وأمامه تلامذته يفكرون أيضا . .

وكان سقراط يقف على سلالم المتاحف والمعابد لم يكن يجلس . وكان يعرف بالضبط ماذا يريد . والذى يريده يعرف أين يجده . . إنه يبحث عن معانى الأشياء كلها فى عقول التلامذة . . وهو يؤمن بأن كل المعانى موجودة . . تماما كما أن التمثال موجود فى الحجر . . وليس أمامه إلا أن يحفر الحجر ليظهر التمثال . . وأن يقلب فى عقول تلامذته ليجد كل المعانى . . ولم يكن لى أحد كسقراط فى

ذلك الوقت . . فأنا أهرش فى دماغى وفى شعرى . . لعل المعانى أن تتساقط من رأسى وأجمعها أو أكنسها من فوق السلالم . .

وتذكرت أن أبى قد مات . . وأن الذى يدور فى دماغى هو لعب عيال . . وبقايا فلسفة سلبية . فلسفة لا تدفع خطوة واحدة إلى الأمام . . فلسفة تجد لذة فى الحرمان . ولا تبحث عن شىء . . تجد لذة فى العذاب وترفض الراحة إذا وجدتها . . وإننى أستعير فلسفة الأغنياء الذين يجدون الفكر ترفا والفلسفة أبهة . . ولكنى يجب أن أتبين بوضوح تام أن الذى تعلمته هو سلعة يجب أن أبيعها فى سوق الفكر والأدب . وأن أعيش منها وعليها . . وكلما تطورت وتحسنت هذه السلعة فى يدى وبين أصابعى وذهابا وإيابا من عقلى إلى قلبى وزودتها بأفكار الآخرين ، فسوف أبقى على السلم . ولن يساعدنى السلم ، بل سوف يلفظنى كأننى زبالة . .

لقد حان وقت النهوض . . يجب أن أقف . وألقى العصا . وأن أتحرك صاعدا واحدة واحدة . . ولا طريق غير ذلك . لا طريق إلا إلى فوق . . ما الذى ينقصنى لقد تدربت على أصعب الأفكار وتدربت على الطيران والنظر من فوق إلى الكون . . وتدربت على السباحة فى محيطات المعرفة وعلى الغوص العميق . . ما الذى ينقصنى ؟

ينقصنى أن أنظر فى المرآة . . ينقصنى أن أنظر إلى الطريق الطويل الذى قطعته من المنصورة إلى القاهرة . . لقد كنت أول المدرسة وأول شهادتى الثقافة والتوجيهية وأول مصر فى مسابقة الفلسفة . . وأول الليسانس . . وإذا كنت لم أشعر بهذا الفوز . . فهو شعورى الناقص . ولكنى فزت . لقد جربت نفسى وتدربت وتفوق . . والذى قمت به صغيرا أستطيع أن أكرره كبيرا . . لقد اتسعت الدنيا هنا . . وانفتحت . . وليس أمامى إلا أن أتماسك وأن أثبت . . فلابد أن تكوينى قوى . وأعصابى قوية . . وقدرتى على الصبر والاستمرار عظيمة . فلست هشا كما توهمت . ولا أنا هزيل كما تصورت . . ويجب ألا أهرب من المسئولية . فأنا مسئول عن أمى . وهذا وحده يكفى لأن يجعلنى أحمل السلاح دفاعا عن نفسى وعنها . وأنا قادر على ذلك من المؤكد أننى أقدر . .

ونظرت إلى زملائى وقلت : أنا أعرف لغات أكثر من فلان .. ولغتى العربية أحسن وأسلم وأجمل .. وأنا أقرأ أكثر .. وأفهم أسرع .. وإذا كتبت فأنا أسهل وأوضح .. أناأحسن بكثير ومن كثيرين جدا . أنا إذن مخلوق لأن أكون شيئا . لابد أن أكون شيئا ، وأمى لم تخطئ حين تنبأت بأن أكون وزيرا . فقد كانت ترى الوزير هو قمة الجميع . ولم تعرف أن هناك قمما أخرى فى كل العلوم والفنون . وأن المفكر والفنان أطول عمرا .. ولكنها كانت ترى السيارة والحراسة والقصور والحدائق ، وترى أن أحدا لا يقدر على ذلك إلا إذا كان وزيرا . هذه صورتها البسيطة وقمة دنياها وأعلى أمانيها لأحب أولادها !

قم !

وقمت . انهض ارفع رأسك ارم عصاك .. كن نفسك .. حاول أن تسخر من كل الذى فعلت على السلم ومن كل الذين سخروا منك . ادخل كل الأبواب .. كل المطاعم . كل الكباريهات . لا تخف . ولا يهمك . فأنت أحسن . أنت أقوى .. أنت أبقى من كل هؤلاء .. ليس هذا رأيى ولكنه رأى الذى خلقك وسواك أديبا مفكراً وجعل الطريق إلى ذلك هو هذا السلم إلى أول صحيفة صغيرة تعمل بها .. وسوف تكبر .. هذا مؤكد ..

كفى آهات .. كفى تأوهات .. اعبر جسر التأوهات وحديقة التنهدات .. فقد انفتحت أمامك ولك ومن أجلك هذه الدنيا .. ولتكن هذه العبارات .. هذه المعانى هى السلم الذى تقف عليه .. وهو الذى يتحرك بك صاعدا إلى فوق .. فمن أجل ذلك خلقك الله ، ومن أجل ذلك تنبأت لك أمك .. حتى تلك الفتيات الطيبات اللاتى رفعن معنوياتك ، كن يشعرن بذلك .. إلا أنت ..

والآن : أنت أولا .. وهذه الدنيا وكل شىء وكل أحد يمشى وراءك ..

ولست أنت الطابور الوحيد .. فقد سبقك آخرون .. وسوف تمشى وراءهم أيضا فى الطابور .. أنت فى قطار الحياة .. راكب جالس بجوار النافذة بجوار الباب .. والقطار يتوقف وينزل أناس ويصعد أناس .. وإذا كنت قد صعدت واتخذت لك مقعدا ، فسوف تجىء محطة وسوف تنزل ولن تعود .. فاجعل ركوبك القطار عملا إبداعيا .. لا ندما ولا غيابا ولا غيبوبة ..

عندما قال لى الأساتذة : أنت خسارة !

كانوا يقصدون أننى مكسب للدراسات الفلسفية وخسارة فى الصحافة . .

وعندما قالت لى الأديبة الإيطالية الشابة سلفانا جابرييللى فى أول لقاء لنا فى بيت الفيلسوف الإيطالى كروتشه فى مدينة نابلى : أنت طريقتك فى الكلام والكتابة كأنك إيطالى . . خسارة أنك لست إيطاليا . .

أى أننى مكسب للغة الإيطالية وهدية لا تستحقها اللغة العربية ، ولكن العقل الذى يعبر بالإيطالية هو الأقدر على أن يعبر بالإيطالية . . إذن سوف أكون مكسبا للغة العربية . .

آه . . آه . . آخر آهة . . وآخر التنهدات على السلم . .

وانتقلت من شارع شواربى إلى شارع الصحافة حيث (أخبار اليوم) . . بداية الصعود الحقيقى إلى فوق . . إلى الدوران حول كوكب الصحافة فى مدار بعيد . .

وعلى الرغم من أن (شارع الصحافة) الذى يبدأ على الشمال بأخبار اليوم وعلى اليمين بالأهرام . . فإننى انتقلت من الأهرام إلى أخبار اليوم إلى الأهرام . . فقد صارت آهاتى بداخلى . فقد عرفت الطريق مستقيما وملتويا . . وصاعدا وهابطا . . ولكنى عندما هبطت الطريق كان هو الذى هبط ولكنى مضيت إلى فوق . . إنه نفس الطريق . . إنها نفس العلامات . . إنها الرسوم الجمركية التى ندفعها دائما : العمل والتعب والعرق والأرق والصدق والقراءة والكتابة وتجويد الكتابة والصبر والايمان بشىء قوى . . والإيمان بالنفس أيضا . .

وقد تلاشت من عينى كل صور وحدائق التنهدات . . ولم تبق إلا صورة (طريق الآلام) فى مدينة القدس . . وهو الطريق الذى سار فيه السيد المسيح حاملا الصليب لكى يدقوا المسامير فى ذراعيه وقدميه . . ثم يتركونه فى المطر والعواصف ينزف دما . .

ما المعنى ؟ إن كل إنسان يحمل صليبه . . يحمل وسيلة تعذيبه . . وهو يحمل وسيلة التعذيب لأن له رأيا مخالفا مغايرا . . وقد تمسك برأيه . ومادام له رأى وله عقيدة وعزيمة ، فسوف يحاسبه الناس ويحاكمونه برأيه . . والشجعان والأبطال

وتلامذة سقراط والقديسون هم القادرون على أن يصمدوا مهما كانت العواصف والأمطار والدماء . .

وعلى الرغم من أننى لم أكن صاحب مذهب أو نظرية ثورية فقد شاءت الظروف أن تكون لى آراء تصدم الناس . . وأن يكون لى موقف رسمى مع السلام الذى تحقق وسارت وراءه مصر وكل الدول العربية . .

فقد تلقيت بسبب ذلك عشرين تهديدا بالقتل من منظمات متطرفة كثيرة . إنه الصليب الذى صنعته التيارات المعارضة للتطور . . المناوئة للسلام . .

ومن قبل ذلك كان غضب الناس من (الفلسفة الوجودية) التى ناديت بها وشرحتها . ونشرتها وتأثر بها ألوف الشبان . ولم أفزع أحدا . وإنما أكدت دائماً أننى وجودى مؤمن ، وأن الوجودية هى منهج فى التفكير وليس أسلوبا كافرا بأعظم القيم . ولكن من الصعب إقناع من ليس عنده وقت لكى يفكر ويناقش ويراجع وبعد ذلك يبرئ من يستحق البراءة . . ولكننى لم أيأس . ولم أتردد فى تأكيد إيمانى كاتبا محاضرا حاجا ومعتمرا مصليا فى داخل الكعبة .

وما زلت أرى أن الفلسفة الوجودية هى أصدق تعبير عن الحيرة والدوخة والعزلة والغربة التى يشعر بها المفكر وسط الزحام فى سوق البيع والشراء . . بيع القيم وشراء الذمم . . فهى سوق كاسدة فاسدة . .

قرار

خليكن مايكون!

من النافذة رأيت أسطح البيوت نظيفة . . ليست عليها صنادق ولا بقايا أشياء . . ولا يأوى إليها الطيور والحشرات والزواحف . . مع أن أحدا لا يعيش عليها . . ولا ينظر إليها حتى إذا أطل من النافذة . . والبيوت نظيفة متشابهة . . اللون أخضر والأطراف البيضاء . . ومن الجدران ظهرت الزهور والورود . . بلونها الأحمر القانى . . والأوراق الخضراء . . شديدة الخضرة . . ومن النوافذ .

وفيها وعلى أطرافها كل أنواع الزهور والورود . . كثيرة ولها شكل . . ولكنها جميعا منظمة . . فى كل النوافذ والبلكونات الصغيرة . . وفى الشوارع أشجار ذهب الشتاء بأوراقها ولكنها مشدودة قوية قائمة كأنها أسلحة مشرعة فى وجه البرد والريح والجليد . . والأرض تغطت باللون الأبيض . . هل ماتت ؟

لم تمت . وليس هذا اللون الأبيض هو كفن الطبيعة . . وإنما هو غطاء رقيق . . أو كثيف تتغطى به الحياة . . أو أنها نامت يوما . . أسبوعا . . أسبوعين . . وبعد ذلك سوف تنفض عنها الغطاء . . إنها لا تنفضه إنها تذيبه . . فيتحول الجليد إلى ماء . . أى دبت فيه الحياة فينساب متدفقا بقوته وبجاذبية الأرض . . ومن تحته

سوف تستأنف الحياة دورتها . . أو مسيرتها . . أو طريقها أو شوارعها أى طريقها الذى له هدف . . له بداية وله نهاية . .

فلا شىء يموت . . وإنما كل شىء ينام . . يسترخى . . يستسلم ثم ينهض من جديد . . وبعد ذلك يعود إلى التراخى . . إلى الذبول . . ثم ينهض . .

والناس قد شقوا لهم ولسياراتهم طريقا من الجليد . . الطريق أسود وسط بياض الجليد . . ولكن الحياة تنطلق . . والإنسان ينطلق معها . . أو هو الذى أطلقها بحثا ووصولا واكتشافا لمعان أخرى جديدة . . ولم يكن الجليد مانعا ولا عائقا . . ولا مصيدة . . ولا كفنا ولا نعشا . .

ومن بعيد اقتربت الأرض من السماء . . فالأرض بيضاء رمادية والسحاب أبيض رمادى ووراء السحاب سماء لا أراها . . ولكن هذه السحب مستعدة هى الأخرى لأن تسقط مطرا أو تسقط جليدا . . فيستقر على الأرض .

وقد كانت السحب ماء فى المحيطات . . ثم خرجت بخارا ودفعتها الرياح إلى ما فوق المدن . . وفى هذه السحب سكنت كل أبخرة وذرات المصانع . . والتلوث الكيميائى . . ثم عادت به إلى الأرض تحت أقدام الناس وعرباتهم وسياراتهم . .

ولو ولد الإنسان الآن ومات غدا وكان له رأى أو كلمة لقال أنه الحى الوحيد الذى عاش . . ولم يكد يعيش حتى مات . . فالحياة قصيرة . والدنيا مقبرة والإنسان ولد الآن ليموت بعد ذلك . فما المعنى ؟

ولكن الإنسان لا يولد كامل الوعى فى لحظة ، ليموت بعدها بكامل قواه فى لحظة أخرى . . ولكن الحياة رغم أنها قصيرة فليست قصيرة جدا ، ولكنها تكفى لأن يرى الإنسان ويفهم ويشارك ويناقش ويتفوق ويضيف جديدا . . فكرة . . أو خطوة تدفع الحياة شبرا فى الطريق الصاعد الهابط طريق الإنسانية الذى لا يعرفه . .

لقد رأيت عربة الإسكيمو تجرها الكلاب وسط الصحراء الجليدية . . وهى تجر العربة وصاحبها مترا . . ألف متر . . والصحراء الجليدية لا أول لها نراه ولا آخر . . ولكن الكلاب كأنها حشرات صغيرة فيها صوت وفيها قوة . . أما عقلها فهو صاحبها نفسه . . كل يجرى لهدف . . وكل له معنى . . وهذه العربات وهذه

الكلاب وهؤلاء الناس فى هذه الصحارى لهم جميعا هدف . . هؤلاء لهم هدف . . وهؤلاء لهم طريق . . وهذه الكلاب تعوى إذا جاعت . . وأصحابها عندما يتعبون يتوقفون ويستخرجون الطعام ، ويأكلون ، ويضيفون طاقة إلى إرادتهم ويعاودون الحركة إلى هدف . .

فكل واحد وكل حيوان وكل حشرة وكل كوكب وكل نجم وكل مجرة . . وكل كون له هدف . . فما الهدف ؟ الهدف والمعنى عند الله . .

وحركات الأحياء من الإنسان والحيوان والحشرات والميكروبات لها هدف قريب وهدف بعيد لا نعرفه . .

وكل شىء يجرى . .

وإذا رأيت حشرة تجرى على الحائط ، فليس هذا شيئا قليلا ولا تافها . . تماما كما أرى عربة الإسكيمو الصغيرة جدا تجرها براغيث . . فتقول : تافهة صغيرة . .

وليست تافهة ! ولا هى صغيرة . . إن برغوثا أعظم وأروع من أية طائرة ومن أى صاروخ . . كيف يتجول ويتنفس ويضبط حركته . . ويتحسس طريقه . وكيف يتوالد . . إن الطائرات والسيارات لا تتوالد . . ولكن أصغر الكائنات . . الميكروب يتوالد . ألف . . مليون . . ألف مليون مرة . . وفى كل مرة تخرج كائنات قادرة على الحياة والتكاثر وأقدر من الإنسان . .

وأخرجت المنظار المعظم من حقيبتى . . ونظرت من النافذة فوجدت نباتات تطل من بين كتل الجليد . . ورأيت نملة على النافذة . . على الزجاج المواجه للجليد . . نملة حية . . تنطلق كأن الزجاج أرض خشنة . . وكان الهواء ليس عشرين درجة تحت الصفر . . هذه الحشرة لا ارتدت جوربا . . ولا جلبابا من الصوف تحت ملابس صوفية . . ولا فوق الجلباب روب من الصوف . . وليس فى رأسها طاقية صوف كالتى أتقى بها البرد مع أننى فى داخل الغرفة المكيفة الدافئة !!

والطيور تروح وتجىء . . إنها ليست كثيرة الآن . . ولكنها قليلة . . والقليل من الكثير الذى توارى فى أركان البيوت وفى أبراج الكنائس . . وبالقرب من مداخن المصانع الدافئة أو فى جحور فى الأرض .

وهؤلاء الناس الذين يسعلون ويعطسون قد نشطت فيهم الجراثيم والفيروسات

والبكتريا . . وهى قادرة على أن تميت هؤلاء المزكومين . . وكثيرا ما أدت إلى موت عشرات الملايين . . لولا أن الإنسان فى حرصه على الحياة قد قضى عليها . . فتختفى هذه الميكروبات لتظهر فيما بعد بشكل مختلف وأقدر على أن تقاوم وتتكاثر ، حتى يهتدى الإنسان إلى سلاح يفتك بها . . وينتظرها فى الشتاء القادم وقد غيرت صنوفها وخططها وعادت تستأنف القتال من أجل البقاء . . وتنتصر الحياة . . حياة الإنسان . . وحياة الميكروبات أيضا . . ويستمر القتال والنصر المؤقت . وهذا النصر المؤقت كاف لأن يستأنف الإنسان بقية نشاطات حياته العقلية والفنية والإبداعية فى أساليب الحياة وأدوات الموت . . الموت له وللحيوان والنبات والحشرات والميكروبات . .

ورأيت من النافذة طفلا يجر كلبا . . أو كلبا يجر طفلا . . أو يسيران معا . . والكلب يقف . . ويشمشم فى الأرض والطفل يسوى البرنيطة فوق دماغه . . الطفل أشقر الشعر . . متورد الخدين . . أو متوهج الخدين . . ورحت أتابعه بالمنظار المكبر . . إنه يمشى . . والناس يمشون . . ولا أحد ينظر إليه . . أو يتوقف ليسأله . . أو حتى يداعبه . . لا أحد . . كأنه كبير أو كأنه يجر حصانا أو يدفع سيارة . . إنه مثلهم . .

خجلت من نفسى ومن خوفى من البرد حين ارتديت كل ما عندى من ملابس ثقيلة . . ومررت بموظفى الاستعلامات . . وهززت رأسى كأنى مستعجل . وأننى تأخرت عن موعدى . . وكان من عادتى أن أتكلم إليهم وأسأل . . وأعرف حالة الجو لأنى لا أريد أن أغامر بالخروج من الدفء إلى البرودة الشديدة . . وخرجت ولسعنى البرد فى كل مكان من جسمى . . فتوقفت . . ورأيت الناس فى حيوية وشباب كأن شيئا غير عادى لم يحدث . . ولم أعد أشعر بالبرد . . أو بلسع البرد . ومضيت كأن لى هدفا . ووجدتنى أمشى بسرعة . ووجدتنى أيضا أتجهم كأننى أفكر . وكأن شيئا لا يثنينى عن الذى أردته وقررته وماض إليه . . لقد دخلت فى أوركسترا العمل اليومى عازفا أو مشاركا أو مستمعا . المهم أننى لم أعد وحدى فى غرفة فى نافذة أتفرج على الدنيا دون أن أشارك فيها . .

ورحت أنظر إلى الأرض كأننى أبحث عن صرصار أو نملة أؤكد لها أننى لا أقل

عنهـا إرادة أو رغبـة فى الحيـاة . أو إصرارا على تحدى أكفـان الجليد وبرودة الجو والعداء الكونى حولنا من أجل أن يموت الإنسان !

واتجهت مباشرة إلى كشك الصحف . ودرت حوله . . واحتميت فيه من الهواء البارد . وعطست . . وسمعت صوتا فى داخل الكشك . . وانفتحت نافذة صغيرة . أطل منها طفل . قلت له : هالو . . ازيك . . صباح الخير . . أنت تنام هنا . .

فهز رأسه بما معناه : لا . .

عدت أقول له : إذن أنت جئت من وقت قصير ، فهز رأسه أن هذا صحيح . . ثم قال : سوف أفتح الباب . . فكل الصحف عندى . . انتظر .

فـلابد أن والده قـد أتى به وبالصـحف مـبكرا . وطلب إليـه أن ينام بعض الوقت . . حتى يعود إليـه ويعـاونه على فـتح النوافـذ والأبواب وعـرض الصـحف والمجلات الجديدة . .

وقال لى : أنت هر أنيس !

- نعم .

- (ونظر فى ورقة) أنت تشترى ثلاث صحف . سوف أعطيك واحدة فقط . . هذه تعليمات والدى . .

- لماذا ؟

- لا أعرف . ولكنه قال ذلك . .

- ولم يقل لك السبب .

- لا . . . .

- ولكن ألست تريد أن تبيعها كلها ؟

- أريد ذلك .

- إذن لماذا لا أشتريها كما أفعل كل يوم من عشرين يوما . .

- أبى يقول : إذا بعت كل الصحف . . فمعنى ذلك أن اليوم قد انتهى ، وأنه

ليس أمامنا إلا أن نعود إلى البيت . . وهو يريدنى أن أبقى معه بعض الوقت . . لأن مامى تعمل . وأنا ابنهما الوحيد . .

ـ إذن أعطنى هذه الصحف كلها وسوف أقرؤها هنا . . وأبقى معك حتى يجىء أبوك .

ـ أنت جاد ؟

ـ نعم . .

وأعطانى الصحف الثلاث سعيدا . .

وسمعت صوتا فى داخلى يقول لى : فاهم ؟ عرفت المعنى ؟

هذا الصغير يواجه الحياة الجامدة الباردة وحده ، وليس وحده تماما ، فهو مع والده وله خطة ، وله هدف . وهذا القرار الذى صارحك به قد تم بعد مناقشة يومية . .

وجاء صوت فى داخلى يقول : الق نظرة على المسرح الذى أمامك . . انظر . .

ونظرت : ميدان واسع من الجليد والمصابيح على جوانبه كأنه غابة فقد تغطت بالجليد . . وإلى جوارها أشجار كأعمدة النور لها أغصان وليست لها أوراق . . وقد ادخرت طاقتها . . تماما كما تنطفئ الأنوار فى بيت . . أى أنها ادخرت الطاقة الكهربية . . لإطلاقها عند الضرورة . . ووسط هذا الميدان كشك خشبى لبيع الصحف . . وليس خاليا ، بل صحف ومجلات جاءت من العواصم الأوروبية . . أتت بها الطائرات والقطارات والسيارات تحمل أخبار الدنيا عبر الأسلاك الكهربية والمطابع . . وهى نتاج العقل الإنسانى ـ كلها جاءت تصب فى هذا الكشك الذى يديره طفل صغير . . تمتد أصابعه التى اختفت فى قفاز . . وأمد أنا ذراعى إليه . . والتقط الصحف . . إن للطفل طرطوراً أحمر قد استقر على رأسه وأذنيه . . ومن تحت الطرطور وجه أبيض أحمر وعينان زرقاوان . . وقد انتفخ فقد غطته أمه بكل الملابس الثقيلة . . وهو فى مأمن تام من البرد . وهو يقف على رزمة من الصحف والمجلات . . وقبل أن أقول له : اسمك إيه .

قال لى : أنت إسمك إيه ! آليس !

قلت له : أنيس .

قال : آنيش ..

ـ أنيس ..

ـ يعنى إيه ؟

ـ وأنت إسمك إيه ؟

ـ فريد ريش .

ـ يعنى إيه ؟

ـ لا أعرف ..

ـ وأنا أيضا لا أعرف .

ـ ولكنك أنت كبير .. وأنا صغير ..

ـ وأنت عندما تكبر سوف تجد أن فريد ريش ليس له معنى . وماما اسمها إيه .

ـ اسمها هيلجا ..

ـ وبابا اسمه إيه ؟

ـ هوفمان .

ـ إذن أنت اسمك فريد ريش هوفمان .. وتريد أن تكون ماذا عندما تكبر ؟

ـ مش عارف ..

ـ ماما تريدنى أن أكون مهندسا ، ولكن والدى يريدنى أن أكون موسيقيا ..

ـ تحب الموسيقى ؟

ـ نعم ..

وتعزف على ماذا .

ـ على هذه ..

واختفى فى الكشك .. دقيقة .. دقيقتين .. ثم أخرج كماناً صغيراً .. ورفعها إلى أعلى . وقال : هذه هى الآلة .. وبابا يريدنى أن أكون فى الأوبرا .

ـ وهل ذهبت إلى الأوبرا ؟

ـ كثيرا مع بابا . .

ـ ومع ماما ؟

ـ لا . . لا . . ماما . . لا تريد أن أتعلق بالموسيقى . .

ـ لماذا ؟

ـ لأنها لا تحب خالى .

ـ وهل هو عازف موسيقى .

ـ لا . .

ـ إذن لماذا لا تحبه . .

ـ هل هو متزوج ؟

ـ لا . . ولكنه سوف يتزوج واحدة تعزف الكمان فى الأوبرا . . وهو الذى اشترى لى هذه الكمان . .

وظهر من وراء الكشك رجل تغطى بكل الملابس الضرورية وفى فمه سيجارة واقترب منى ليقول : صباح الخير . . الولد وجع دماغك . .

ـ لا . . إنه لطيف جدا . .

وبسرعة قال له فريد ريش : أنا أعطيته الصحف التى يريدها لأنه وعدنى بأن يبقى معى حتى تجىء . .

وضحك الأب والطفل وأنا . . وهززت رأسى مستأذنا . وعدت إلى الفندق . وأنا أستعيد هذا المنظر : الأب والطفل وكشك الصحف والموسيقى . . والجليد . . الذى تربع عليه : طفل وأبوه . أسرة . حياة . هدف . معنى . إصرار . إرادة . إرادة حياة . أقوى من البرودة والجليد !

غريبة . . هذا الطفل أمه اسمها هيلجا وأبوه اسمه هوفمان . . وهذه الصديقة الجالسة معى مستغرقة فى قراءة الصحف اسمها : هيلجا هوفمان ؟!

وأطلت بوجهها من وراء الصحيفة . . وفنجان القهوة الساخن فى يدها . له بخار كأنه معلق من السقف تريد أن تقول شيئا . . ماذا رأت . . ماذا وجدت . . ماذا اكتشفت اليوم . . ثم اتجهت بكل وجهها تسألنى : لا تزال عند رأيك تريد أن تترك العمل الصحفى . . هل وجدت شيئا يؤيدك فى هذا القرار أو وجدت ما يدعوك إلى شىء آخر . . فما هو ؟

وضحكت . وأشرت بيدى بما معناه : بعدين . . ليس الآن !

وعادت هيلجا إلى صحيفتها وهى على يقين من أننى سوف أقول لها كل شىء وسوف أستمع إلى حكايات وروايات وقصص من القديم والجديد تؤيد وجهة نظرها . والكلام معها متعة . والاستماع إليها متعة . وأن أراها دون أن أقول ودون أن تقول متعة . فعندما لا تتكلم هيلجا فكل شىء فى وجهها يقول : عيناها اللامعتان . . تضيقان وتتسعان . . وترسل أضواء تكتسحنى . . عينى وأذنى ورأسى . . ودون أن تنطق بكلمة واحدة . وتساعدها شفتاها على التعبير . . فهى تفتحهما . . ثم تباعد بينهما . . ولا تقول . . وتسوى شعرها وتعيده إلى الوراء . . فشعرها على وجهها وعينيها . . إضافة جميلة إلى جمال وجهها . .

وكما هى عادتها تقول : تشرب قهوة ؟

وأهز رأسى . وتطلب لى قهوة ولها أيضا . ولا تقول شيئا . ولا تدفعنى إلى الكلام . مادمت لا أريد . . ولكنها تحب ما تعمله . . تقلب فى الصحف والمجلات أو تخرج ورقة من حقيبتها . . تقرؤها أو تكتب كلمة أو سطرا . .

وفى سيارتها وتحت شجرة . وقفنا .

وقالت : الآن أريد أن أسمع منك ماذا رأيت . . ماذا سمعت . . ماذا قررت . . فإن قلت أنك ما تزال حائرا . فمعنى ذلك أنك قررت . . وقرارك هو : سوف أنتظر بعض الوقت . أى أن تبقى فى عملك الصحفى شهرا . . عاما . . فهذا قرار . . فهل هذا قرارك . .

قلت : نعم . . فما رأيك أنت ؟

قالت : أنا لا أحب هذا الأسلوب . فأنا أقرر . وأمضى . . أو أقرر ألا أمضى . وليس هناك وقت للتردد . إما هذا وإما غيره . . انتهى !

ـ نحن نتناقش بهذه الصورة من وقت طويل .

ـ إنها غلطتك . أنت لا تقرر وأنا أسايرك ولا أفرض تصورى على حياتك .. أنت قررت ألا تقرر وأنا قررت أن أقرر وأحسم ، وأضع نقطة فى نهاية السطر .. أما أنت فكل عباراتك بلا نقط فى نهايتها .. كلها عبارات لا تتم .. مثل كثير من مدارس الفن التشكيلى .. فالفنان يترك الخطوط ناقصة ليكملها المتفرج .. ولكن لا أظن هذا هو أسلوب الكتابة .. أو الشعر أو الفلسفة .. فكأنك عندما قررت أن تكون أديبا اخترت أن تكون رساما .. وأمامك مشكلة صعبة جدا هى أن تقنع الناس بأنك رسام وأن كلماتك خطوط وأنها لذلك ناقصة ، هل فهمت ما أقول !

ـ نعم ..

ـ هل هذا بالضبط ما تريد ؟

ـ لا ..

ـ إذن ..

ـ أنا عندى مشكلة .. وهى أنه ليس أمامى طريق واحد .. وأنا فى مفترق طرق .. ميدان تصب فيه شوارع كثيرة .. وقد مشيت مسافة صغيرة فى أحد الشوارع .. ثم رحت أتلفت ورائى أنظر إلى بقية الطرق التى لا أعرفها ..

ـ وتريد أن تجربها كلها .. وتمضى فى كل طريق عشرين خطوة .. هل عندك فكرة كم عمرك فى هذه الدنيا .. فلا أنت نوح ولا ميتوشالح ولا أنت من أهل الكهف تبقى نائما مئات السنين . الحياة أقصر وأسرع وهى لا تنتظر أحدا .. إننى أفضل أن أمضى بسرعة وأغلط على أن أتوقف وأتجمد وأذوب .. أفضل أن أحطم الجوز واللوز بأسنانى حتى لو تكسرت أسنانى .. على أن أسفها بودرة دون أن استخدم أسنانى ..

ـ أنت على صواب ..

ـ ليس هذا هو التعليق الذى أنتظره .. أنت تريد أن تصدنى .. أن تسكتنى حتى لا أناقشك .. ولكن المهم ليس رأيى ولكنه رأيك .. حياتك .. مستقبلك .. قل شيئا له معنى .. الآن .. وهنا .. وقبل أن نفترق .. حالا . قل ..

ـ قلت .

ـ ماذا قلت ؟

ـ غدا آخر موعد . . آخر كلام .

ـ هذا كلامك . . قرارك . . هذا غدك . . أما أنا فليس لى غد . . فغدى كان بالأمس . وفى العام الماضى . لقد قلت وقررت . وأنا ماضية فى طريقى الذى حددته,واخترته من سنوات . .

ـ . . . . . .

وفى فراشى الدافئ . . الساخن . . جلست ملفوفا فى الأغطية . . وكأننى من أبناء الاسكيمو . . مع أن جو الغرفة لا يحتاج إلى كل هذه الأغطية . . فبدأت أنزع اللحاف والبطانية . . والطاقية . . وجلست فى منتصف السرير . . ثم تمددت . . أحاول أن أرتب أفكارى . أن أربطها بعضها ببعض . . فقد كانت مثل أغنام فزعت من الذئب وغابت عنها كلاب الحراسة . . أو كأنها مجموعة من العصافير قد وقفت على أسلاك التليفون . . أو على إحدى الأشجار . . ثم اقترب منها طفل فى يده نبلة . . فطارت . . وأنا أريد أن أعيدها كلها إلى أماكنها على أسلاك التليفون أو على أغصان الشجر أو أسوق الأغنام إلى حظيرتها . . لم يكن الأمر سهلا ، ولكن من الضرورى أن أفعل ذلك . . وإلا كان الحديث مع هيلجا من طرف واحد . .

هى لا تحب ذلك ولا أنا . .

وفجأة تذكرت موعدى مع صديقى ويلسون الذى درس الفلسفة معى . . ولكنه اختار أن يكون راهبا فأمه فرنسية ولذلك اختار الرهبنة فى أحد الأديرة بالقرب من باريس . . وكلما تذكرت ما دار بينى وبينه من حوارات فلسفية جددت إعجابى بوضوحه الفلسفى . . وكنت أقول له : طبيعى فأنت أحد أحفاد الفيلسوف ديكارت الذى اختار ضوء العقل ونور المنطق .

وقد تغيرت ملامح ويلسون تماما يوم رأيته من شهور . . ازداد بياضا ووضاءة

واستقرارا . . وكنت أدهش وأسأله : أين كانت كل هذه الألوان التى أراها على وجهك . أين كان كل هذا الصفاء والنقاء والبهاء . من أين جاءت إليك ؟ ما الذى قلت لنفسك . . ما الذى فكرت فيه . . ما طعامك ما شرابك ما عمق نومك : قل لى يا ويلسون كيف ؟

ـ أنا أعرف . . أنا عرفت بالضبط ما أريد . .

ـ منذ متى ؟

ـ ربما منذ الطفولة . .

ـ كيف ؟

ـ أنا أعرف أن أبى تركنا وهرب ، ويقال مات ، وأبى وأمى التقيا صدفة فى باريس وتزوجا بعد لقاء دام أسبوعا ، وقبل أن أولد مات أبى . وربتنى أمى . . وأمى وحيدة فى هذه الدنيا . وعندما تخرجت فى الجامعة أعطتنى أمى الثروة التى تركها والدى . وقالت لى : الآن أنا وأنت وصلنا إلى نهاية طريق . يجب أن ننفصل . أنت إلى مستقبلك وأنا إلى حلم حياتى . .

ـ وما حلم حياتها .

ـ ألا تعيش .

ـ كيف ؟

ـ أن تذهب إلى الدير تصلى وتتعبد . فلم تفكر يوما أن تعمل ، فقد عاشت مدللة ، ولما تزوجت والدى كان ذلك مخالفا تماما للخطة التى وضعتها أمها وأبوها . ولذلك حرماها من الثروة . ثم إن أبى مختلف عنها مذهبيا . هى كاثوليكية وأبى بروتستانتى . وهذه كارثة بالنسبة لوالديها . وكانت تحب أبى حبا شديدا . ورفضت الحب بعد اختفائه . ورفضت الزواج . . تماما كأنها بنيلوبى فى ملحمة هيرمروس والعرسان يدقون بابها . وهى ترفض حتى عاد زوجها وقتلهم جميعا ، ولكن أبى لن يعود . وأنا تعلقت بأمى فلم أر غيرها . كانت أمى وأبى وأخى وأختى وخالى وخالتى . . كانت كل الدنيا . ولم ترفض لى طلبا واحدا طوال حياتى . . فكيف أرفض أمل حياتها . . بل إننى صارحتها بأن أمل حياتى أيضا

أن أكون راهبا . فلا أم ولا أب ولا أخ ولا أخت . . وتعانقنا وافترقنا . هى تعرف أين أنا ، وأنا أعرف أين هى . . ولقاؤنا مرة كل أسبوع هو أمتع مشهد يراه الرهبان والراهبات . . فأنا لا أكاد أرى أمى أو ترانى حتى نعيش فى عناق طويل نبكى فى صمت . . ونذوب . . ونشعر بأننا قد متنا وانتقلنا إلى الجنة . قد وعدوا أمى بأنها إذا ماتت فسوف يقيمون لها قبرا فى نفس المكان ، ووعدونى إذا مت أن يدفنونى معها فى نفس القبر . . رمزا للحب الصافى . . أم وابنها . . ولكنى لا أنصحك أن تكون راهبا . . فلا رهبان فى الإسلام . . وظروفك غير ظروفى . . فأنت عندك كل شىء ليس عندى . . أبوك وأمك وأهلك وأخوتك وأنت واحد من الأغلبية فى مصر وفى العالم العربى . . وأنت تعرف عدة لغات . . وأنت متفوق وعندك موهبة . . فكيف تخلع كل هذه الأدوات عند باب صومعة . من أجل ماذا ؟ إن قرارك هروب . . هروب ليس سببه أنك جربت وفشلت . فأنت لم تجرب . وأنت لم تفشل . وأنت تفتعل العزلة . . فأنت تقتل كل الذين حولك لتكون وحدك . . إنها تضحية كبيرة جدا . . ثم إنك لم تقتل أحدا . . وإنما أنت تقتلهم فى داخلك . . تتوهم ذلك وتصدقه . . أى أنك تبنى صدقك على أكاذيب من اختراعك . . فأنت الآن تصدق أكبر كذبة وهى أنك وحدك فى هذه الدنيا . . لا تفعل ، ولا تفكر لحظة فى أن تفعل ، ولكن . .

ـ ولكن ماذا ؟

ـ عندنا وقت لأن تذكر كل الذى كان ويكون وسوف يكون . .

وتركنى وذهب للصلاة . . وتركنى فى قمة السعادة والنشوة ، فأنا أحبه وأصدقه ، وأندهش إلى غير نهاية كيف تحقق له كل ذلك . . فلم نكن نعرف عنه هذه الأعماق الصافية . ولا قال لأحد منا أنه يتيم . ولا قال لنا أين أبوه . ولا ماذا قرر صغيرا ، ولا ماذا قررت أمه وهو كبير . . وكنت قد نسيته تماما ، لولا أنه هو الذى دعانى لكى أزوره . وأعطانى عنوانه . ولم أتصور أنه دير . ولذلك مررت عدة مرات أمام الدير دون أن أدق الباب وأسأل . وظننت أنه أخطأ فى كتابة العنوان . . فقد كان لا يفيق من الخمر . . فلعله كتب العنوان وهو مخمور . .

وتذكرت يوم اللقاء فى حديقة صغيرة . لبيت إحدى قريبات أمه . إنها سيدة لطيفة عجوز ، جميلة ، أو كانت جميلة جدا ، جاءت سلمت . وقالت لى : إنك

أعز الناس عليه فى هذه الدنيا . إنه حدثنى عنك كثيرا يا ولدى . فلا تكن قاسيا على الذين يحبونك . تعال إلينا كثيرا يا ولدى . . إننى أدعوك إلى بيتى . . تعال يا ولدى . . فالصديق المخلص المحبوب قليل فى هذه الدنيا . .

والتفتت وراءها لتشير إلى كلبها : لم يبق لى إلا هذا .

وضحكت . وتركتنا . .

واتجه ولسون الذى تغير اسمه إلى (الأخ أبيلار) . .

اقترب منى أكثر . وقال : جاء دورى أن أحدثك . . أن أتحدث إلى عقلك وقلبك . فقد تدربنا على هذا النوع من الحديث . . أن أحدثك بكل ما لدى من قوة إلى كل ما لديك من قوة . . أنا أعرف بالضبط ماذا تريد . . قلت : كيف عرفت ذلك ؟

ـ أقول لك ـ منذ أيام كان هنا الأب قنواتى . . صديقنا العزيز وأستاذنا . . أنا لا أنسى كيف كنا نتردد عليه معا ونزوره فى (الدير الدومنيكى) فى شارع مصنع الطرابيش بالعباسية . . قال لى كل شىء . . وأنا سوف أقول لك . . أنت تخاف أن تبعدك الصحافة عن الفلسفة . . أنت تدربت على الفكر الفلسفى . . ولم تتدرب بعد على الحياة الصحفية . . أنت تريد أن تظل أديبا وفيلسوفا . . أنت تستطيع . لقد استطاع أستاذنا جميعا جان بول سارتر . . فقد عمل بالصحافة وكانت عبارته جميلة جدا . . فى القصة والرواية والمسرحية والدراسات الفلسفية . . واستطاعت أيضا صديقته سيمون دى بوفوار . . وكذلك استطاع الفيلسوف الفرنسى جابرييل مارسيل والفيلسوف الأسبانى أوتاموتو . . والفيلسوف الإيطالى روجيرو . . ولم يستطع الفيلسوف الألمانى هيدجر . . والفيلسوف النمساوى فتنجنشتين . . ولم يستطع الفيلسوف الروسى سيمون فرانك . . ولم يستطع أستاذنا د . عبد الرحمن بدوى . . أنا أعرف بالضبط ماذا تريد . . أنت تريد أن تفلت من قبضتى العقاد وعبد الرحمن بدوى . . ولكنك استطعت . . أنا قرأت لك بعض ما نشرت فى (روزاليوسف) . . أنت استطعت فلا تخف . . أنت لك دور . . ولكن أنا ليس لى دور . . أنت دورك اجتماعى . . أنا ليس لى دور اجتماعى ولا حتى دينى . . وإنما قد جردنى المجتمع من كل جذورى . . فأنا غير قادر على أن أغرس جذورى فى أرض مصر . . ولا حتى فى أرض فرنسا . .

فإما أن أطفو فى كل اتجاه . . وإما لابد أن أغرس جذورى فى أرض أختارها لكى أعيش فيها وبها وعليها . . وأنا اخترت . واخترت ما أقدر عليه . وقدرت . وعرفت معنى صدق الهدف ، ومعنى وضوح الطريق ، ومعنى الرضى ، فالوضوح أراحنى والرضا أسعدنى . . فهذه الراحة (الرواء والبهاء) ـ كما تقول ـ هما كوكتيل القرار السليم والقناعة . بس . إن أساتذتنا الفلاسفة الوجوديين لم تأكلهم الصحافة . لم يحطمهم العمل اليومى . . أو (المياومة) . . أو التبذل اليومى . . أو الابتذال اليومى . . أو التهتك الصحفى ـ كما يقول أستاذنا سارتر . فالصحف كانت فترينة يقدمون فيها إبداعهم ويعلنون عن أنفسهم . . فهم عابرون . . لم يقيموا فى المؤسسات الصحفية . . وأنت لديك كل ما يجعلك فى مأمن من غول الصحافة . . فأنت قلق . . وأنت متدفق . . وأنت صاخب . . وأنت عاصف . وأنت ترفض القوالب . . وأنت لا تكف عن القراءة . . وأنت من أجل الكتاب عندك استعداد بأن تضحى بأى شىء وأى أحد . . وأنت اخترت الفلسفة الوجودية . . وأنا كنت أقول للأب قنواتى : إن الوجودية هى التى اختارتك لسانا معبرا ونموذجا بليغا لكل ما فيها من قلق وحيرة وشك وتعظيم للإرادة مع تهوين للمادة والوظيفة . . ثم إن أباك مات . . وعندك أمك . . ولو كانت أمى على قيد الحياة لتغير وجه تاريخى . . ولكنها اختارت الحياة موتا أو الموت حياة . . وأغلقت فى وجه الدنيا وفى وجهى نوافذ صومعتها . . لا تقاطعنى . . أنت نسيت أنك أنت الذى قلت لأمى : اذهبى إلى الدير . . هل نسيت . . وقلت لى أنا أيضا : اذهب إلى الدير . . أنت الذى قلت . . أنت الذى دفعتنى وأمى بعيدين . . أنت . . هذا ما ذكرنى به الأب قنواتى . . كيف نسيت كل ذلك ؟!

دوخنى الأخ أبيلار . . فقد هزنى بعنف ، وأبعدنى وأدنانى . . وغيبنى فى بطن الأرض ، وأطاح بى إلى السماء . . وأنزلنى بمظلة الأمل والرقة . . فكان هبوطى ناعما على أرض كأنها القمر . . الذى له جاذبية ضعيفة . .

قلت : اسمع يا أبيلار . .

ـ يا أخ أبيلار من فضلك . .

ـ اسمع يا أبيلار . . هل تعرف أن موت والدى هو الذى لخبط حياتى . لو عاش سنة أخرى أو سنتين لكانت الدنيا تغيرت . . فأنت تعرف أن والدى مات يوم

تخرجت فى الجامعة . فى هذا اليوم أحسست أنه يجب أن أعمل فورا . . قررت ذلك . . ربما كان هذا هو القرار الوحيد الواضح القاطع فى كل حياتى . وقد وجدت العمل ، وإن كنت لم أجد نفسى فى هذا العمل ، ولم يكن المطلوب أن أجد نفسى ، وإنما المطلوب أن أجد عملا . . أى عمل . . فلا معنى لأن أتفرغ للفلسفة . . للبحث والدراسة كما كنا ونحن نتمشى فى شوارع المنصورة وإمبابة والزمالك . وكل واحد منا يحلم بأن يكون له مكان فى الأزهر . . حتى أنت فى ذلك الوقت قررت أن تتحول إلى الإسلام . . هل تذكر ذلك . .

ـ لقد كان الدين هو الذى يشغلنى . . لقد كانت السماء هى التى سحبتنى من الأرض إلى فوق . .

ـ هذا صحيح . . فقد كنت مختلفا . . وأعود إلى قرارى . . وقد تسللت إلى الصحافة عن طريق الأدب والشعر والفلسفة . . وعندما عملت كان فى الصفحة الأخيرة . . أكتب القصة . أو أترجمها . . أو أتحدث عن الأدباء والشعراء والفلاسفة والموسيقيين . . فالصفحة الأخيرة لا علاقة لها بالصحيفة كلها . . إنها مختلفة . . وهى فاكهة الصحيفة . . ونحن ننظر إلى بقية الصفحات من فوق . . وبقية الصفحات ترى أننا متخلفون . . لأننا نجىء فى آخر صفحة . . والصفحة السابقة علينا هى صفحة الوفيات . . وكان الزملاء يسخرون عندما أكتب عن الذين ماتوا من الأدباء . . وكانوا يرون هذا طبيعيا فالصفحة السابقة قد (نشعت) . . أو نفذت إلى الصفحة الأخيرة . . فصفحة الوفيات قد زادت صفحة !! وكانوا يقولون : إننى عزرائيل الأدباء والفنانين . . وهم يضحكون . . وأنا أيضا . . مع أنه لا شىء يضحك . . فإننا نعيش على رقاب الموتى من الساسة والمفكرين والعلماء . . ونحن نعيش بعد آبائنا الذين ماتوا . . ولولاهم ما كنا . . ولكن الناس ينسون ذلك من أجل تركيب نكتة أو قفشة . . وكنت أتخيل أننى سوف أتفرغ للدراسة اعتمادا على والدى . الذى جاء موته قاطعا لحبال تفكيرى وريش خيالى . . وقاطعا لطريقى . . بل إن موته أيقظنى . . ضربنى فى دماغى . . قفز بى من الأرض إلى أرض غريبة . . أرض ليست فى حسابى . . ولم أتنبه إلى أننى وجدت عملا فى وقت قصير . . ونسيت ذلك . . ولم أتذكر إلا أننى قد وقفت فى أرض غريبة . . مع أن المهم هو أننى وجدت أرضا ومكانا ومالا . . واكتشفت فيما بعد أن موقفى الرافض هذا أكبر دليل على نقص تجربتى وعدم فهمى للواقع . . وعدم واقعيتى . .

مع أن موت أبى كان الفرصة المناسبة .. كان البداية المؤكدة لواقع جديد .. ليقظة .. لنضج .. لترسخ قدمى على الأرض وفى الأرض .. وأنه ليس صحيحا كما كنت أتصور مع الفيلسوف الألمانى نيتشه أننى نسر يعيش فى قمم الجبال .. قمم البراكين .. أعيش فوق النار تحت الدخان أهتز .. أتزلزل .. وأزلزل الدنيا من تحتى ومن فوقى .. لقد صدقت ذلك .. مع أننى لا نسر ولا براكين هناك ولا زلازل .. وإنما هى صور بلاغية قوية جميلة أخاذة جذابة .. فقط .. فأنا لست إلا طيرا داجنا ، وجد الأرض تحت قدميه .. واستخدم منقاره وقدميه لأول مرة .. وأنه قد عفر رأسه وعينيه فى تراب إمبابه وشارع التنهدات .. وهو يصعد السلالم إلى مكتبه يشم رائحة الحبر الأسود والبنزين والرصاص .. كل يوم حتى ألف هذه الرائحة ، بل كان يشمها عند أول الشارع مع أنه من المستحيل أن يشم ذلك إلا إذا كان له أنف قط أو ذئب .. ولكن الرائحة التصقت بأنفى .. أو المعانى التى فى رأسى لها لون الحبر ورائحة الرصاص والبنزين .. شىء غريب لقد كان صاحب البيت الذى أسكن فيه أمام مسجد السلطان أبو العلا صاحب محل عطارة .. أى فلفل وكمون وشطة .. فكان إذا نزل فى طريقه إلى دكانه يمتلىء الجو برائحة العطارة .. وكنت أعطس أول الأمر .. وكنت أتفاداه إذا رأيته حتى لا أعطس وراءه نازلا أو صاعدا .. فكنت فى الدور الخامس وهو فى السادس ولم يكن هناك أسانسير .. ثم اعتدت على الشطة ، كما اعتدت على الرصاص .. وكان نهارى ومسائى غارقا فى الروائح .. فكل شىء له رائحة ..

ودخت فى هذه الذكريات عندما جاءت خالته تطلب إليه أن يرد على التليفون . وتركتنى وحدى . وأحست أن من واجبها أن تجلس معى .. وجلست . وقالت لى : كيف الأخ أبيلار تلميذا .. وكيف كان زميلا وصديقا . إنه حدثنى عنك ، ورأيت صورك قبل أن أراك . وحدثنى عن علاقته بوالدتك .. وكيف كان يعاكسها .. حتى غضبت فى إحدى المرات عندما أتى بواحد قسيس وقال لها : هذا عريسك الذى اخترته لك .. هاها .. هاها .. حكى لى كل شىء عن حياتكما فى القاهرة وقبل ذلك فى المنصورة .. وحكى لى كيف أنك وهو كنتما تساعدان صديقا لكما فى الوقوف فى دكان طعمية وفول ، وكيف أنك تخصصت فى صناعة الطعمية وهو تخصص فى الفول والصلصة والباذنجان وكيف أنك تركت المطعم عندما عرفت أن لصاحبك أختا ، وأنها كانت تحبك أو تقول ذلك .. وأنها

تريدك أن تتزوجها . . وأنك هربت ولم تعد . . فقد كنت فى ذلك الوقت تفزع من كلمة الزواج . . صحيح . .

فقلت لها : لم يترك الأخ أبيلار سرا من أسرار حياتنا . . لقد كنا صغارا ، وكنا نرى الدنيا أصغر منا . . فكل شىء نراه قريبا سهلا ، ولما تخرجنا فى الجامعة تعلمنا أن نرى أنفسنا أصغر من الدنيا . . فكل شىء كبير . . وكل شىء صعب . ونحن صغار عاجزون عن حل المشاكل . . وأن الفلسفة علمتنا أن نقدس علامات الاستفهام والتعجب . . نقدس الأسئلة والمشكلة والحيرة والقلق والفزع . . ولا نعرف أين الإجابة والحل والراحة . .

ثم أشارت إلى أن ندخل معا . . وقالت : إن الأخ أبيلار قد اتجه إلى الدير لأمر هام . . وأنه سوف يرانا غدا وفى نفس المكان ، وأنه سوف يأتى ببعض زملائه الذين يريدون أن يعرفوك .

وعدت إلى الفندق . .

وفى الطريق دارت رأسى . ودارت حولها الأفكار والآراء . . والدهشة والحيرة . . وشعور فظيع بالخجل من نفسى . . وكيف أننى هكذا أقمت تمثالا من الرخام لعلامة الاستفهام ، ولم أفكر لحظة واحدة فى أن أقيم معبدا لليقين أو الحقيقة . . كيف أننى أدور حتى أدوخ حول هذا التمثال الطويل الذى يتطاول ويلقى بالطوب والحجارة فوق دماغى ذهابا وإيابا . . كيف أقيم هذا الصنم ، وكيف أننى أخر له راكعا ساجدا . . ثم أسمى هذه فلسفة . . أو أسمى هذا فكرا مثيرا . . وكيف أننى أجد متعة فى العذاب والحيرة . . وكيف أن هذا موقف طفولتى . . وأننى اخترت لى أما اسمها الحيرة وألقيت بنفسى على صدرها أرضع ولا أطلب فطاما من كل ذلك . .

وقررت . . أن أكون حاسما مع هذا الطفل فى داخلى . . بل وفى خارجى أيضا . .

واتصلت بالأخ أبيلار تليفونيا ودعوته إلى القاهرة . فوافق . ووجدت المسافة قصيرة جدا من الفندق والمطار ومن باريس والقاهرة ، ومن البيت ومكتبى . . وتمنيت لو كل الصفحات التى كتبتها ووضعتها فى الدوسيهات ورائى وأمامى تتحول إلى أكف وتنهال كلها ضربا على القوقعة الزجاجية التى حشرت نفسى فيها . .

ومددت شفتى إلى الأمام وفى خيالى صورة الكتكوت الذى يخرج من

البيضة . . إنه فى وقت محدد ينقر البيضة من الداخل . حتى يكسرها . . ويطل برأسه ويشم الهواء لأول مرة . . ثم يمضى فى تحطيم القشرة . . القوقعة . . الصومعة . . المعمل . . ويخرج إلى الدنيا وحيدا تماما . . وبسرعة ينقر الأرض ويتوازن . . وينقر الأرض ويتوازن . . ويمشى متزنا . . لقد بدأ الحياة بعد دقائق . . وكذلك تفعل كل الطيور . . وكل الحيوانات . . إنها جميعا صاحبة طفولة أقصر من طفولة الإنسان . . وكل الذى تفعله بسرعة شىء إيجابى تماما . . لا دهشة . لا حيرة . لا فلسفة . بل هذا الذى تعمله هو صميم الفلسفة والحكمة . حكمة الحياة والكون . . كلها تتوهج فى لحظات قبل أن تخرج إلى الدنيا وبعد لحظات من خروجها إلى الدنيا والاستمرار فيها . .

وعدت إلى البيت أخف وزنا . . وسألتنى أمى : أنت سعيد يا ابنى . . إن شاء الله دائما . . الحمد لله على سلامتك كنت قلقة عليك . . ماذا فعل صاحبك بعد وفاة أبيه . .

وكنت قد قلت لها فى تفسيرى لضيقى وقرفى أننى ذاهب لكى أقدم واجب العزاء إلى صديق كان زميلا فى الدراسة . .

ولم تكن أمى تعرف أننى أمشى فى جنازتى . .

فى جنازة إرادتى وقرارى . .

وأننى كنت أحمل فى أحشائى يأسا وقرفا . .

وأننى كالحامل فى اثنين وثلاثة وأربعة . .

واكتشفت أنه حمل كاذب . . وأننى الذى أقول عن نفسى ذلك . وأننى أهول فى مشاعرى وأوهامى . .

وأننى عقبة فى طريقى . . ومستقبلى . .

وأننى لابد أن أنقذ نفسى من نفسى . . وأن أتخفف من أعبائى وأثقالى . . وأننى فعلت . وسوف أمضى . وكفى ما كان من أجل ما سوف يكون . .

وليكن ما يكون !

أبكي يا سيدتي
على كل شيء وكل أحد!

(١)

طريقى فى أى وقت يمر بالمكتبات . . فوراء جريدة (الأساس) توجد مكتبة د . هـ . سميث . . فى شارع قصر النيل مكتبة (الكتاب الفرنسى) ومكتبة هاشيت وفى شارع عماد الدين مكتبة الأنجلو . . وفى شارع ثروت مكتبة النهضة . . ولم يحدث أن مررت على مكتبة دون أن أتوقف عند الفترينة حتى لو كنت قد فعلت ذلك صباحا أو مساء . . أو بالأمس . . إنها عادة ثم أن أصحاب المكتبات يغيرون وضع الكتب ويعرضون الجديد ويتفننون فى ذلك . . وهى فرصة لكى أعرف من الذى يجلس داخل المكتبة من الأصدقاء . . وكل أصحاب المكتبات أصدقاء . .

ومددت يدى إلى جيبى ووجدت ورقة فيها عنوان : فريد صدقى بلدياتى وزميل الدراسة وأمى تقول أننا أقارب . ولم أسأله يوما إن كنا أقارب فنحن أصدقاء . . أكثر من أقارب . . وهذه الورقة نقلتها من بنطلون إلى جاكت إلى بنطلون ولم أحاول أن أذهب إليه . . ولا أعرف ما الذى يمكن أن يعمله . أسأله . . ولا بد أن له عملا تجاريا فأبوه تاجر وأسرته كلها من الفلاحين والتجار الشطار . . ولكن هل يترك

الفلسفة ويشتغل بالتجارة ؟ تجارة ماذا ؟ الكتب . . إن الفيلسوف اليونانى طاليس عندما عيروه بأن الفلاسفة أناس عاطلون بلا وظيفة إلا الكلام . . أكد للناس أن الفيلسوف من الممكن أن يؤدى أى عمل وينجح فيه . . وكثير من الفلاسفة لهم صناعات يدوية . . فهو كان يعمل فى عصير الزيوت . . واسبينوزا كان يعمل فى صناعة العدسات . . وفيثاغورس كان يعمل فى صناعة النبيذ . . أما الذين لا يعملون فهم الفقراء جدا والأغنياء جدا . . الفقراء مثل سقراط والأغنياء مثل أفلاطون وشوبنهور . . وبقية الفلاسفة أساتذة فى الجامعات . .

وأعدت قراءة العنوان . . ووقفت أمام مجموعة من الدكاكين الصغيرة . . ولم أجد أرقامها . . ووجدت سلما هابطا ونزلت أسأل عن الصديق . . عندما وجدته . . ورحت أضحك . وقلت : تصور لقد أردت أن أسأل عن عنوانك . . فلم تعطنى فرصة لكى أسأل عنك . ! ما هذا ؟ . .

ولم يشأ أن يقول شيئا وأنما أشار بيديه إلى الجدران . . فكلها : مرايا . . وصور . . وجوه جميلة لنساء وأطفال وحيوانات . .

قال لى : ماذا تشرب ؟

قلت : قهوة

– سادة ؟

– ولماذا سادة ؟ !

– عندى إحساس إنك أنت والعقاد وعبد الرحمن بدوى بتاعك تشربون قهوة سادة وتجعلون منها خبزا . . ثم تستحمون فيها . . تماما كالهنود الذين يستحمون فى طين نهر السند . . هذا مجرد تهيؤ اللهم اجعلنى غلطان !

ولم يجد صديقى عملا بعد . . ولكن والده قال له : أنت درست ما يعجبك . . وأنا سأجعلك تعمل ما يعجبنى . . أنت كنت سعيدا بالنظريات الفلسفية . . وأنا سوف أكون أسعد عندما تقف إلى جوارى فى صناعتنا . .

ثم أعطاه مفتاح هذا الدكان الصغير . . دكان الهدايا . إن هذا الدكان تجربة . . تجربة فى البيع والتعامل مع الناس . . فى محاولة إرضائهم . . أبوه هو الذى قال له :

عندك فرصة تغير لسانك . . لغتك . . فالزبون لم يأت لسماع محاضرة . . إنه جاء يريد سلعة . . مهمتك أنت أن تجعله يشتريها وهو سعيد . . وأنت تتعامل معه كأنه ملاك نزل من السماء . . وإنك سعيد جدا . . وتكون سعيد أكثر لو عاد إليك ومعه آخرون . .

المهم - هذا قانون والده - أن يكون إنسانا آخر . . ألطف . . أحسن . . أجمل . . . أذكى . . لا يهم أن يبيع . . ومن المهم أن يجعل الزبون سعيدا بهذا اللقاء . . وإذا سأله عن مكان آخر لبيع نفس السلع فلا يتردد . . إن هذا شيء غريب في بلادنا . . . فالناس لا يفعلون ذلك عادة . . ولكن الزبون سوف يقول في نفسه : إنك واثق من نفسك . . وغنى جدا ولست في حاجة إلى هذا الزبون . . ولهذه المعانى سوف يعود الزبون ويشترى من البائع الغنى ولا يشترى من البائع الفقير . فالمثل المصرى الذى يقول : الغالى ثمنه فيه . . هو قانون كل النساء . والمرأة هى الزبون الأول !

وجاءت القهوة السادة ووقف الجرسون يصبها ورأيت صديقى أوضح ، كان فى غاية الأناقة وفى غاية المرح . . أنه يبدو أصغر سنا وأكثر بهجة . . يعنى إيه ؟

أنا سألته . وكان رده : لهذه الأسباب التى ذكرها أبى . . أو يذكرها كل يوم دون ملل .

- يعنى إيه ؟

- يعنى مفيش فلسفة !

- ولكن هذه فلسفة أخرى !

- يجوز . . ولكن الفلسفة إياها التى تعلمناها ليس لها سوق ولا ثمن (وأشار بيديه إلى ما حوله) .

ورن جرس التليفون . وقال : عندى مفاجأة . . والله أكبر مفاجأة . . فاكرة زميلنا العزيز الذى يتعبك بفكره . . أنت قلت لى كذا مرة . . موجود هنا . . والله العظيم . . تعالى !

والتفت وقال لى : حظك من نار . . سوف تجىء حالا .

- من هى ؟

- توتو . .

- مين هى ؟

- مش عارف مين يا واد يا نمس . . توتو . .

- مين هى ؟

- التى ركبت لك زرار القميص ونحن فى امتحان الليسانس . .

- ياه . . ياه . .

- بتموت فيك . . اسمع أنا أريد أن أنتهز فرصة وجودك هنا . . وأذهب للبنك الأهلى . . وسوف أعود بعد ساعة . . والحمد لله . . لافيه بيع ولا فيه شراء . . والمطلوب منك أن تحاول أن تبدو كأنك صاحب المحل . .

وسكت ليقول لى : اسمع أنا عندى فكرة عبقرية . . ما رأيك لو حاولت أن تختار لكل صورة من هذه الصور اسماً . . أو تضع تحتها عبارة جميلة . . لأن هذه الصور ليست لها أسماء . . ما رأيك . . حاول . . ولن أغيب طويلا . . وإذا جاءت توتو . . فلن تشعر بملل . .

ونهضت أتفرج على المرايا . . مربعة . . . ومستديرة . . ووضعت يدى على واحدة كما فعل رفاعة الطهطاوى عندما ذهب إلى باريس لأول مرة . . ووجد أن هناك اختلافا فى مرايا باريس عن مرايا مصر . . فلما وضع يده إلى جوارها وجد لافرق فى اللون بين اليد وصورتها فى المرآة . . فقد كانت المرايا فى مصر تجعل لصورة اليد لونا أزرق . . ولاحظ الطهطاوى أيضا أن الإنسان إذا وقف أمام المرآة فى باريس فهى تجعله أطول أو أقصر أو مقوساً أو منبعجاً كالمرايا فى مصر .

وقد رأيت نفسى فى كل المرايا . . هنا الرأس . . والكتف . . وهنا العين . . وهنا الأذن . . فأينما اتجهت وجدت نفسى أو جانبا من وجهى ورأسى وجسمى . . رأيت الذى لا أراه . . أو الذى يراه الناس ولا أراه . . فأنا أرى نفسى بمرآة . . وأرى ظهرى بمرآتين . . شىء فظيع أن يتلفت الإنسان يمينا وشمالا . . ويقف ويجلس فلا يجد إلا نفسه . . إلا صورته إلا صداه . . إلا ظلاله . . أعوذ بالله . . كأن صديقى قد

حبسنى فى نفسى . . سجننى فى جلدى . . كأنه أراد أن يؤكد لى بذكاء : ما هؤلاء الذين يدرسون الفلسفة . . أنهم مثلى تماما الآن . . محاطون بأنفسهم . . معاقبون معذبون مضطهدون . . شىء فظيع أن تكون أنت مع صورك وظلالك فقط . .

ولذلك فكثير من الناس عندما يقف أمام المرآة ويضيق بنفسه وبغيره فأنه يحطم المرآة . . يحطم صورته فى المرآة . . ولا يحطم شيئا آخر . . وفى الأساطير الأروبية أن الذى يحطم مرآته ، إنما يحطم نفسه . . ولا يمضى وقت طويل حتى يصيبه شىء . . وفى بلاد الإنجليز ينصحون العروس ألا تنظر إلى المرآة ليلة زفافها ، حتى لا تحسد نفسها . . أو حتى لا تحسدها إحدى زميلاتها . . ولذلك ينزعون المرآة من غرف العروس أو يقلبونها ، وإن كانت بعض الأمهات تفضل تحطيم المرآة وراء الضيوف . . أنها تحطم صور صديقات العروس اللاتى نظرن إلى المرآة سرا دون أن تدرى العروس!

أما صور الفتيات على الجدران فألوان بديعة . . والمعانى مثيرة . . فهذه هادئة الجمال . . العينان الشفتان والصفاء والبهاء والرواء . . وهذه حزينة النظرة . . وهذه تحتمى فى شعرها الذهبى . . لقد جعلت منه غابة أو فروعا ووقفت تحتها تنتظر فى خوف . .وهذه طفلة : البراءة والجمال والسعادة . . أما هذه فنظرتها شخصية . . إنها صورة أعماقها . . ولا بد أن الرسام حاول إقناعها بأن تكون مثل كل الناس . . ولكنها رفضت ألا أن تكون نفسها . . فما هى . . عندها مشكلة . . ولم يفلح الفنان فى أن يحل مشكلتها . . ولا كان وقوفها الطويل أمامه قد ساعدها ولا أرادت أن يساعدها أحد . . فانتهزت فرصة جلوسها أمامه وراحت تستغرق فى حزنها . . فى شىء أكثر من الحزن . . إنها تريد أن تبكى . . ولم تستطع ولو تركها الفنان وحدها لبكت . . تبكى من ماذا ؟ لا أعرف . . ولكن لديها أسباب قوية لذلك . . انظر إلى شفتيها التى تضغط عليهما حتى لا تفلت صرخة . . أو آهة . . انظر إلى عينيها . . إلى الألوان حول العينين والشفتين . . انظر إلى الشعر الذى كان مسدلا على وجهها . ولكنها بحركة عصبية دفعته إلى ناحية أخرى من الوجه . .

وجلست أمام الصورة . . وأنزلتها من مكانها على الجدار . . ووضعتها أمامى . . وقلت : دعينى الآن يا سيدتى أترجم ما أراده الرسام . . أنقل الذى أردت أنت أن

تخفيه عن عيون وآذان الناس . . ولكنك لم تستطيعى . . آه لو أعرف من أنت . . ولكن الرسام يعرف . . وأنا أريدك أن تعرفى أننى أعرف . . إننى قرأت وسمعت وفهمت وأحاول أن أعبر عن ذلك الذى أمامى .

لم أر دموعا تتحول إلى عينين هما عيناك فقط يا سيدتى ! تمنيت أن أجلس إليك . . أن أتحدث معك . . أتأمل الذى تقوله ولا تقوله عيناك . . والدمع المحتشد وراء عينيك . . وراءك كلك . .

أمام عينيك يا سيدتى كأنى أقف أمام أكبر حاجز مائى فى الدنيا . . أمام أكبر قوة محركة فى التاريخ . .

لو كان لى أن أقول لك شيئا لقلت : ابكى يا سيدتى . . ابكى . . دعى الدموع هى التى تقول . . وقد قالت الكثير . . ولا أعرف كم من الوقت يكفى لأن تستريح عيناك . . وأن يستريح من ينظر إليك . .

والله لسبب لا أعرفه استقرت عيناك فى عينى . . إنهما مثل عينى جدتى . . وأن كانت عيناها زرقاوين . . وكنا – ونحن صغار – نخاف من النظر إليها . . مع أنها كانت فى غاية الرقة واللطف . . ولكن فى منتهى القسوة والعظمة . . . وعندما كبرت كنت أتعجب كيف تكون يدها لطيفة وعينها عنيفة . . كيف تكون لها لمسة يمامه ، ونظرة نسر . . وكنت اندهش كيف تتعايش اليمامة والنسر ، والحمل والذئب . . كيف أنها فوق كتفها متوحشة ، وفى يديها كل هذه الرحمة . . شىء عجيب أنها رقيقة الحاضر ، مجرمة الماضى . . ولقد عرفت بها ومعها ومن أجلها وبسببها هذا التناقض الممزق فى حياة الإنسان . . كانت تبهرنى : كيف تكون النار جليدا فى عينيها ، أو كيف الجليد جهنم فى عينيها ، وكيف تدينك عيناها وتبرئك يداها ؟

وبمنتهى الصراحة يا سيدتى ما كنت أستطيع أن أجلس فى مواجهتك . . فالذى عندى يكفينى . . فأنا أيضا أحمل ويلات وعذاب جيل . . ولست فى حاجة إلى أن أضيف إلى ذاكرتى نوعا جديدا من العذاب . .

أو لعلك ذكرتنى بصديقة إيطالية كانت جاءت من أقصى الجنوب من بلادها . .

التقيت بها وكان بيننا كلام طويل واختلفنا .. لقد أشفقت عليها أن تعيش معى فى بلد غريب وكانت غريبة فى بلدها .. أشفقت عليها أن تنتقل إلى غربة جديدة ..

قلت لها : يا استير ما حاجتك إلى واحد مثلى ؟

قالت : لا أريد غيرك ..

قلت : وأنا أريد غيرك .. فالحياة معك هى حياة فى بيت كل أحجاره قد اقتلعت من جدران السجون .. حرام عليك .. اذهبى بعيدا .. يكفى أن لك إقامة دائمة هنا فى العين وفى الذاكرة وفى القلب .. مهما ابتعدت فأنت هنا .. وهنا .. وفى (كل هنا) وفى (كل هناك) ..

وكانت تقول : مكتوب علينا العذاب .. وأنا أكمل ما بدأ أهلى .. أنا أحمل عذاب الملايين .. فكل خلية من خلاياى هى إنسان محكوم عليه بالإعدام .. ينتظر الإعدام ..

وأقول لها : أما أنا فقد شفيت من هذا العذاب يا سيدتى .. لم يشفنى أحد .. وإنما أنا تمددت ورحت أعترف لنفسى بجرائم لم أرتكبها .. وبهذه الاعترافات الطويلة شفيت من مرضى .. شفيت نفسى من نفسى .. شفيت حاضرى من ماضى .. من ماض لم أشارك فيه .. ارحمينى !

يرحمها الله .. لم أكن أعرف أن كلامى قضاء وقدر .. قلت لها : ارحمينى ..

فرحمتنى وماتت ! ولو كنت أعرف أن القدر هو لسانى لقلت لها : ارحمينى وعيشى هنا فى العين وفى الأذن وهنا فى القلب .. وهنا فى يدى .. فى أصابعى حتى لا أصافح أحدا من بعدك !

هل لأننى عندما كنت صغيرا وطلب منى المدرس أن أرسم وجها فرسمت عينين تبكيان .. وكانتا عينى جدتى فضحك منى المدرس وكل التلامذة عندما قال لى : ألم تجد فى الدنيا غير هذه الندابة !

والندابة فى مصر الحديثة والفرعونية هى السيدة التى تندب الفقيد وتبكى

وسط المآتم لكى تثير الحزن والأسى عند أقارب الفقيد .. ولو عرف هذا المدرس جدتى ، أو عرفته جدتى لكان هذا المدرس بلا ذراع أو بلا عين .. فقد كانت تضرب وأحيانا تهدد بالقتل .. وكانت شديدة الحساسية لكرامتها وكبريائها ..

متمنيا لك السلامة والسلام ، وقد سامحتك يا سيدتى المجهولة فارجعى الى مكانك على الحائط فلا ذنب لك فى هذا الذى أوجعنى بسبب هذه المعانى التى تتقلب وتتألب فى عينيك وفى نظراتك .. أنت طبعا يا سيدتى هل تعرفين أسطورة بنات الجورجون عند الإغريق .. واحدة منهن إذا نظرت إلى شىء صار حجرا .. فالدنيا كلها تتحول إلى أحجار بسبب نظراتها .. فكل شىء يموت ويتحول إلى تماثيل بلا حياة .. وخاف الناس منها وهداهم الخوف وحب البقاء إلى حل .. فقد أتوا بمرآة ووضعوها أمامها فنظرت إلى نفسها فى المرآة فتحولت إلى قطعة من الحجر . وانتهى الرعب !

وأنت يا سيدتى إذا نظرت إلى عينيك فى المرآة طويلا فسوف يريحك البكاء الطويل .. وذوبان جبال الجليد وراء جفنيك .. وهكذا تتخففين من هذا العذاب .. الذى يتدفق من أعماقك ..

إنه لشىء عجيب حقا .. كأن القدر أراد لك الحزن وحدك ، فلا ينتقل منك إلى أحد سواك .. فالقدر لم يكن فى نيته أن يجعل لك يدين وذراعين لتظلى أنت جبل العذاب الذى لا يذوب ولا يتبخر ـ منتهى القسوة عليك !

انظرى إلى مرآتك يا سيدتى فهى طبيبك .. فسوف يكون الشفاء منك بك .. صدقينى .. لقد جربت البكاء فأراحنى .. ابكى يا سيدتى .. حتى لا يبقى فى دموعك دموع .. ابكى يا سيدتى .. فالبكاء نعمة .. وقد أخطأ آباؤنا فى تربيتنا عندما قالوا لنا : إن الرجل لا يبكى ولا يصح !

بل يبكى ويجب أن يبكى .. وأن يبكى . ولك منى السلام .. ولك من نفسك لنفسك الرحمة !

وكأن صديقى عفريت ، فقد وجدته أمامى . قال : لم تضيع وقتك ..

قلت : أين توتو يا . .

- أين ؟ جاءت ورأت سيادتك غرقان تكلم نفسك وتتكلم مع الصور وتتفرج على نفسك فى كل المرايا من كل الألوان والأحجام قالت : الراجل اتجنن وهربت بجلدها . . أنا تركتك وحدك وأنت سعيد لذلك . . طبعا أنت طلبت من ربنا ألا أجىء . .

- أبدا . إن دكانك هو أقصى وأقسى درجات العذاب . . فأنا كنت أريد أن أهرب من نفسى فوجدت نفسى على الأرض وعلى الجدران وفى السقف . . إنه سجن اسمه : أنا . .

- والله فكرة . . أن تكتب على كل مراة : أنا . . أى أن كل واحد يرى نفسه فيها . . أو تكتب عليها : أنت . . أى أنك تقول لكل واحد هذا أنت . . فكرة . . طبعا أنت كتبت شعرا لكل هذه اللوحات الفنية . .

- نسيت أسألك من الذى رسم هذه اللوحات . . أو من هؤلاء . . وإن كان هما اثنان فقط . . واحد اسمه : ت . . والثانى اسمه : و .

- ولم تفهم ؟

- ولم أفهم ماذا ؟

- إنها توتو . . ما رأيك فى هذه اللوحة . . التى فى الركن . .

- لم أرها . .

- اقترب منها . .

- مالها . .

- مش أنت ده . .

- آه . .

- تماما . .

- ولكن . .

- ولكن ماذا . . أنت واحد عريان يخوض فى المياه وقد جاء إعصار وكساه بثوب رقيق يحاول أن ينزعك من الماء ويطير بك فى السماء . .

- ....

- أنت كده ..

- وأنت أيضا !

- لا .. كان زمان قبل العملية الجراحية ..

- عملية إيه ؟

- العملية التى أجراها أبى .. وأجرتها أمى أيضا .. وأخرجوا مخى من دماغى ووضعوا مخ بقال .. جزار .. سمسار .. تعرف الحكاية التى رويتها لنا عن كاتب إنجليزى كان يعمل فى محل أحذية .. وكان المحل تحت الأرض كهذا الدكان .. وكان يعرف أقدام الناس من النظر إلى أحذيتهم .. فأنا أيضا .. أول ما أرى من الزبون أو الزبونة جزمتها .. ومن الجزمة أعرف الفلوس التى معها فى المحفظة .. أنا أعرف من الجزمة فصاعدا وأنت من الدماغ فنازلا .. اختلفنا .. كل واحد فى طريق وإن كنا نلتقى عند توتو .. أنت ولست أنا ..

- يا أخى أنا فى إيه وأنت فى إيه ؟

- فى مركب واحد وحياتك .. الفرق بيننا أننى الأقرب إلى الشاطئ وأنت الأقرب إلى الموج العالى والرياح .. أنت حريص على أن تأخذنى يمينا وشمالا .. توهتنى .. أريد أن أسألك .. ماذا تعمل الآن ؟

- فى الصحافة ..

- عظيم .. طبيعى أن تعمل فى الصحافة . لابد أن تكتب . كما يكتب الآخرون يجب أن تكتب أنت أيضا .. أنت تعرف أن والدتى هى أول من تنبأت لك بذلك .. وكانت من أيام تحكى عنك .. حكاية غريبة .. جارنا خواجة من ألمانيا أو من السويد لا أعرف .. يريد أن يبيع مكتبته .. وخطر على بال والدتى أنك أنسب واحد لشرائها .. إنها تقول عن المكتبة أنها بديعة وفخمة .. تحب تتفرج عليها ..

- كم كتابا ؟

- لا أعرف ماما تقول مئات ..

ـ وأنت تتصور أن لدى فلوسا تكفى ؟

ـ آه لم يخطر على بالى هذا المعنى . . اسمع عندى فكرة . . اليوم نتغذى معا . . وتسمع القصة من ماما . . وسوف تكون هناك توتو أيضا . .

ـ يا سيدى توتو هذه أنا لم أرها إلا مرتين . . ولم يدر بيننا كلام . .

ـ لا ضرورة للكلام أحيانا العينان تقومان بكل المطلوب وزيادة . .

ـ يا سيدى أنت حللت كل مشاكلك وفى استطاعتك أن تتحدث عن توتو وأم توتو . .

ـ أم توتو تبقى خالتى . .

ـ صحيح ؟

ـ وما حاجة توتو إلى واحد غرقان عريان كما صورتنى . . وأنت المال والجمال والدم والمستقبل . . إذن هى غاوية فقر . .

ـ أما أنها غاوية فقر فهذا صحيح . . ولذلك عندها صبر أيوب . .

ـ وما حاجتها إلى الصبر إذا كنت أنت جاهزا كاملا . .

ـ أنا ؟ لا يا حبيبى ! أنت !

ـ أنا ؟ أنا فى عرضك ليس عندى أى شىء يغرى أى بنت . . بأى شىء ألفت نظرها . . ليس عندى ما يصلح أن يكون أملا لأية واحدة . . فلسفتى ؟ قرفى ؟ مللى ؟ ضيقى ؟ زهقى . . كراهيتى لكل ماله علاقة بالحياة الزوجية والأبوة والأخوة . . من تكون هذه المغفلة التى تنتظر واحدا بهذه المواصفات لا عنده أمل ولا فيه أمل . .

ـ توتو !

ـ أرجوك كفى . . أنت لم تسألنى لماذا جئت إليك . .

ـ لا يوجد سبب يا أخى . . صديقى وجئت تسأل عنى . . طبعا لا يمكن أن يكون هذا السبب البسيط التافه قد جعلك تبحث عنى حتى وجدتنى تحت الأرض . . ولا يمكن أن يكون (توتو) . . فقد سافرت إلى أمها فى لبنان بعد أن

تخرجت معنا . . إذن ما هو السبب الفلسفى الجبار الذى جعلك تبحث عنى حتى تجدنى . . لا تحاول أن تخترع قصة ظريفة . . قل الحقيقة . .

ـ أقول لك الحقيقة . .

ـ الحقيقة المرة . .

ـ إنها ليست مرة . . لأنه لا شىء أكثر مرارة من الجلوس دقيقة واحدة فى هذا الدكان . . فأنت ترى نفسك مفضوحاً فى ألف . . فى مليون . . ولا تستطيع أن تنقذ نفسك من صورك فى كل مكان . بقى لو تحولت هذه الصور إلى ميكروفونات ونطقت بكلمة واحدة فإنها سوف تتردد صوتا وصدى . . ولا أسمع غير صوتى وغير صداى . . أعوذ بالله . .

ـ قل لى السبب الحقيقى . . حظك من نار . . لقد جاءت توتو . . كلمة واحدة حلوة مع توتو . . ونستأذن ونذهب إلى حيث تريد . .

وكنت قد نسيت توتو . . والله جميلة . . لطيفة . . بيضاء وعيناها عسليتان . . وشعرها ذهبى . . وكانت يدها أسبق إلى يدى . .

ـ أهلا . . يا توتو . .

ـ أهلا يا أنيس .

ـ وحشتنى .

ـ وأنت كمان . . فين أراضيك . . ولا أنت لا تعرف إلا السماء . . أما نحن فعلى الأرض .

ـ لا أنت فى السماء ونحن على أرضك . . على ملعبك . . وليس لك ألا ان تضربى الكرة لتستقر فى قلب أى إنسان . .

كلام فى كلام منها وكلام من فريد . . ولا أعرف كيف خرجنا إلى الشارع وتركناها . .

واقترب منى فريد وقال : نحن وحدنا . . ماذا تريد منى . . أية خدمة أنت تعرف حبى لك . .

ـ ليس صحيحا أننى جئت لحاجة فى نفسى . . وإنما أنت صديق . . أعز الأصدقاء .

ـ أنا متأكد . ولكننى أداعبك . . ومع ذلك لابد أن تكون فى حاجة إلى مساعدة .

ـ فعلا . .

وقلت : إننى أريد أن يكون لى حضور أدبى . . أريد أن أنشر كتبا مترجمة أو مؤلفة . . وإننى فى حاجة إلى ناشر . . ولا أعرف أحدا منهم . . ولا علاقة لى بصناعة الورق والحبر والتغليف والتجليد . . وهى تجارة والده وأعمامه . .

واستوقفنى وقال لى : لأول مرة فى حياتك يكون لك تفكير صح وإيجابى . . فأنا هذا الصديق والشخص الذى يستطيع فعلا أن يساعدك . . وإن كنت أنت لست فى حاجة إلى مساعدة . .

وحتى لا يضيع الوقت سرنا فى الشوارع ندخل ونخرج . . ونتوقف . . ويتوقف هو يصافح أناسا كثيرين . . ويعانق ويقبل . . ويأخذ عناوين وأرقام تليفونات . . ويبعث بقبلاته عبر الهواء إلى سيارات يمينا وشمالا . . وفتح باب سيارته وجلست إلى جواره .

وضحك فريد قائلا : يا سلام يا أخى على استسلامك كأنك طفل صغير . . لا تسألنى إلى أين . . لقد أحسست كأننى أمك أو أبوك . . أنت طلبت شيئا وليس علينا إلا أن نحقق لك ما تريد . . أنا الآن ذاهب بك إلى أحد أصحاب المطابع . وأنت تتكلم معه فى الذى تريد . .

وجاءت لحظات طويلة من الصمت . . أو من الصمت الطويل . . أو لعلى تكلمت وهو لم يرد . . أو هو تكلم ولكنى لم أرد . . فأنا أفكر . . وهو أيضا . وجاءت الفرملة قوية فكدت أرتطم فى زجاج السيارة . . ونزلنا . إنها مطبعة أرمنية . . وقدمنى إلى صاحب المطبعة وقال له : أحسن زملاء الدراسة كاتبا . . وأديبا . . وعنده أفكار وأحلام وأنا أتمنى أن تتحقق كلها . . وأن يصدر له كتاب وألف كتاب . . والله العظيم سوف أكون أسعد الناس . . كلمه أنت وقل له . .

قلت : طبعا أنت لا تريد كتبا فلسفية .

قال : لا .

ـ ولا كتبا أدبية .

ـ قال : لا . .

ـ هل تفضل الكتب المترجمة ؟

ـ نعم . . ولكن أى نوع .

ـ لا علاقة له بالأدب أو بالفلسفة أو علم النفس .

ـ هذا يتوقف . .

أما صاحب المطبعة فهو رجل أبيض . . منظاره غليظ . . شعره خفيف ومن حين إلى حين ترتفع يده لتقسيم شعره بالعدل نصفين إلى أيمن وإلى أيسر . . ثم يمسح أنفه من حين إلى حين كأن الكلام له رائحة كريهة . . أو كأن الكلام لا يدخل أذنه وإنما يدخل أنفه . . ويجعله يشعر برائحة أخرى رائحة الحبر والرصاص المنبعث من المطبعة . . ثم أن هناك حركة عصبية بكتفه . . كأننى وضعت على كتفه شيئا ثقيلا أو أننى أهدد بذلك فهو بحركة خاطفة يلقى بكل هذه الأعباء إلى الأرض . .

ثم التفت ناحيتى وناحية فريد واقترب أكثر وقال لى : اسمع مسيو أنيس . . أنت شاب (زوغير) وتعرف بالضبط ما الذى يشغل بال الشبان مثلك . . لا شىء إلا الكلام عن الحب . . لا أحد يشبع من الحب . . حكايات كيف تحب . . كيف ينجح فى الحب . . كيف تحب حتى الزواج . . هات لى كتابا عن الحب . . عن الذى قرأت والذى جربت . . وأنا مستعد أطبعه اليوم . . أكلمك بصراحة أكثر . .

ـ نعم .

ـ أنت مش يزعل .

ـ لا . .

ـ سوف مسيو أنيس أنت (زوغير) . . لا أحد يعرفك . . يعنى إذا صدر لك كتاب الآن فهى مغامرة . . مجازفة منى . . لأننى محتاج إلى دعاية لك . . فإذا عملت دعاية فما الذى أقوله للناس عنك . . أقول الكاتب المجهول . . نصيحة : انتظر حتى يعرفك الناس أكثر . . وبعد ذلك أن تكتب كل ما تريد . . وسوف يعتاد الناس عليك . . وحتى إذا غلطت قالوا : زوغير . . ولكن سوف يجدون شيئا يعجبهم . لابد أنهم سيجدون ذلك . فإذا وجدوا ما يعجبهم ولو كان قليلا ، فسوف يتوقعون منك الكثير بعد ذلك . . كمان نصيحة . .

ـ تفضل .

ـ اكتب عن المرأة للمرأة . . اشتم المرأة . . مش مهم . . اضربها . . اسمع كلامى . . أنا جربت هذا النوع من الكتابة . . فعندنا شبان يكتبون باللغة الأرمنية . . إذا كتبوا فى التاريخ قرأ الرجال لهم . . وإذا كتبوا فى الحب قرأ النساء لهم . . الرجال ليس عندهم وقت ولكن عندهم فلوس . . والنساء عندهن وقت وعندهن فلوس الرجال . . نصيحة أخرى وما تزعلش منى . .

ـ تفضل .

ـ أشوفك بعد ثلاث سنوات . . أورفوار !

وكأن هذا الرجل جاك سوليفان قد حفظ نصا أدبيا ووقف على المسرح يلقيه فلما لم يجد تصفيقا حادا من الجمهور أدرك أنه قد أدى ما هو واجب ، ولأنه واجب فلم يلق صدى قويا من الجمهور . والحقيقة أن كلام مسيو جاك قد دخل إلى أعمق أعماقى . . وضربنى على دماغى . . وجعلنى أفيق وأعرف حقيقة لم أكن أعرفها . . ولم يعطنى فرصة لكى أشكره على صدمته وعلى صراحته . . ولكنه خرج بسرعة . .

وتضايق فريد صدقى وقال لى : أنا آسف جدا . . أنا لم أكن أعرف أنه هكذا رجل جلف خشن . .

ـ أبدا . والله لقد أعجبنى جدا ، قال أحسن كلام وأصدق نصيحة . . وهذا بالضبط ما كنت أريد أن أسمعه منه ومن غيره . . اسمع عندى فكرة . . سوف أزور الأستاذ العقاد اليوم فى الخامسة .

ما رأيك . . نذهب سويا .

- أنا أروح للعقاد . . أعوذ بالله . . وعلشان إيه ؟

- يا أخى أنت لا تعرفه . . جرب إنه رجل ظريف جدا . . ثم إنه مفكر عظيم . . تعال وتفرج على واحد عظيم . . لن تخسر شيئا . . أرجوك . .

- ما رأيك لو جاءت معنا توتو . .

- يا أخى أنا أكلمك عن العقاد وليس مدام أفلاطون مصممة الأزياء . . أنت موافق طبعا . . إذن نلتقى أمام بيت العقاد فى الساعة الخامسة إلا خمس دقائق . . ما رأيك . .

- والغذاء مع ماما .

- ليس اليوم . .

- . . . . . .

* * *

وأمام بيت العقاد وقف فريد صدقى فى حالة قلق . . فأنا قد رأيته من بعيد . . إنه لا يستقر فى مكان يدور حول نفسه وينظر إلى الأرض . . وإلى بيت الأستاذ العقاد . . ثم ينفض التراب عن جزمته . . كأنه تلميذ صغير استدعوه فجأة بمكتب حضرة الناظر ليشرح له لماذا تخانق مع ابن حضرة الناظر . . ووقفت اتفرج عليه من بعيد . . إنه فى حالة ضيق وقرف وإن كان قد ارتدى بدلة أنيقة وكرافتة وينظر إلى ساعته . . ثم يتلفت إلى كل تاكسى يمر بجواره ظنا من أننى لابد أن أجىء من الزمالك فى الموعد المحدد بالسيارة وليس بالمترو . .

واقتربت من فريد وقلت له : الآن نستطيع أن نصعد . .

- هو ده البيت ؟!

- نعم .

- البيت كئيب . . والسلالم تقرف . . يا ترى شقة الأستاذ كالسلالم أو كالرصيف . . طبعا لابد أن يظهر القرف على وجه العقاد مادام هذا هو المدخل إلى بيته . . واعتقد أن المدخل سوف يكون أحسن من البيت . . أراهنك .

ـ اطلع .. اطلع .

ووراء الباب وجدنا الأستاذ العقاد .. بالبيجاما والطاقية التى من لون البيجامة .. وكما هى العادة هو الذى بدأ بالكلام .. ويسألنى من يكون صاحبى هذا فقلت له . وظل الأستاذ يتكلم عن الأخبار التى جاءت فى الصحف وعن مقال للدكتور طه حسين ومقال آخر للأستاذ سيد قطب ومقال للدكتور أحمد زكى .. وينتقل من مقال إلى مقال مع ملاحظات بارعة .. دون أن ينتظر تعليقا ودون أن يتحقق إن كنت قد قرأت هذه المقالات أو أشاركه رأيه فيها .. ولكنه يتكلم وهو يفترض أننا قرأنا ما قرأ .. وإن لم نكن قرأنا فهو قد قرأ ..

ثم توقف ليقول : أنا شايفك يا مولانا قد كتبت عن مسرحية أخينا توفيق الحكيم .. وقد أعجبتك وكنت أظن أنها لا تعجبك ..

ـ لماذا يا أستاذ ؟

ـ لماذا .. لأنك تنادى أنت وأساتذتك بالكثير من الحرية حتى لو لم يكن لها أى معنى .. إنها حق مكتسب لك .. تماما كما تكون فى جيوبك فلوس .. فلوسك .. ومن حقك ما دمت حرا أن ترميها فى البحر .. ولكن أخونا توفيق قد حجر على حريات الناس ومنها حريتك .. ومع ذلك فقد أعجبك ذلك ..

ـ لا يا أستاذ .. أنا لم يعجبنى أنه حجر على حريتى .. ولكن أنا أمام واحد ساحر يلف حول عنقى ثعبانا بدلا من أن يلف حبلا .. ولقد أقنعنى تماما أنه لا يريد أن يخنقنى أو يقتلنى وإنما فقط أن يداعبنى دعابة عنيفة ، ولكنها ليست قاتلة فهذا الثعبان قد نزع أنيابه ثم أنه مخدر تماما .. فلا خطر منه ..

ـ إذن أنت يا مولانا .. لا مانع عندك من أن يخدعك إنسان ويوهمك بأن الثعبان ليس ساما . وتصدق ذلك .. ولكن كيف تصدقه يا مولانا .. أنت لا تصدقه إلا إذا أيقنت تماما أن توفيق الحكيم ساحر هندى ، وأن له تجارب طويلة فى تخدير الأفاعى .. ولكنه ليس ساحرا هنديا ولا هذا الثعبان من الأنواع التى لا تقتل .. ولكن هو الذى قال .. كيف تناقش كل شىء .. وتشك فى كل شىء ثم تصدق توفيق الحكيم لأول وهلة ..

ـ انا اصدقه يا أستاذ كما أصدق الممثلين فى المسرح وعلى الشاشة .. إن القصة التى يعرضونها علينا لم تحدث لهم .. ولا حدثت لأحد .. إنها أكذوبة فنية .. لقد اتفق المؤلف والممثل والمشاهد على أنها ليست صحيحة .. ولكنه ترك لنا جميعا أن نستشعر ذلك أثناء العرض المسرحى .. والممثل وحده القادر على أن يوهمنا بأنها حصلت له هو شخصيا . وهذه براعته .. فنصدقه ونتأثر بها لأنها حصلت .. أو كأنها حصلت ..

ـ قل لى يا مولانا أنا لا أريد أن استدرجك إلى حوار يطول أنت قد جئت لسبب أريد أن اعرفه ..

ـ نعم .

ـ خير يا مولانا ..

ـ اسألك عن أول كتاب يا أستاذ ..

ـ أول كتاب لمن ؟ لى ؟

ـ لى .

ـ صدر ؟

ـ لم يصدر .

ـ إذن تريدنى أن أقول لك عن أى شىء يجب أن تكتب .. أو هل أنت أصدرت أول كتاب ..

ـ عندى رغبة فى أن أؤلف كتابا .

ـ إذن ما يمنعك من الكتابة ..

ـ لا أعرف .

ـ لا تعرف ماذا ؟

ـ لا أعرف عن أى موضوع ؟

ـ أنت يا مولانا كواحدة لم تتزوج بعد وتريد أن تختار اسما للمولود .. هاها ..

تزوج أولا يا مـولانا وليكن لك كـرش . . هاها وبعـد أن تلد تتناقش فى الاسم المناسب للمـولود . . اكـتب فى أى شىء . . وعن أى شىء . . مـادمت تجد مـا تقوله . . اكتب . . والاسم يجىء فى النهاية . .

ـ . . . . . .

وتكلم الأستاذ فى موضوعات كثيرة بعد ذلك . . وصحبنا إلى الباب ووقف يرانا نهبط الدرج وكان فريد صدقى يقول كلاما لا أعرفه ولكن من النظر إلى وجهه توقعت أن يكون ضيقا بالطريقة التى تكلم بها الأستاذ العقاد . . ولكننى ضغطت على ذراعه لأن الأستاذ كان واقفا يرانا ويسمعنا . .

وقلت لفريد ونحن فى الشارع ما دامت معك سيارتك فما رأيك لو ذهبنا إلى طه حسين . .

ـ آه . . طه حسين نعم . . أما هذا الرجل . . أنا لا أعرف ما الذى يعجبك فى العقاد . .

ـ كفاية يا فريد . .

واستغرقنا الصمت الطويل حتى وصلنا إلى بيت د . طه حسين فى الزمالك . . وقبل أن ندخل قلت له : أريد أن تلاحظ الفرق بين الرجلين . . هذا لطيف . . ذاك عنيف . .

ولم يكن عند فريد صدقى أية رغبة فى الكلام . . وإنما قد بهره أن يكون على مقربة من طه حسين . . وجاء من يقول لنا : تفضلوا . .

ودخلنا ووجدنا طه حسين جالسا . ولم نكد نقترب منه حتى قدم يده قائلا : أهلا يا سيدى . . لم نرك من وقت طويل . .

ـ أهلا يا أستاذ معى صديق يشاركنى مع الملايين الإعجاب بك يا أستاذ . . ولم استأذن فى زيارته . . ولكن أرجو قبول عذرى يا أستاذ . .

ـ أهلا به . .

ـ اسمه فريد صدقى . . كان زميلى فى قسم الفلسفة ولكنه اتجه إلى التجارة . . أو أن والده هو الذى وجهه إلى التجارة . .

- هاها . . هاها . . إذن لقد أعلن إفلاس الفلسفة مبكرا . . أنت تعرف كتاب كارل ماركس الذى له هذا الاسم . . حتى عندما أعلن إفلاس الفلسفة فهى فلسفة أيضا . . وأستاذك أرسطو هو الذى قال : إذا أردت أن تتفلسف تفلسف ، وإذا أردت أن تهاجم الفلسفة فأنت تتفلسف أيضا . . ما الذى شغلك عنا يا سيدى . لقد قال سكرتيرى أنك تفكر فى إصدار كتاب . . أنا أفضل الكتاب الثانى . . فالكتاب الأول ليس أحسن الكتب دائما . . ربما كان أغزرها معلومات وأعمقها . . ولكنه ليس بالضرورة أحسنها . . ولذلك فضلت أن تكتب الكتاب الأول وتؤجل صدوره وتنشر الكتاب الثانى . . إننى لم أفعل ذلك . . ولكن أتمنى لك أن تفعل . . وقد نصحت بعض تلامذتى . . ولكن أحدا لم يأخذ بنصيحتى . . ولا أظنك فاعلا . . هاها . . أستاذك عبد الرحمن بدوى كان هنا . . وقال لى أنه مشغول بعشرة كتب فى وقت واحد . . إذن هو وحده القادر على أن يبدأ بأى منها ويقول أنه الثانى أو الثالث . . هاها . .

- أريد أن يكون فى الفلسفة الوجودية .

- نحن ننتظر منك ذلك ، والذى كتبته يؤكد أنك قادر على أن يكون كتابك هذا جذابا . . فقد حدثنى عبد الرحمن بدوى وكذلك لويس عوض عن المقالات التى نشرتها فى مجلة (الرسالة الجديدة) عن الوجودية . . فقرأت منها ثلاثا . . إنها ممتعة يا سيدى . . وإذا كان هذا قدرك وقدرتك فلا خوف عليك يا سيدى . . وإن كانت هذه أوراق اعتمادك فى مملكة الفلسفة والأدب . . فأنا أقبل أوراق السفير الجديد . . فأهلا بك . .

- يا أستاذ أنت دائما الأستاذ والعميد والأب . . ويكفى أن أسمع منك وأن أرى الرضا على وجهك . . والصدق فى كلماتك لكى أكتب فلا أتوقف عن الكتاب الثانى والثالث والأول . .

- كان الشاعر اللاتينى فرجيل ينصح الشبان بأن يكتبوا . وأن يتركوا الذى كتبوه شهورا وسنوات ثم يعودون إلى ذلك ليحذفوا ويختصروا . . وكان ينصح الأديب الشاب بأن يكتب طويلا جدا . . وبعد سنة يطلب إليه أن يمزق كل الذى كتب . . ثم يكتب من جديد . . وأرى أن فى ذلك قسوة فظيعة ، ولكن المعقول أن يطلب

إلى الأدباء أن يختصروا كل الذين أسهبوا فيه . . وهذه نصيحة مقبولة لأنها معقولة . صحيح أنه قد مزق الكثير . خسارة . والذى نشره كان جميلا بديعا . ولا أحد يفرض على صاحب المزاج مزاج الآخرين . .

ـ هل ترى يا أستاذ أن أعيد صياغة ما كتبت .

ـ لا . انشره كما هو . فأنت بذلك تسجل تاريخك . . مزاجك . . أسلوبك حالتك العقلية والنفسية . . وسوف تعود إليها فيما بعد لتعرف نفسك بنفسك كيف كنت . . وكيف رآك الناس . . لا تغير ما نشرت . وإذا أردت أن تغير شيئا فيجب أن تكتب فى مقدمة الكتاب أنك فعلت ذلك . هذه أمانة علمية .

ـ ولكنى يا أستاذ بعد أن قرأت الذى كتبته لم أشعر أننى كتبت شيئا له قيمة وإن الذى كتبت لا يستحق النشر . .

ـ أنا أراه يستحق النشر . . وأنت رأيت ذلك يوم توفرت على الكتابة والقراءة والتصحيح قبل النشر . . ولكن إذا لم يكن يرضيك ذلك ، فاكتب لنا ما هو أفضل ، وأنت قادر على ذلك . . كان أستاذك عبد الرحمن بدوى يريد أن يؤلف عنى كتابا فنصحته ألا يفعل لا لأنه لا يستطيع ، ولا لأننى لا أحب ذلك . . وإنما أريده أن يقول لنا الذى يعرفه هو . . والذى نريد أن نعرفه منه . . فهو أقدر الناس على ذلك . . أما الكتاب عنى فمن الممكن أن تؤلفه فى أى وقت . . إننى أتعجل علمه هو ، لا علمى أنا بقلمه . . لقد اندهش عبد الرحمن لذلك ، ولكنى كنت صادقا فيما قلت . . وأنت تعرف مدى إعجابى بعبد الرحمن . . فأنا طلبت إليه أن يقول لى : من هو . . لا أن يقول لى : من أنا . .

ونهضت وقلت : شكرا يا أستاذ . . أنت تسعدنى دائما ، وكل يوم تتأكد محبتنا لك . . وإعجابنا العميق بشخصك العظيم . . شكرا يا أستاذ . .

ـ لا تبعد كثيرا طويلا . . ولا تجعلنى أبحث عنك يا سيدى . .

ـ شكرا يا أستاذ . .

كم مرة دار الحديث فى رأسى بينى وبين العقاد وبين طه حسين . . كم مرة . . تماما كأننى أستمع إلى أغنية جميلة . . أديرها وأسمعها وأرددها . . دون أن تكون لى أية رغبة فى أن استمع إلى غيرها . . وكم مرة شكرت الله كثيرا أن جعلنى

قادرا على أن أجلس إلى العقاد وطه حسين والحكيم والمازنى ولطفى السيد وعلى مصطفى مشرفة وأحمد زكى وإبراهيم ناجى . .

ولكن لم أشأ أن أقول للأستاذ العقاد أن كتابه الأول لم يكن لا أحسن كتبه ولا أعمقها . . بل إن العقاد إذا كان قد تعب فى حمل هذه المعانى وفى ولادتها ، فإنه لم يحسن اختيار اسم المولود . .

ولا أظننى كنت أستطيع أن أقول له ذلك . .

ولم أشأ أن أقول لطه حسين أننى أتمنى أن أنشر أحاديثى معه ، فهى أحسن تسجيل لصورة طه حسين . . رقته ولطفه وصدقه . .

ولم أنم تلك الليلة ، وظللت حائرا بين المعانى وبين الذى يجب أن أفعله والذى يجب ألا أفعله ، ولكن شيئا واحدا قد استقر فى أعمق أعماقى ـ شكرا لطه حسين ـ وهو أن أنتظر حتى أكون شيئا ، وبعد ذلك أحاول أن أؤكد للآخرين أننى كذلك . . وأكثر من ذلك فى مستقبل الأيام والأعوام .

وفى التليفون إلى صديقى فريد صدقى : أكثر ما أعجبك فى كلام طه حسين ماذا ؟

قال : كله .

ـ وفى كلام العقاد ؟

ـ ولا حاجة !

ـ هل تتذكر ما قاله لى طه حسين .

ـ نعم . . كل حرف . .

ـ هل تتذكر عندما قلت له يا أستاذ : انصحنى . . قال إنه عندما ذهب إلى جامعة السوربون لأول مرة قابل أحد الأساتذة وقال له : أنت سوف تجد فى كل خطوة أستاذا . . ومن كل فكرة كتابا . . فلا ترهق دماغك الآن . . سوف تهبط عليك الأفكار كالطيور . . وقال طه حسين إنه تفاءل تماما . . وإنه أحس أن هذا الأستاذ الذى لا يعرفه قد جاءه ليؤكد له ما فى دماغه . . وأسعده أن يسمع

ذلك . . أما أنا فتذكرت حيرة الإمام محمد عبده عندما قابله أحد المجاذيب وقال له : الحلاوة الصافى فى مصر . فسأله : معك هذه الحلاوة . فقال له : من جد وجد . . ويقول الشيخ محمد عبده أنه أحس أن هذا المجذوب قال كلاما معقولا . . فمكان الحلاوة فى القاهرة وليس فى دمنهور . . وسوف يحصل على كل ما يريد بالاجتهاد . . كذلك كان شعورى عندما حدثنى طه حسين . . لقد حدثنى عن الذى فى خيالى وأحلامى . . وأراحنى . .

ـ أنا لاحظت الراحة والابتهاج على وجهك تماما . . أقول لك حاجة ولا تقل أننى أحاول أن أتفلسف . . أنا عندما رأيتك فى الدكان واقفا ، جالسا مستغرقا . . لقد انزعجت وأحسست كأنك واحد نظر فى المراة فلم يجد صورته !! طبعا هذا شىء يجنن . . لقد أحسست أنك بالضبط هكذا . .

ـ غريب جدا هذا الذى تقوله يا فريد . . غريب عجيب . . أحكى لك حكاية . . منذ أيام كنت مشغولا مهموما . . قلقا على نفسى وعلى دنياى . . ووقفت مترددا أخرج من البيت أو لا أخرج . . وفجأة فزعت جدا . . لقد نظرت فى المرآة فلم أجد صورتى . . معقول . . ولما أفقت من السرحان وجدت أن الباب الذى أمامى كان مفتوحا ، أما المرآة ففى ظهر الباب . . فأنا نظرت فى الفراغ وكنت أظن أننى أمام المرآة . . كيف جاءتك هذه الفكرة التى حيرتنى لحظات . . فأنت المرآة الصادقة التى أرى فيها نفسى . . حاضرى ومستقبلى . . والصدق والإخلاص والحب . .

ـ ....

عزف منفرد على

أوتار حزينة!!

(١)

شارع التنهدات . . .

عرفت فيه التنهدات لأول مرة . .

كنا نمشي من إمبابة إلى الزمالك . . كانت لنا أفكار وكنا ننسب إلى أنفسنا صفات ليست منا . . كنا ندعى أننا أعضاء فى جمعيات دينية وجمعيات سياسية . . كل هذا لنضيف إلى أنفسنا ولاهتماماتنا أهمية خاصة . . أو سندا يجعل لأفكارنا معنى ، ويجعل لاهتمامنا بهذه الأفكار مبرراً قويا .

أول مرة ألمس يد امرأة . أول مرة أشم عطرها . . أول مرة أعرف أن للذراع وظيفة أخرى غير حمل الكتب وهو أن ينثنى حول خصر فتاة . . أول مرة أسقط فى حفرة فى الأرض . . وأحس أننى وقعت بالفعل فى حب . . ولم يكن فى حب هذه الفتاة الأولى ولكن فى الحب نفسه .

وأول مرة أحس أن هنا حريقا هائلا . . أكل ملابسى وجلدى ومحا معالم البيت والشارع والأشجار . . ولم يبق أمامى وحولى إلا الدخان .

كانت لنا أفكار . لا أعرف إن كانت هذه الأفكار سببها المشى . . كما كان يفعل ارسطو . . فهو يمشى ويفكر برجليه . . كان يقرأ بقدميه .

أو كان هذا نوعا من الأرق .

أو كانت عواطفنا مجرد تنهدات . . مجرد نشاط فى الجهاز التنفسى . .

آه . . آه . .

كنت أسكن فى شارع السلطان حسين فى الزمالك سنة ١٩٤٤ . . رأيت أم كلثوم . . واحترق البيت . . وفى الحقيقة لم يكن بيتا . . وإنما غرفة خشبية بجوار هذا البيت . . وفى الليل أدخل من الباب العمومى . . وفى النهار أدخل من باب الخدم . . وكان الليل يجعلنى صاحب البيت . . أما ضوء النهار فيردنى إلى حقيقتى وهى أننى ساكن فى هذا البيت . . ولا أعرف إن كانت الفتاة التى تنظر إلى من نافذة قريبة . . إن كانت هذه نظرة ارتياح أو مداعبة أو تساؤل . . فى ذلك الوقت لم أكن أنظر كثيرا إلى ما حولى . . فلا شىء حولى . . وإنما كنت مشغولا بالنظر إلى نفسى .

كل يوم أتحسس وجهى . . هل اختفت الحبوب . . ؟

واتمسس يدى بيدى هل اختفت الحبوب . .

واتحسس جيوبى ، هل وضع أبى شيئا وأنا نائم . . أو أنا أتظاهر بالنوم . .

كانت هذه هى البقع السوداء الأولى فى شارع أحسست به من زمن طويل اسمه شارع التنهدات ـ الذى يبدأ بحب الاستطلاع وينتهى بالألم !

(٢)

كتب جابريل مارسيل عن عمال دورات المياه . . وعن الحالة الوجودية الغريبة التى يعانونها . .

وقد لفت نظرى عامل الأسانسير أيضا . .

إنه يشبه عمال المناجم . . ويشبه عمال المراحيض أيضا . . إنه مربوط برائحة .·. مربوط من أنفه . . ومثله بائع العطور وبائع الفلفل والصيدلى والجزمجى . .

له حركات كثيرة . . سببها ضيق المجال البصرى . . وسببها رتابة وتفاهة العمل الذى يقوم به . . وهو يحاول أن يجعل لهذا العمل أهمية . . أو يحاول أن يجعل لنفسه أهمية . . فهو يدوس الأزرار دون أن ينظر إليها . . إنه يريد أن يبين لمن معه أنه اكتسب مزايا صعبة . ليست فى مقدور أحد . . وأن يرد على الذين معه دون أن ينظر إليهم . . لأنه يعرفهم بأصواتهم . . أو أن يقف على الأدوار دون أن يطلبوا إليه ذلك . . لأنه يعرفهم ، أى أن له ذاكرة قوية . .·

وكثيرا ما يحمل معه صحفا وكتبا وراديو صغيراً .

مع أن وقته لا يتسع لشىء من هذا . ولكن يريد أن يقول أنه ـ رغم هذا كله يقرأ ويستمع وأنه ليس إنسانا «آليا» . . أو آلة بلا إنسانية .

إنه فى زنزانته . . إنه وحده . . إنه متطوع أن يسجن بلا جريمة .

إنه كمسارى ترام صاعد . . الناس يروحون ويجيئون ويبقى هو فى مكانه . .

كمسارى بلا تذاكر . . سجين بلا جريمة . . وجهه للحائط دائماً . . إنه يتفادى عيون الناس . . والناس من حوله يتفادون النظر بعضهم إلى بعض . . ومعظمهم ينظر إلى السقف . . أو إلى الأرض . .

أنهم قريبون جدا . . لدرجة يشعر فيها الإنسان بالضيق . لأن الأقتراب الشديد يضايق عيونهم . . فهم لذلك يعجلون بإقفالها ، أو التطلع إلى شىء بعيد . .

والعذاب هو هذا الاسانسير . . لأن الناس قريبون جدا . . فى استطاعة كل واحد أن يرى الآخر على قرب . . أن يشم رائحته . . أن تضايقه أنفاسه . . ولكنه مع ذلك لا يعرف كيف يهرب . .

وأحيانا يكون الأسانسير حاراً خانقا . . كأنه مقبرة مغلقة كل شىء فيها ملتهب كأن الصاعدين هم الذين يحملونها ، وليست هى التى تحملهم . . لقد لاحظت إن قبر الشاعر الايطالى دانتى مثل الأسانسير . . مقفل خانق كريه الرائحة . . كأنه جهنم .

وسارتر عندما تصور الجحيم . . تصوره بهذا الشكل . . فقد قال : «الجحيم هو

الآخرون ! فالناس معا . . متقاربون جدا مسلطون بعضهم على بعض . . كل واحد يعرف ما يفعله الآخر وماذا سيقول . . لا يستطع أحد أن يخفى شيئا » .

هذا هى البداية . .

والأسانسير هو لحظات من جهنم . .

لحظات يحس فيها الإنسان أن عينيه بلا أجفان . . مفتوحة ولا يستطيع أن يغلقها . . وان الآخرين لا يستطيعون ان يقفلوا عيونهم أيضا .

عيون تشبه الشمس ملتهبة . . وبلا رموش ولا أجفان . . ومن نار !

(٣)

شارع التنهدات . .

ما من شجرة لم تلمسها يدى . . ولا حجرة ولا عوامة . . ولا مصباح أضاء لم أقف عنده وأجد لهذا الضوء معنى وأتفاءل به .

وجوه الخادمات وعربات الاطفال . .

حديقة الأسماك . .

منطقة ملاعب الخيل . .

النادى الأهلى . .

هناك فى آخر شارع التنهدات حيث تنهدت مصر كلها : مجلس قيادة الثورة . .

وكيف وقعت الثورة وأنا فى البحر . .

مشيت فى هذا الشارع على قدمى . .

ومشيت فيه وحدى . . ومشيت فيه مع غيرى . .

ومشيت مع فتاة .

وانطلقت فيه بسيارتى .

صوت العوامات . . ظلال الشجر . . صوت ماء النهر . . والزوارق . . وعطور وألوان وروائح . . حتى العفونة كانت تشبه المياه الخضراء فى شوارع البندقية . .

وعند كوبرى بديعة . . اسمه الجلاء الآن . . السيارات كانت تمشى على مهل . . كانت تلهث كانت تهتز . . وتصبح كالكرة وتسقط بقية سجارة . . ملتهبة . . كأنها قنبلة طائرة . . كأنها عبارة ندم . . كأنها عين حاسدة . . كأنها فراشة تنهار من الجو تعلن عن بداية غارة جديدة . . غارة فى داخل السيارة . .

هنا كانت بداية كل شىء

نعم بداية كل شىء

(٤)

قل لى يا أستاذ..[1]

مقدمة رسائل من القراء والرد عليها . . مع مقدمة لهذا النوع من القراء ومن المشاكل والاعتذار عن ضيق المجال والكتابة فى مثل هذه الموضوعات المدخرة وبسرعة . .

بعث أميركى إلى أينشتين هذه البرقية :

هل تؤمن بالله؟

وكان الجواب : نعم

فليس هذا سؤالا . وليس هذا جوابا .

وكثير من الرسائل على هذا الشكل . .

وبعض أصحاب الرسائل يبعثون بنفس الموضوعات إلى كثير من الكتاب . . ويتلقون الكثير من الردود . وترتبك أفكارهم ، وبعض أصحاب الرسائل من هواة جمع الردود . . وهو أقرب ما يكون إلى المرض . .

كما أن بعض المرضى من هواة جمع الروشتات . .

الموضوعات التى يجب كتابتها فى المقدمة : نوع من الردود .

والمكالمات التليفونية . .

وأسلوب الرسائل نفسه . .

(١) صدر لى كتاب بهذا الاسم .

وكيف تكون الرسائل . . وكيف يختلط الأمر فيها . . وموقف كتاب الصحف والمجلات . . من هذه ا لموضوعات . . وهذه الرسائل مختلفة باختلاف البلاد . . فى أمريكا وفى انجلتر وفى فرنسا وغيرها وكلها مرتهن بنوع المشاكل

وكتاب «قولى لى ياجو زفين» وهو نوع من مشاكل الفتيات فى أواسط أفريقيا . للاديبة بربارا مول .

ومن هذه الخطابات يمكن معرفة أى نوع من الناس إلى حد ما .

وفى الغالب تحاول كل فتاة أن تخفى مشكلتها واسمها حتى لا يتعرف عليها أحد .

تجربتى فى كتابة الرسائل مع كبار الكتاب وكيف أننى كنت أبعث إليهم بالرسائل رداً على قضايا عامة . .

الأسماء المستعارة التى كنت أعتمد عليها :

شريف شريف . . وأحلام شريف . . وسيلفانا ماريللى . . وأسماء أخرى . . وكلها بقصد إخفاء اسمى . .

والمشاكل التى ترتبت على ذلك كثيرة أيضا .

(٥)

ساعات بلا عقارب..(١)

كتاب عن أشخاص لهم نشاط غير مدون . . . أو غير محدد . . أو لهم اتجاه خاص .

معظم الناس ساعات بلا عقارب . . تروس فى جهاز كبير . . وليس من الضرورى أن يكون الناس هم هذه العقارب . .

الناس لهم سرعات مختلفة

سرعات فى الحركة ورد الفعل .

والحياة والموت . .

(١) صدر لى كتاب بهذا الاسم .

(٦)

الأدب الشفاف

كتاب عن :

اوسكار وايلد

ولورانس

وقصة فانى هيل

ولوليتا

ويمكن أن يكون عنوانه (سقوط مارين وغيرها) ويتناول قصة أرثر ميللر مع مارلين مونرو . .

وعشيقات فيكتور هيجو . .

وغرام الأدباء عموما . .

(٧)

عزيزتى فلانة[1]

كتاب فى رسائل بينى وبين القارئات . .

لكن الاستفادة من الشكل الفنى من مناقشات اندريه مورو فى حكاياته إلى « عزيزتى الشقراء » . .

الغير المنتمى

الشخصيات التى قدمها كولن ويلسون في كتابه «سقوط الحضارة » و« اللامنتمى ».

الشعراء الذين قدمهم استيفان اتسفايج فى كتابه عن «البنات العظام » .

(١) صدرت لى مجموعة قصصية بعنوان (عزيزى فلان) .

والشخصيات التى جاءت فى كتاب « الرجل المحروم من الميراث » أو « الرجل المطرود » والشخصيات التى اختارها المؤرخ العظيم توينبى أيضا

(٨)

بلا أصنام

كتاب : حطمت أصنامى

نماذج من الفكر الوجودى

نماذج من الأدب الساقط

نماذج من التشاؤم

كيف أصنع أنا النقط فوق وتحت كلمة (الحقيقة)

(٩)

إن القلق بشىء ، أن أجده ، أن أطلبه ، أن أطلب منه الكثير . . معناه أن أرتبط . . أن أبحث عن تحقيقه . .

وأهم من ذلك أن أتوقع بين لحظة وأخرى ألا أحصل عليه . . ألا أجده وأفقده !

فالذى يحب شيئا ، هو فى نفس الوقت ينتظر اللحظة التى يكره فيها هذا الشىء !

* * *

إحساس إنسان بأنه محبوس فى جلده . . فى لونه . . فى طوله . . فى أنه رجل أو امرأة . . يجعله باستمرار يهرش كأنه يريد أن يزيل جلده . .

إننى لا أهرش . . إننى فقط أصرخ . .

* * *

ومنظر سلم موجود دائما فى الغرفة . . السلم معناه أنه يريد طريقاً إلى أعلى . . طريقاً يخرم السقف . .

(١٠)

- أنت تشرب قهوة ؟

- نعم

- فنجان واحد . .

– ولا يوجد سواه . .

– إذن لماذا لا نجعله عائليا

– لا أهتم . .

– أى آخذ منه رشفة . .

– لا أهتم

– إن خطنا واحد . . ومصيرنا واحد . . فهذه السيدة التى ستقرأ لنا الفنجان معا . . ستقرأ بختنا جميعا وبدلا من أن يكون فنجانك كالبطاقة الشخصية . . يصبح كالبطاقة العائلية . .

– فإذا قالت إن واحدا سيموت . .

– أنت الذى يجب أن تموت . . !

– وإذا قالت أن واحدًا سيعيش . .

– إذن نحن الاثنين . .

– ولماذا ؟

– لأن الإنسان يموت وحده . . تماما كما يولد وحده . . ولكن لايستطيع أن يعيش وحده . .

(١١)

يوجد على مستوى القمم الضيقة ، نوع غريب من النساء . . هذا النوع فيه جرأة وفيه طموح ، وفيه سفالة وانتهازية أيضا . .

وقد حدث فى التاريخ أن أحب عدد من العظماء امرأة واحدة . . مثلا : سالومى التى أحبها الفيلسوف نيتشه والشاعر ريكه والعالم فرويد . .

والفتاة التى أحبها شوبنهور . .

والفتاة التى أحبها دى ميسيه وشوبان : جورج صاند . .

ومى التى أحبها العقاد والرافعى ولطفى السيد وطه حسين وعبد القادر حمزة وغيرهم . .

والفتاة التى أحبها الفيلسوف شبلنج . .

وزوجة الموسيقار شومان . .

(١٢)

منظر أحد الأغنياء . . الإقطاعيين السابقين مثلا ، على المسرح وحوله بقايا بيته الذى تهدم . . ويجلس على مقعد وثير . . وأمامه منضدة ومفرش وبعض أدوات الطبخ . . كل هذا وسط الأنقاض . . واثنان من الخدم يقدمان له الطعام . . بنفس الأبهة التى اعتاد عليها . .

ويطلب من الخادم بيضة . .

ويذهب الخادم ويحضر له بيضة مسلوقة !

الإقطاعى : مين اللى باض النهاردة ؟

الخادم : شادية . .

الإقطاعى : ونجاة جرى لها إيه ؟

الخادم : والله يابيه متعسرة شوية .

الإقطاعى : ليه . . هى الحكاية وصلت للفراخ كمان ؟

الخادم : وصلت يا بيه . .

الإقطاعى : وشريفة حصل لها إيه . . مش كانت بتبيض مرتين فى اليوم ولا أنتم كنتم بتضحكوا على عقلى . .

الخادم : شريفة ما كنتش بتبيض . .

الإقطاعى : أمال ده كان بيض مين ؟

الخادم : الله يرحمه بقى . . .

الإقطاعى : علشان كده مات . . البيض اللى كان بيسرقه من الفراخ ويحطه تحت شريفة . . هو اللى جاب أجله . . أحسن . .

. . مثلا . . . مثلا . .

(١٣)

آه لو تحول الفنان إلى إنسان مثير . .

كما يتحول هيتشكوك إلى نبى !

أو يتحول النبى إلى هيتشكوك !

(١٤)

لهذا الكتاب طعم يمكن أن تلمسه من أية سطور تقع عليها عينك . . تماما كالشراب تعرفه من أول رشفة ، والوردة من أول لمسة . كذلك تعرف قيمته من أول سطر!

* * *

لقد كان نجما لامعا فى سمائنا . . كل كوكب قد استمد منه بعض النور .

(١٥)

سلسلة من المقالات أو المواقف المسرحية ، بإمضاء : فكرى مصلح الكون . .

بنفس الطريقة التى طبقتها أنا فى مسرحية : المادة ٢٧٨ عقوبات . .

شخصية رجل مفكر متطرف ، ولكنه حسن النية . . مثالى وعلى حق دائما ولكن الخطأ فى المقدمات فقط !

ولكن يمكن لفكرى مصلح الكون أن يتناول كل المشاكل الاجتماعية والفلسفية والإنسانية بحسن نية !

إن فكرى مصلح الكون صورة أخرى من الرجل المثالى إلا أنه ليس خفيا . . إنه يدخل البيوت من أبوابها إما بنفسه . . أو بالتحايل على غيره . . ولكنه يدخل البيوت وله رأى وله موقف . .

ويجب التأكيد على حسن نيته دائما !

وهو شباب على طول . . لأن الخير لايشيخ !

* * *

إذا لم تكن حرا فما الذى يخيفك من الزواج !

وإذا لم تكن تملك شيئا فما الذى يخيفك من الشيوعية !

إن الزواج هو أن تفقد مالاتملك !

والشيوعية هى أن تفقد أيضا مالاتملك !

الزواج فيه تأكيد لرجولتك ، والشيوعية فيها تأكيد لرجولة الدولة !

(١٦)

المسيح يقول : لايدخل الجنة رجل غنى . .

ومعنى ذلك أن الجنة لن يدخلها إلا المتزوجون . . ولايمكن أن يكون متزوجا وغنيا فى نفس الوقت !

المثل الذى يقول : إن النبى أوصى على سابع جار . . معناه انه لم يوص بأول جار وهو زوجتك . . ويوصى بالجار السابع الذى يراك ويرثى لحالك . .

على فكرة . . كل زوجة كانت فى يوم من الأيام هذا الجار السابع !

(١٧)

لأن المرأة تعطى عادة . . فهى تتصور أنها تعطى عن سخاء أو عن كرم ، ولكنها تعطى رغم أنفها . . فهى تعطى للرجل من عواطفها ، كما تعطى للطفل من لبنها . . فهى لاتملك إلا أن تعطى . .

وعندما تقول الأم لطفلها : إننى أرضعتك . .

فهى تظن أن هذا كرم منها ، وهى فى الحقيقة تعطى رغم أنفها . . وتبكى رغم أنفها . .

فالذى يبكيها ليس قاسيا عليها ، وإنما هى تبكى لسبب أو لغير سبب . . وسترضع طفلها سواء كانت تحبه أو لاتحبه . . سواء كان من رجل تحبه أو لاتحبه . .

إن دموعها ولبنها وعواطفها كلها غريزية .

فهى لاتعطى دمعها بإرادتها ، ولاتعطى لبنها بإرادتها ، ولا عواطفها بإرادتها . .

ولو جلس الموت على حجر أية امرأة لأرضعته واحتضنته وبكت من شدة التأثر !

(١٨)

زوجة على أمين تزور أخبار اليوم . بعد تأميمها كما تزور زوجة كاى شيك الصين الشعبية !

* * *

سألنى خالد محيى الدين عن رأيى فى أخبار اليوم الآن . . أى عندما أصبح رئيسا لمجلس إدارتها . . فقلت : انتهى عصر الحمام البرى . . وبدأ عصر الحمام الزاجل !

* * *

محلية هى . . أو فورموزا

* * *

تعيين سيدة مثل معروفة وزيرة مثلا ، يعتبر ترقية لها . .

ولكن تعيين سيدة مجهولة وزيرة يعتبر اكتشافا وخلقاً ؟ لسيدة من عامة الشعب !

* * *

مجلة « هى » : هى محاولة لتكذيب المثل الذى يقول : إن المركب التى بها رئيسان تغرق . . فهذه المركب بها أربعة أو خمسة من الرؤساء . . إنها لايمكن أن تغرق . . فهى لم تبرح الشاطئ !

* * *

مجلة هى . . أو العشاء الأخير !

(١٩)

توفيق الحكيم يهاجم جائزة نوبل . .

سارتر رفض جائزة نوبل . . فهذا الرفض هجوم عليها !

توفيق الحكيم رفضته جائزة نوبل . . ولذلك فهو محتاج إلى أن يهاجمها !

* * *

فى « المجلس الأعلى لرعاية الفنون والأداب » شاعر كان يعمل جرسونًا . . وشاعر ثان قد كان يعمل بوابًا . . وشاعر ثالث كان يعمل فلاحًا . .

اقترحت على يوسف السباعى ، أن يصبح اسم هذا المجلس : المجلس الأعلى لرعاع الفنون والآداب !

(٢٠)

العبارة التى تقول : كل نبى فى وطنه مهان ، مقصود بها فى بيته . . ومع زوجته بالذات !

* * *

عندما يتحول البيت إلى مستشفى ويقوم فيه المرضى بدور الأطباء . . فهل الحنان يكفى للعلاج !

* * *

أنا أعتقد أن آدم وحواء عندما تشاجرا لأول مرة قالت له حواء : لقد عرفتك وأنت تأكل الأعشاب فقدمت لك التفاح !

فهى لابد أن تقول له شيئا . .

ولابد أن تقول له أنها قدمت له شيئا جديدا . . ولابد أن حياتها معه قد أحدثت تغيرًا هائلا فى حياته . .

وهى لاتفكر هى فيما فعلته التفاحة فى حياته أو فى حياتها !

المهم أنها وجدته حيرانا فجعلته إنسانا !

لو أحس الإنسان فى كل لحظة أنه ضئيل أمام عظمة الله . . لظلت أعناق الناس تزحف على الأرض . .

ولكن لأن الله أخفى عظمته عنا ، فإننا نمشى مرفوعى الرأس كأننا آلهة !

* * *

إذا بكت المرأة ، فأنت الذى أبكيتها ، وإذا ضحكت فلأنها مرحة !

* * *

لايمكن أن تتحدث المرأة عن الفراغ وشغل وقت الفراغ إلا عندما تكون تعيسة . . فهى ترى فى شغل وقت الفراغ بعيدًا عن البيت ، وانشغالا عن الزوج واهتماما بغيره من الناس ومن الأشياء . . فليس عندها فى الحقيقة فراغ . . ولكن عندها رغبة فى أن تعطى للبيت وقتا أقل ، وللزوج اهتماما أقل !

فشغل الفراغ هو نوع من التهديد الخفى من الزوجة للزوج !

* * *

مفهوم الخيبة عند الزوجة هى أنها وجدت الزوج لايساوى شيئا . . أو لم يعد يساوى شيئا فى نظرها !

فكأنها ـ حتى إذا لم تكن قد ضحت بشىء ـ قد خدعت فى النهاية !

فهى لم تجد ما تريد . . فكأنها أفطرت على بصلة !

* * *

شيء غريب يحدث فى حياة الأزواج . .

فالمرأة قبل الزواج كانت تهتم بالرجل . . تهتم به لأنها حريصة عليه . . لأن هذا الاهتمام هو سلاحها الوحيد للحصول عليه فى النهاية .

وهذا الاهتمام من جانب المرأة هو الذى جعل الرجل يتجه إليها ويكون لها . .

وبعد الزواج لم يعد هناك مبرر للاهتمام بالشيء الذى حصلت هى عليه . . وحصل هو عليه !

فكلاهما موجود . . سواء اهتم أحدهما بالآخر أو لم يهتم !

فهذا الاهتمام السابق على الزواج هو الذى خلق الزواج . . والزواج نفسه هو الذى قضى على الاهتمام !

ولذلك يحس الرجل بأنه فقد شيئا هامًا ، شيئا جعله يعيش ساعات سعيدة . .

ربما كان فقدان هذا الاهتمام بالنسبة للرجل هو الذى جعله يبحث عنه مرة أخرى . .

لأن الرجل لابد أن يكون موضع اهتمام !

وتنسى المرأة بعد الزواج عندما تتهم الرجل بأنه لم يعد يهتم بها ، أن اهتمامه بها كان رد فعل لاهتمامها هى . .

فهى لاتهتم بالرجل ، ولذلك لايهتم بها . .

واهتمام الرجل هو صدى لاهتمامها . .

فإذا لم يكن هناك صوت ، فكيف يكون الصدى ؟!

* * *

من وجهة نظر زوجتك :

كانت تقرأ لك قبل الزواج بمتعة ، لأنك ضمن هواياتها . . أو لأنها صاحبة هدف . . تقرأ لك كما يقرأ السائح الأجنبى كتابا عن بلد سيزوره أو سيقيم فيه . . ولكن بعد الزواج تقرأ لك كما يقرأ الطلبة الكتب المقررة فى المدارس . . فهى تقرأ لأنها مطالبة بأن تقرأ ، لأنه من الواجب أن تقرأ . .

ولم يتمكن إنسان أن يجعل الواجب لذيذا . فالحب قبل الزواج هواية . .

والزواج احتراف . .

وقليلون جدا الذين يهوون كأنهم محترفون ، أو يحترفون كأنهم هواة !

* * *

صف شعورك بعد أن تتناول طعام الإفطار . . كيف كان شعورك قبل أن ينضرب المدفع . . كيف كان شعورك طول النهار !

بعد الإفطار هذا هو شعور أية زوجة !

فالإفطار يحقق أمل وإنما هو خيبة أمل ، فالشبع يسد النفس ويبلد المشاعر ، كأنه حالة فشل . . كأنه حالة من الخيبة المعوية . . والعاطفية والعقلية !

* * *

لايمكن أن تكون الزوجة منصفة لزوجها . . لأنها تراه من خلال متاعبها معه . . تراه من خلال حرمانها منه . . تراه على أسوأ حال . .

فهى ليست ناقدة له . .

لأن الناقد معروف فيه أن يكون نزيهًا . .

وهى لاتستطيع أن تكون نزيهة إذا كرهته . . ولذلك فالزوجة هى أقسى أنواع المؤرخين بل هى أسوأ أنواع المؤرخين !

بل إنها ليست مؤرخًا على الإطلاق !

وإنما هى مخترع ينقصه الخيال . . بل إنها قاتل يراه الناس بريئًا !

(٢١)

وعندما احترق المصباح وتكسر زجاجه فى يدى . . أحسست أننى سقطت فى قفص حديدى . . كل أعواد هذا الصندوق هى عبارة عن أسئلة صاحبة البيت وبقية السكان . .

وكانت الطريقة الوحيدة لأن أنقذ نفسى من هذا الموقف هى أن أنزل إلى الشارع . . ونزلت . .

وشعرت أننى أنقذت . . فلا قفص ولا أعداء

وتلفت حولى إلى الناس وكنت أقول : هذا الرجل الذى يمشى هناك لايستطيع أحد أن يتهمه بشىء . . لايستطيع أن يمسكه من ملابسه . .

ولا يستطيع أحد أن يتهمنى أنا أيضا . .

ففى هذا الضياع الشديد وجدت نفسى . . أنقذت نفسى . .

وعرفت هذا الشعور كثيرا بعد ذلك . . كلما أحسست بضيق . . وجدت أن الشارع هو منقذى الوحيد . . أرضه . . الناس الذين ينظرون ولا يرون . . وكلهم خير لا يصيبنى . . وشر لا يؤذينى . .

هنا فقط فى الشارع استطعت أن أجد نفسى . . وعرفت أن رجل الشارع هو الرجل الذى ينقذ نفسه دائما . . وأن الشارع هو الشاطئ . . وأن البيوت وهى الأمواج المغرقة .

وأن الشارع هو الشاطئ وأن البيوت كلها مطبات . . آثار . . !

آبار مقلوبة سطحها تحت وأعماقها فوق !

(٢٢)

المثل يقول : وهل تخرج الأظافر من اللحم . . وضعت يدى على أصبعى الذى انحشر فيه أظفرى وقلت : ياريت !

(٢٣)

هناك عقدة اسمها عقدة الامتنان . .

وهى أن يشعر الإنسان بأن الناس لاتشعر بفضله عليهم بما فيه الكفاية . .

وهذا الشعور يجب أن يكون مطلقا من أى زمن ومن أى قيد . . فأنا أشعر بأننى أديت لك خدمة أو جميلا . . وأن يبقى هذا الفضل تاجا على رأسك فى كل الظروف . . حتى لو وقعت على الأرض . . حتى لو دفعك إنسان إلى الأمام وسقط منك هذا التاج . . وحتى لو كان هذا الإنسان هو أنا . . أنا صاحب الفضل عليك !

وأحيانا أحس أننى يجب أن أتلقى منك الشكر فى كل مناسبة بل ليس من الضرورى أن تكون هناك مناسبة .

يكفى أنك مدين لى بشىء . . حتى لو سددته ألف مرة ، يجب أن تذكر أننى أنقذتك مرة . .

ويقابل عقدة الامتنان هذه عند صاحب الفضل ، عقدة العقوق عند الذين أسديت لهم هذا الفضل . فيشعر كل إنسان بأنه مضطر إلى أن يبدى امتنانه . . مضطر إلى أن يبدو شاكرا أو تهاجم الأغلبية . . وأن يحس طول الوقت أنه أخذ أكثر مما أعطى .

ومن هاتين العقدتين كانت العبارة التى تقول : اتق شر من أحسنت إليه . .

صاحب هذه العبارة رجل عنده عقدة امتنان . . فهو لم يحظ بالامتنان الكافى . . بالامتنان الذى يجب أن يناله . . أو الذى يستحقه . .

(٢٤)

النكتة سلاح يطلقه مجهول ضد القوى . . سواء كان القوى هو الغنى أو هو الحاكم . .

وهى سلاح معترف به . . ومعروف بأنه يعبر عن فاعل مجهول . . ولكنه فاعل يستريح له الناس . . لأنه هو أيضا من الناس .

والضعيف من الممكن أن يكون الأقلية . . اليهود فى العالم . . أو فى أوروبا . . أو المسلمون فى الهند . . أو أية أقلية . .

وهذه الأقلية تنتقم من الأغلبية القوية عن طريق النكتة . وليس غريبا أن يكون معظم رسامى الكاريكاتير من الأقليات . . أى من الأقلية التى تهاجم الأغلبية . . وهى فى نفس الوقت تستمد من الأغلبية وتضحك عليها . .

أى يسرق منها المحفظة ، وهى تزغزغها !

* * *

الزواج كالطرطور يدفئ الرأس ولكنه يخفيها !

* * *

المرأة دنيا : لاتفرح إذا أعطتك فسوف تأخذ منك . . ولاتحزن إذا أخذت منك ، فسوف تأخذ مرة أخرى !

(٢٥)

الناس تأخذ باليد اليمنى ، ولكنها تعطى باليد اليسرى . . فاليد اليمنى قادرة مجربة ، أما اليسرى فهى جاهلة مترددة !

(٢٦)

فوق الخشبة . .

اسم مجموعة قصص قصيرة عن الحياة فى الأندية . . وعن المعانى الجاهزة التى يعطيها كل ناد لغيره من الأندية الأخرى . . وعن المعانى الجاهزة للارتداد . .

- يكفى أنه زملكاوى . . مثلا !

- عن حياة المقاهى . .

- عن الخلافات العائلية . .

- عن المعانى الخاصة للألفاظ المستحدثة فى كرة القدم . .

- عن المعانى الجديدة . . شبكة . . هدف . . تسلل . . مثلا : داخل وخارج ومتسلل . .

- ضربة فى منطقة الجزاء . .

- عن عالم آخر لا علاقة له بالسياسة . .

- عن عملية الاختيار ، وبعد ذلك فقدان أى اختيار . .

- الملابس الجاهزة التى يعدها عالم الكرة لأبناء النوادى الأخرى . . مسرحية « اندورا » لماكس فريش عن المعانى والمواقف الجاهزة التى يعدها المجتمع لأى يهودى مثلا . .

- مفهوم العدل والحرية . .

- معنى اللياقة الجسمية . .

– نوع من الوثنية . .

– بطولات مؤقتة . . أو بطولة نصفها لعبة . . ونصفها لعبة أيضا !

– أعمارهم قصيرة . .

– الجمهور يريد أن يتسلى . . التسلية بأى ثمن !

– فرصة لتقريب المسافات بين الناس .

– فرصة لكى تهرب من النظرة . . . من عيون الناس فإذا بى أرتدى ملابس كرة . . وأتكلم عن المباريات .

– نوع معين من المشى والحركة . . فلاعب الكرة قد لايعرف المشى ولكنه يعرف الجرى وفى نطاق ضيق . .

– كأى فن . . يحتاج إلى مجهود . . إلى تمرين إلى لياقة . . إلى ثقافة . . فليس بساق وحدها يعيش الإنسان . . فهذه الساق لها عقل !

– اللاعب القديم أو الذى كان نجما ثم لم يعد كذلك يضايق الجمهور لأنه يعطل اللعبة ولأنه يخدعهم . . تماما كسيارة كاديلاك موديل قديم فتعطل المرور ، لايهم الناس أنها كاديلاك . . ولكن يضايق المشاة وأصحاب الدراجات والسيارات الصغيرة أنها تعطلهم فقط . !

– طلب غريب جدا : توفيرا للحشيش تمنع أم كلثوم من الغناء . . اقتصادا فى السجائر تمنع مباريات كرة القدم . . حتى لايكون فى القاهرة هباب نوقف السيارات . . توفيرا للورق نلغى الصحف . . تحقيقا للهدوء نلغى الإذاعة . . وكلها اقتراحات مجنونة !

(٢٧)

اتفقنا : هى تحاول أن تجد المعنى فى كل شىء . . وأنا أحاول أن أجد سخافة فى كل معنى . .

هى تبحث عن المعنى . .

وأنا أبحث عن معنى السخافة . .

هى تجد بسهولة هذه المعادلة : كل شىء له معنى وأنا أجد بسهولة هذه المعادلة : كل شىء بلا معنى . .

هى تقابل الدنيا بفم مفتوح ، وذراعين مفتوحين ، وأنا أسد فمى للدنيا وأضع لها يدى فى جيوبى ، تمهيد لأن أدير لها ظهرى!

هى تقول للدنيا : نعم . .

وأنا لا أقول لها : نعم . . ولا أقول لها : لا . .

وإنما فقط أتساءل : نعم ؟ لا؟

* * *

اللغة التى تنشرها الصحف الآن هى خليط من العربية والأجنبية . .

لامانع من أن تكون هناك كلمات أوروبية . . ولامانع من وجود تعبيرات أجنبية مفهومة . . ولكنها لغة غير مفهومة كأنها خليط من لغات أجنبية مكتوبة بحروف عربية . .

وكذلك النطق العربى . . فهو غير مألوف على الأذن . .

هذه اللغة يمكن تسميتها اللغة العرنجية . . العربية والأفرنجية .

الفرنسيون يسمون الخلط بين الإنجليزية والفرنسية (الفرنزية) أى الفرنسية والإنجليزية .

(٢٨)

شارع التنهدات (مرة أخرى)

هو الذى يبدأ من إمبابة مارًا بشارع ٢٦ يوليو حيث بيتنا القديم . . ثم نفس الشارع إلى الزمالك حيث البيت الحالى . .

شجرة سقطت على الأرض وعليها طيور وأوراق . . شجرة ميتة ، ولكن عليها حياة . . بقايا حياة !

هنا تنهدت لأول مرة . .

هنا تنهدت من قلبى . . وهنا من عقلى . . وهنا لأننى لم أجد فى عقلى أو قلبى شيئا . .

هنا تنهدت لأننى بلا تنهدات . . لأننى محروم من أن أقول : آه على فقدان شىء !

هناك تنهدت لأننى أضعت عمرى فى التنهدات .. ليس هذا شارعا إنه أخدود .. إنه نفق يمشى تحت الأرض !

(٢٩)

لعبة الأيام ..

قصة شاب له أصدقاء اسمهم : رجب وشعبان ورمضان وخميس وجمعة .. كل حياته مرتبطة بهؤلاء .. حياتهم تدور حول ثلاثة شهور ويومين .. إنها لعبة الأيام !

(٣٠)

أرسلت إلى مصطفى أمين خطابا ردا على مقال كتبه عنى بمناسبة حصولى على جائزة الدولة التشجيعة عن كتابى (حول العالم ٢٠٠ يوم) انتهز مصطفى أمين هذه المناسبة ليسحب نصيبه من الجائزة .. فهو الذى قدمنى للصحافة ، وهو الذى ألقى بى فى محيطها ، وكنت خائفا .. ولكنى أصبحت فى النهاية أحد أبطالها .. وكذلك فعل بتوفيق الحكيم ..

ومعنى مقاله أن الجائزة قد تسلمها هو من الرئيس عبدالناصر ، ولكن بيدى .. فأنا فقط أقوم بدور الوسيط .. وسيلة انتقال ..

لم يكن المقال تكريما لى ، ولكن تكريما له بمناسبة أننى أخذت الجائزة .

تماما كما يفوز أحد الرياضيين ببطولة جمال الأجسام فينتهز مكتب الصحة فى شبرا - مثلا - هذه المناسبة فيعلن أنه السبب .. وينشر اسم الطبيب المولد والحكيمات وشهادات التطعيم ضد الجدرى وضد شلل الأطفال ..

كان من الممكن ألا يكون هذا شعورى وشعور الآخرين ، لولا إصرار مصطفى أمين على أنه هو صاحب الفضل .. وأننى قد اعترفت بذلك فى كتابى « حول العالم فى ٢٠٠ » ثم نقلت فقرات من هذا الكتاب أؤكد فيها هذا المعنى .

وعندما أعدت طبع هذا الكتاب غيرت كل صفحاته واستبقيت الفصلين الخاصين بمصطفى أمين وعلى أمين .. وجاء فى مقال مصطفى أمين أننى متردد مقدام ، وأننى عبقرى لدرجة الغباوة !!

وتذكرت قول الشاعر الذى ذهب إلى ترزى أعور ليفصل جبة وقفطانا .. وخرج من عنده وهو يقول :

خاط لــــى زين قبــــاء   ليت عينيه سواءْ
قـلّ مـن يعــرف هــذا   أمديح أم هجاءْ

ولم يعرف أحد إن كان يمدحنى أو يهجونى ، ولكن من المؤكد أنه يمدح نفسه .

وأرسلت إليه خطابا أقول فيه : اسمح لى أن أستعير أسلوبك فى الكتابة لأعرب عن مدى امتنانى لما كتبت :

« بذكائى أشكرك ، وبغبائى أكرر الشكر ! »

وغضب مصطفى أمين وعلى أمين أيضا !

(٣١)

يسقط الحائط الرابع . .[١]

عنوان كتاب عن دراسات لمسرح العتبة . . اللامعقول !

(٣٢)

المرأة لايمكن أن تتخلص من شعورها كأم . . فهى أم لكل شىء . . إنها ترضع المتاعب والمشاكل . . ولاتستطيع أن تحل مشكلة واحدة . .

وأول تهمة توجهها المرأة لأى إنسان هى أنه أنانى . . أنه مشغول بنفسه . . وهى حقيقة ثم إنه مشغول بنفسه عن الشعور بما يقدمه الغير لها . . أى بما تقدمه هى له .

ولايوجد إنسان اتصل بامرأة أيا كانت هذه الصلة دون أن تصفه بالأنانية وعدم الامتنان . . أو الجحود !

لايمكن أن تحقق المرأة أى نصر أى تقدم ، لأنها مشغولة بنفسها دائما ، وعالمها لايتجاوز حدود جسمها . . ولذلك كانت تمضى معظم وقتها فى العناية بجسمها . . وفى انتظار ما تستحقه أو مالاتستحقه من الإطراء على نفسها . . أو على ما فعلته بجسمها . . من زوجها أو من أى إنسان آخر . . بل إنها أحيانا تنقل إلى الزوج رأى الآخرين فيها . . لعله يقول مثلهم . . أو لعله يتنبه إلى ما عندها من المزايا التى لايعرفها . . ويعرفها غيره من الناس ! أو لعلها تثير غيرته !

* * *

(١) صدر لى كتاب بهذا الاسم .

والمرأة فى حالة دفاعها عن نفسها فإنها تتحول إلى أسوأ أنواع الأعداء !

* * *

والمرأة لا رأى لها ، ولاتحب أن يكون لها رأى ، وإنما هى حريصة على أن تكون صدى لرجل .

مسرحية «الكراسى» للأديب الفرنسى يونسكو كانت الزوجة صورة مملة سخيفة للمرأة يحملها الرجل وتخجل منها المرأة ، وإن كانت هذه هى حقيقتها فهى صدى لذوق رجل . . لرأى رجل ، ولذلك فالمرأة من الممكن تكون أحسن داعية . . تنقل الآراء فقط وتشيعها وتذيعها ، وتتحمس لها ، كأنها أراؤها ، وهى فى الحقيقة ليست لها . . تصبح هى كأنها الصدى نفسه !

* * *

والمرأة لاتحب الأناقة لذاتها . . ولا النظافة ولا التجميل ولا أى شىء . . من أجل هذا الشىء . . وإنما من أجل رجل !

* * *

كما أن هناك حبا من طرف واحد ، هناك زواج من طرف واحد أيضا !

* * *

سئلت فى إحدى المحاضرات :

– لقد كان فلان ممتنعا عن الزواج فكيف تزوج بعد ذلك ؟

وكان ردى انه لا يزال ممتنعا عن الزواج . . من أربع !

* * *

وسئلت : هل الزواج ضرورى للفنان ؟!

– نعم لأن الألم ضرورى !

(٣٣)

هناك نوع من الأدباء يقومون بدور كاسر الأمواج فى مداخل الميناء !

* * *

إن الفنان بيجماليون عندما أراد أن تدب الحياة فى تمثاله ، لم يكن ذلك إلا حقدا على التمثال نفسه فالعمل الفنى أبقى من الفنان .

سيعيش التمثال مئات السنين بينما يموت الفنان قبل أن يكمل المائة سنة !

فإذا دبت الحياة فى التمثال ، فلكى يعيش بعض الوقت ثم يموت . . فكل ماهو حى ، فان !

والتمثال بلا حياة ولذلك يبقى مئات وألوف السنين . ولكن إذا كانت فيه حياة ففيه موت أيضا !

إذن لقد أراد أن يبعث فيه الحياة ليموت !

وعندما أجابته الآلهة إلى رغبته فى أن تدب الحياة فى التمثال ، فلكى يعرف أنه هو أيضا فان !

* * *

(كان فى نيتى أن أتحدث طويلا جدا جدا جدا عن الزكام) . . فاقفلت القوسين من شدة البرد !

(٣٤)

لاتتصور أبدا أن المرأة عندما تعطى فهى لاتنتظر المقابل ، إنها تعطى وعينها على الثمن ، حتى لو كانت أمك !

فالأم التى ترضعك وأنت صغير تحاسبك فى يوم من الأيام وتقول لك : أرضعتك !

مع أنه لم يكن فى استطاعتها ألا تفعل ذلك فهى ترضع صغيرها كأى أم ، لإنسان أو حيوان .

ثم إن الطفل الذى كانت ترضعه هو إنسان غيرك أنت الآن .

ولكنها عندما تطالبك بالمقابل ، فهى ليست أما ، وإنما هى امرأة قبل كل شىء !

ولو قدر لإنسان أن يعطى امرأة سيجارة كل يوم لمدة ألف سنة ، وأعطته هى سيجارة يوما واحدًا لطالبته بالمقابل ، مع أنه لم يطلب منها مقابلا لسجائره !

والمرأة لاتنسى مطالبها فى أية لحظة . . مهما كانت مستغرقة فى حب وفى هيام ، فهى فى كامل وعيها . . وهى بين أحضانك وتبدو فى غيبوبة . . إنها ليست كذلك فهى لاتنسى أن تطلب إليك أن تقول : إننى أحبك . . ولن أعيش بغيرك .

مع أنك أنت تكون فى حالة غير قادرة على الكلام . . ولكن المرأة لاتنسى نفسها ولاحقوقها ، وتطلب إلى الرجل فى أضعف حالاته النفسية أن يكذب عليها . . ويسعدها أن يكذب عليها ، ولكن يسعدها أكثر أن تأخذ من الرجل أى شىء !

ويخيل إليك بعد ذلك أن الذى قلته فى هذه الحالة المنتشية قد نسيته المرأة . . أبدا إنها لاتنساه . . ولاتخجل أن تذكرك به !

* * *

لايمكن أن يكون الكلام عن الجنة والنار فى الدنيا له أية دلالة غير إنسانية . . فالنار هى الناس وأعمق أعماق النار هى المرأة .

فبشرى للمتزوجين . . سيدخلون جميعا الجنة ، لأنه ليس من العدل أن يدخل الناس النار مرتين . . أحياء وأمواتا !

فهل صحيح أن المرأة هى أيضا تدخل نار الزوجية . . أعتقد أن النار نفسها لاتشكو من النار . . والخشب الملتهب لايحرق نفسه . .

فالمرأة نوع من المعادن غريب . . لاتذيبها النار ولاتحرقها . . إنها تشكلها فقط !

(٣٥)

روى لى الشاعر الروسى يفتشنكو أنه دعى للعشاء فى بيت روبرت كيندى ، وعندما قدموا له الشمبانيا قال لهم : إن هناك أسطورة روسية تقول : إن الإنسان يجب أن يتمنى شيئا ثم يكسر كأسه فورا .

فأقترح يفتشنكو أن يشربوا جميعا فى صحة روبرت كيندى رئيس الجمهورية القادم .

وقبل أن يرفعوا الكؤوس اتجه روبرت كيندى إلى زوجته يسألها إن كان من الممكن أن يكسر كأسه ، فأشارت عليه أنه لا مانع .

وألقى بالكأس على الأرض !

وقال يفتشنكو إن هذا الرجل لايمكن أن يصبح رئيسا لأمريكا ولأنه لايستطيع أن يتخذ قرارًا فى كسر كأس دون أن يستشير زوجته !

* * *

قال لى يفتشنكو إنه فى عيد ميلاده فى إحدى القرى شرب الفودكا هو وأصدقاؤه فاضطروا إلى الذهاب إلى الأجزخانة فشربوا الكحول وزجاجات الكولونيا ، وعندما احتاجوا إلى مزيد من الكحول وجدوا الأجزخانة مكتوب عليها من الخارج : لم تعد لدينا كولونيا !

* * *

لاحظ يفتشنكو أن بنطلونه مفتوح فقال : واحد يهودى مات !

ولما سألت عن معنى هذا التعبير قال لى : إنه من عادة اليهود إذا مات عندهم أحد تركوا الباب مفتوحا . .

فقلت : لو كان فتح الأبواب يؤدى إلى موت اليهود لفتح العرب بنطلوناتهم الى الأبد !

فغضب لان زوجته يهودية !

* * *

على إثر مناقشاتى وتعليقاتى الشائكة أحيانا على ما يقول صرخ قائلا ومستجيرا بالصديقين كامل زهيرى ورجاء النقاش قائلا : ارحمونى من هذا الرجل . . عنده انتصاب عقلى !

(٣٦)

ما الذى يحمى رسام الكاريكاتير ؟

يحميه من غضب الناس أنهم لايأخذونه مأخذ الجد . . أو أنهم يرونه مهرجًا . . فهذه النظرة هى التى تحميه من غضبهم . .

وهى نظرة ليس فيها احترام . .

فكأنه يعيش على احتقار الناس له . .

إنه مثل إنسان مغطى بالزفت . . هذا الزفت يغرى الإنسان بالابتعاد عنه حتى لايتسخ . . فهذا الاتساخ هو الذى يحميه من غضب الناس !

(٣٧)

كتاب عن الرحلات اسمه : الدنيا الواسعة !

(٣٨)

كتاب عن اليهود اسمه : الحائط والدموع [١]!

* * *

٥ يونيو سنة ١٩٦٧ كان مثل كسر رجل لنا . . وأن يذهب جمال عبدالناصر ـ لأى سبب ـ هو كسر عنق لنا . . وللعرب جميعًا !

(٣٩)

القاهرة . . ليست مدينة فقط . . إنها حالة عقلية !

فى لحظة واحدة تنتقل العين من برج القاهرة إلى أهرام الجيزة . . أى خمسة آلاف سنة . . ومن السفارة السوفييتية إلى فندق شيراتون . . ومن شيراتون إلى هيلتون . . ومن فندق شبرد إلى السفارة البريطانية . .

وفى الشمال لم يعد هناك سردين فى البحر ، لأنه لاتوجد مياه النيل ، وفى الجنوب تعرض أسماك الواحدة فى حجم المائة سردين . . لأنه يوجد السد العالى . . هذه الأسماك نصيدها ونلقى بها فى بحيرة ناصر . . لأنه لاتوجد ثلاجات لحفظها . . والشوارع كلها مضاءة . . والسيارات مصابيحها مغطاة بالأزرق . . وفى الشوارع جدران صغيرة لحماية الناس من القنابل ، هذه الحوائط ـ ألوف الحوائط ـ لاشبه بينها وبين حائط المبكى الوحيد فى القدس .

(٤٠)

فكرت أن أكتب وصية . . وعدلت عن الفكرة لسخافتها . . لا لسخافة أن أكتب . . ولكن لتفاهة ما أوصى به . . !

لا شىء يستحق أن أعيش من أجله . . ولا أحد !

* * *

(١) صدر لى كتاب بهذا الاسم .

لو كنت أعرف ما فكرت . . ولو كنت فكرت فيما فعلت . . والمصيبة أننى أعرف وأفكر ، وأفكر وأفعل كأننى برأسين وجسمين وأمشى فى اتجاهين . . اننى أتآمر بعضى على بعضى !

(٤١)

السماء لاتقاس بالشبر !

عنوان قصة . .

(٤٢)

هانت الدنيا كلها . وهنت أيضا !

فلم أعد أجد لها طعما ولا معنى . . ولا أعرف أين ذهب الطعم والمعنى . . لسانى لايزال ممدودا إلى كل شىء وحول كل شىء . . وكأنه شريط من الجلد .

وعقلى لايزال دائما وراء كل شىء . . يطارد المعانى . . ويلقى القبض عليها . . ويداعبها ويدوخها . . ثم يطلقها . . ويعود إليها . . ولكنه فقد القدرة على الصبر والمطاردة . . أو هو لايريد . . أو هو يتساءل وما معنى المصيبة والمطاردة . . وما معنى هذه اللعبة .

أهو التعب ؟!

يجوز !

أو هو الرغبة فى التعب ؟!

يجوز !

إننى أتخيل نهايات كثيرة لعقلى وفكرى وحياتى . . أريد أن أعيشها قبل أن تقع . . ولكنى لا أعرف .

المصيبة . . أنه ليس عندى وقت لكى أفكر فى نفسى . . أحيانا أحس أن هذه نعمة . . وأحيانا أحس أنها كارثة . . ولكن الذى أجده فى داخلى يوجعنى . . يفزعنى . ولذلك لا أريد أن أراه أو أسمعه . . أو ألمسه . . أو أحصيه . . وأجد الراحة فى ألا أجده . .

ولكنى أفاجأ كثيرًا بمتاعبى تطفو على الوجه . . على وجهى . . أو على وجوه الناس . . أجد وجوها كأنها همومى . . كأنها مخاوفى . . كأنها قرفى . . يأسى . . ولا أعرف من الذى أرسلها لتفزعنى أو لتجعلنى أذكر أحزانى القديمة . . التى لا تريد أن تكون قديمة . . أحزان كأنها دائنون يطالبون بديون قديمة وفوائدها . . مع أننى والله يعلم دفعت ديونًا وفوائد مضاعفة !

إن الحياة لعنة . . والحرص عليها لعنة اللعنات !

لو كنت أعرف حكمة لأى شىء !

ولكنى لا أعرف !

(٤٣)

دود على عود !

– عبارة لعمرو بن العاص وهو يصف ضآلة الناس عندما يركبون السفن فى البحر !

(٤٤)

عنوان كتاب :

واحد من الناس !

(٤٥)

لابد أن تكون الخطبة التى ألقاها الرئيس جمال عبدالناصر بعد النكسة هى بداية الشعور بأن الضحك جريمة . . بأن النكتة إثم . . وإن كان هو قد طلب إلى الشعب أن يرحموا الجنود المقاتلين من السخرية بهم . . لأن السخرية بهم ، هى سخرية بنا أيضا . . كأنه طلب من الناس أن يرحموا أنفسهم من أنفسهم !

ولكن كان من أثر هذه الخطبة أن أصبح هناك شعور عام بتأثيم النكتة وتجريم الفكاهة . . فأعلن المسرح الحداد . .

ولم تنته فترة الحداد حتى الآن !

(٤٦)

أشعر بضيق شديد . . وأجدنى مدفوعًا نحو الشعور بأى شىء أو نحو الحياة . . وكل شىء فى داخلى يقول : لا . . لا أريد هذا ولا أريد ذاك . . ولا أريد حتى هذه الإرادة . . وأفكر فى الموت . . ولكن ليس تفكيرى واضحًا فى الموت . . فلا أعرف بالضبط إن كان هذا الذى أفكر فيه هو الموت كنهاية لى ولغيرى . . أو هل أنا أريد الموت لى وحدى . . لا أعرف . . ولكن الموت فكرة متسلطة علىّ !

آخر مرة . . كان ذلك فى إحدى المحاضرات . . والتصفيق شديد . . وتمنيت ساعتها لو سقطت ميتًا ، ولكن لم تعجبنى هذه الفكرة . . لأن معناها أن أقع هكذا وأن أصبح خبرًا تافهًا فى كل الصحف . . وأن يحاول زميل صحفى أن يبحث لى عن آخر كلمة . . وآخر عبارة . . وآخر نظرة وكيف أننى كنت أتحدث عن الموت كأننى كنت أعرف ذلك . . إلى آخر هذه السخافات !

ولكن من المؤكد أننى أريد أن أموت . . لا أريد أن أعيش . . ولا هذه الحياة . . فتعاستى مطلقة . . والذى يعذبنى كثير من التفاهات . . أكداس من التفاهات . .

ولكن لأنها أكداس فهى كثيرة . . جبل من ملايين الملايين من ذرات الرمل أى من الأشياء الصغيرة . . ولكنها معًا جبل ثقيل !

لم يعد لشىء معنى . . لم يعد لشىء طعم . .

قديم هذا الشعور . . أول مرة أحسست به كان منذ عشر سنوات . . أو ربما عشرين سنة . . فجأة رأيت بوضوح أنه لامعنى لشىء . . ولا راحة فى أى شىء ولا مع أى شىء . . ولا مع أى أحد . . ولا فى أى مكان . . السؤال فى وجدانى وفى قلبى وفى رأسى . . وفى فراشى وفى طعامى . . وجع هو كل ما يربطنى بالدنيا . وبنفسى!

عرفت ما الذى كان يعانيه : كافكا . . ودستويفسكى . . ورامبو . . وبافيزة . . وغيرهم من الذين تعذبوا واختاروا أشكالا من الموت . . ولكننى لم أقل كل ما أريد . . قلت كثيرًا . . ولكن لأن الذى قلته كثير جدًا ولأنه يحتاج إلى جهد لكى يبدوا واضحًا مركزًا فإن أحدًا لم يفعل . . ولا أعرف إن كان سيفعل . .

عبارة واحدة سمعتها من د . زكى نجيب محمود . . وقرأتها له أيضا . . لا أدرى إن كان يقصد به نفسه أيضا قال : أنت أخذت الكثير جدًا من الشهرة ، ولم تأخذ إلا القليل جدًا من التقدير !

هذه العبارة مثل منديل يجفف دمعة . . كعصا تمنع من السقوط . .

ولكن عيب هذه العبارة الجميلة أنها تجىء بعد الدموع . . وتجىء بعد السقوط . . تجىء بعد أشياء كثيرة . .

أى من الأشياء الصغيرة . .

(٤٧)

كتاب عن نكسة يونيو سنة ١٩٦٧ عنوانه :

. . قبلها بيوم !

(٤٨)

صحيح ما الذى يمكن أن أوصى به؟

لا شىء عندى . . ولا شىء أستطيع أن أنقله إلى أحد من بعدى . . إن كان هناك أحد !

ولكن لماذا لا أحد ؟!

إننى لا أجد شيئا له معنى . . إننى أتعب رأسى ليلاً ونهارًا فى أن أضع المعنى لأى شىء . . ولكن الذى أراه لا يراه غيرى ـ أقصى درجات العذاب ـ والذى أحسه وأتعذب به ليس شيئا عند غيرى ـ أقصى درجات العذاب !

لو كان الأمر بيدى لأنهيت كل شىء بيدى أيضًا . . ولكن لا أعرف حقيقة ما الذى يمنعنى من هذه النهاية ! وهل هى نهاية !

ماهى الحياة ؟ ما حياتى ؟ ما حياة أى أحد ؟

لا أعرف !

هذا هو العذاب !

فأين الراحة ؟!

لا راحة !

أين المعنى ؟ لا معنى !

وقد فكرت كثيرا فى أن أموت . .

ولكن لا أعرف كيف ؟

إننى لا أريد أن أعيش . . فليس لحياتى معنى ، لاعندى ، ولاعند غيرى .

ومن الغريب أننى فكرت فى عشرات الطرق لأنهى هذه الحياة . . ولا أعرف لماذا أنشغل عن هذا المعنى !

ربما كان هناك سبب واحد فقط : ليس الحياة . . وليس الموت . . ولكنى أريد أن أعرف أكثر . . أريد أن أجد معانى أكثر . . حتى لو لم يكن لهذه المعانى أى هدف . . أو حتى لو لم تكن قادرة على التخفيف عنى !

ولذلك عندما يتخذ إنسان قراراً بالموت فإنه يفعل ذلك بسرعة حتى لايفكر أكثر فيتراجع .

إننى أومن بأن هناك حياة بعد الحياة . . وأن هناك أرواحًا على صلة ببعض الأحياء . .

إن حياتى مع روح والدتى قصة لم أجد لها نظيرًا فى كل ما قرأت . . وأملى كبير فى أن اكتبها . . واقارن بينها وبين احلام الفيلسوف الوجودى مارتن هيدجر . . والحاسة السادسة عند الفيلسوف برتراند رسل . . ورؤى القديس أوغسطن . . وشفافيات الامام الغزالى . .

ومن المناسب أن أكتبها بسرعة لأتولى الدفاع عنها . . ولأتولى تفسيرها أيضا . . فأنا أخشى أن أكتبها فى نهاية العمر فتكون سببًا وجيهًا لاتهامى بالتخريف أو الشعوذة أو الجنون !

* * *

أفضل جدا أن يكتب الأديب قصة حياته وهو حى . . فكل من سيفعل ذلك

ظالم له . . أقرب الناس إلى الاديب هم أسوأهم فى الحكم عليه . . أكثرهم ظلما وأميلهم إلى الكذب . . دفاعا عن الناس وإقامة البطولة على جثة إنسان معذب مات !

أسرع واكتب عن حياتك . . إن هذه الحياة لها معنى عندك !

وأرجو أن أفعل مثلك !

(٤٩)

اليوم قرأت مقالا للاديس : م . ا . ع

المقال أعجبنى . . إنه مظاهرة فكرية . . إنه زفة تعلقت فيها الفوانيس ، وتطايرت فيها العصيان . . وامتدت الأيدى تصافح . . والأفواه تنحنى على الأيدى تقبلها . . لقد كان فى غاية الامتنان والسعادة .

لقد شكر الذى أطلق سراحه . . والذى فتح الأبواب أمامه . .

إنه كلاعب اختفى عن الملعب سنوات . . ولكن عندما نزل إلى أرض الملعب كان فى غاية اللياقة البدنية . . كان يعرف الأرض . . ويعرف اللاعبين . . ويعرفه الجمهور . . وعندما أعطيت له الكرة سجل أول هدف له . .

* * *

قلت ليوسف إدريس : إنك فى هذه المسرحية تستحق هذه الإصابة . . فأنت فى أول المسرحية جعلت تشوت فى الأوت . . جعلت تشوت كل قيمة . . الكرة واللاعبين والمتفرجين والحكم . . والمؤلف أيضا . . ثم إن أحكامك كلها مطلقة . .

* * *

المصيبة إننى أحس كثيرًا أننى أمشى على يدى . . وأن يدى حولتها إلى قدمين . . وإننى بين الحين والحين أعود فأقف على قدمى . . وعندما أمسك القلم أحس أن يدى كأقدام القرد . . جامدة . . جافة . . وأن المسافة بين أصابعى متباعدة لدرجة أن القلم يسقط من بينها . .

ليس القلم وإنما دستة أقلام . . وأن أصابعى منفرجة واسعة . . كأنها أكف تنقصها أصابع . . كأنها أذرع تنقصها الأيدى . .!!

(٥٠)

الفرق بين التفكير بالعقل والتفكير بالقلب . . أو بين التفكير والإهمال . . كالفرق بين التسجيل على شريط سينمائى . . والتسجيل على شريط فيديو . .

فى الأول تستطيع أن تسجل قطعة قطعة . . وأن تحذف . . وأن تضيف حتى يخرج لنا البرنامج الذى يعجبنا .

أما الثانى فلابد أن تسجله كله مرة واحدة . . وإذا وقع أى غلط فلابد أن نعيده من أوله لآخره . .

إن أفكارى هنا أسجلها بالطريقة السينمائية . . تمهيدًا لنشرها أو حذفها . . أو نشر بعضها . . !

* * *

. . إنه شخصية نافذة ناعمة . . كالإبرة ليس لها ظل . . إنه شخصية مظلفطة مغطاة بطبقة من الشحم ، يعوم ولا يغرق . . ولكن ملمسه قذر . . هذه القذارة هى التى تحميه من الغرق . . تماما كالريح الكريه الذى يطلقه الثعلب عندمايتماوت . . فإذا اقترب منه إنسان خيل إليه أنه ميت . . فهذه الرائحة الكريهة هى ستار حقير لإنقاذ حياته . . !

إنه دائرى . . لا أطراف له . . إنه كروى . . فقد أخفى أطرافه فى أحشائه !

* * *

إنه يضحك من كل قلبه . .

إذا كان المقصود بالقلب هو الحنجرة !

انه يضحك من كل قلبه !

* * *

أعرف بالضبط أين أنفق توفيق الحكيم سبعين قرشا من ماله هذا العام . .

لقد أرسل يعزى أسرة العقاد فى فقيدها بعشرين قرشًا . .

أما الخمسون قرشًا الباقية فقد اشترى بها كتابى «حول العالم فى ٢٠٠ يوم» .

* * *

الكاتب عندما يكتب ثم يشطب . . ويمزق الورق الذى كتبه . . كالراقصة التى تمزق ملابسها . . وتنزعها واحدًا واحدًا . . إنها هى الأخرى تحاول أن تعبر بجسمها فلايعجبها التعبير فتمزق ملابسها!

* * *

أو على الأصح : الراقصة عندما تهز وسطها وتروح وتجىء وتتغير الألوان حولها كأنها عواطف . . عواطف خارجة . . عواطفها خارج جسمها . . وهذه العواطف هى التى تصنع حركاتها . . ثم إنها حائرة دائرة دائخة . . تثور وتنحنى وتتراجع . . . وتبدد أثوابها . . وتمزقها . . وتنكش شعرها . . كأنها فنان يرسم . . كأنها كاتب يكتب . . ولكنه كتب شيئا أعاد كتابته . . ثم راح يمزق أوراقه ليعيد ما كتبه مرة أخرى . .

إنها تعبر . . والذى تعبر به لايعجبها . .

فالذى يعجبها ليس ما تعبر عنه . . وإنما ما تعبر به . .

ليس التعبير . . ولكن وسيلة التعبير . طريقة التعبير !

(٥١)

يريد توفيق الحكيم أن يصف نفسه بأنه آدم الأدب الحديث . . فكل الأدباء أبناؤه . . فهو أبو القصة القصيرة . . وأبو الرواية وأبو المسرحية . . وأبو التراجم الشخصية . . وأبو اللامعقول . . وأبو السريالية . .

وهذه هى خطيئة آدم . .

فهو آدم بغير حواء . . ونمو توفيق الحكيم كالانقسام الذاتى . . والتكاثر التلقائى . . فهو ينفلق وينشطر . . وينمو . . على كل شكل ولون . .

وآدم ينافس أبناءه من الآدميين . .

فهو يسبق إلى رؤية التجديد والتطلع إليه . .

وآدم لايزال مراهقًا . . فهو عنيف وهو مثير وهو شاب . . وهو يحرص على منافسة أبنائه إلى قلوب بنات الشعر وبنات الفكر .

والفرق بين آدم الحكيم وآدم عليه السلام . .

أن آدم هو أول انسان فى العالم . . ولكن الحكيم ليس أول أديب فى الدنيا . . ولا فى تاريخنا . .

وتوفيق الحكيم يريد أن يقول إنه قد ضرب بأصابعه على كل أصابع البيانو . . وأن كل المعانى جاءت على قلمه . . وأنه أبوها . . فهو يريد أن ينكر على أولاده أنهم أتوا بجديد . . وإنما يريد أن يقول إنه هو الذى سبقهم إلى التجديد . . وأنه هو ارتاد عوالم جديدة لم يعرفوها إلا أخيرًا . . أو أن المعانى قد راودته ولكنه لم يعرف أسماءها .

وهو كآدم عليه السلام ، رأى كل شىء ، ولم يعرف اسمه . . فالله يقول : وعلم آدم الأسماء كلها . .

وآدم الحكيم عرف الأشياء . . وفكر فى هذه المعانى . . وترك لأولاده من بعده أن يبتكروا الأسماء . .

ويظهر أن الأديب فى مرحلة من عمره . . خصوصا هذه المرحلة الأخيرة يخشى أن يوصف بأنه غير متطور ، فإنه يصف نفسه بأنه تطور وسبق التطور . .

كان العقاد يحمد الله على أن أسلوبه لم يتغير منذ بدأ الكتابة . . أى أنه قد اهتدى إلى نفسه منذ البداية . . أى أنه لم يتغير . . وأنه الآن فى أحسن حالاته .

كأنه من العيب أن يتغير . .

كأنه ليس طبيعيًا أن يتغير . .

فأسلوبه فيما مضى كان أكثر نبضًا ، وكانت نبضاته موسيقية . . ففى أسلوبه سجع . . أحيانا مقصود وأحيانا غير مقصود .

اذكر أنني قلت للعقاد إننى قرأت أحد كتبك القديمة .

فقال لى : كيف وجدت الفرق بين ما أكتبه الآن وما أكتبه فيما مضى؟

فقلت له : نفس الطريقة .

ولم يكن واضحًا فى ذهنى ما الذى أقصده بالطريقة ، ولم يستوضحنى العقاد ما الذى أقصده بهذه الطريقة .

وضحك العقاد وقال : نحمد الله يا مولانا أننا لم نتغير . .

فهو لايعيب على نفسه التغير . . أى أصبح اليوم أحسن مما كان عليه من قبل . . وإنما يقصد أنه كان أحسن . . أو كان حسنًا منذ البداية !

وتوفيق الحكيم يقوم بالتغيير فعلا . . ويربط نفسه بالاتجاهات الجديدة .

ويساعده على أن يكون جديدًا إنه فنان وأنه يفهم عمله . . وأنه لايهمه شيء .

ولايتولى توفيق الحكيم توضيح نفسه مباشرة . . كأنه يكتب مقالات يدافع بها عن نفسه . .

كما يفعل يوتسكو أديب العبث مثلا . .

ولكنه يفضل أن يدلى بآرائه على ألسنة الآخرين . . وبذلك يتولى هؤلاء الآخرون الدفاع عنه ، والحماس لكل ما حصلوا عليه من حديثهم مع توفيق الحكيم . .

وقد حدث عندما هوجم توفيق واتهم بالاقتباس أو بالسرقة أن استدعانى توفيق الحكيم . . وقال لى وجهة نظره وطلب منى ـ طبعا ـ ألا أنسبها إليه . .

ورويت ما قاله الحكيم فى مقال نشرته فى مجلة «الجيل» . . ولكن فى نفس الوقت ظهر مقال آخر وفى نفس اليوم لثروت أباظة فى مجلة «الإعلام» . . وفى هذا المقال نفس المعلومات . . نفس العبارات . . نفس الحجج التى ساقها الحكيم دفاعًا عن نفسه .

فظهر الكاتب الحقيقى . . وراء هذين المقالين!

وتوفيق الحكيم . . لأنه متهم بالاقتباس ، ولأنه اقتبس فعلا ، بتصرف كمحمد عبدالوهاب . .

فالحكيم لايعلن أبدا أنه قرأ كتاب فلان . . أو قرأ مقالا للناقد الفلانى . . حتى لايتهم أحد بأنه أخذ من هذا الناقد رأيًا ، أو من هذا الأديب فكرة . .

وكذلك محمد عبدالوهاب . . يحرص على الإشارة على لسانه أو على لسان غيره ، أنه ليس فى بيته قلم ، ولا ورقة ولا آلة موسيقية . . ولا اسطوانات ، ولايفتح الراديو إلا على أغانيه . . وإلا أنه يريد أن يطمئن على الأغانى فى موعدها . . وأن أغانيه وموسيقاه تذاع فى كل العالم العربى . . إلخ .

وليس من المقبول طبعا أن عبدالوهاب لايستمع . . إلى الأغانى العربية أو الأوروبية .

فكل موسيقاه وألحانه مأخوذة من كل مكان . . فهو مستمع من الدرجة الأولى . . وهو لايمكن أن يحتفظ بهذه النغمات أو الجمل فى أذنه . . لابد أن يكتبها ، ولكن أحدًا لايعرف أين ولا متى يكتبها ، ولكنه قطعًا يكتبها . .

فالذى يرى راقصة رشيقة فإنه لايستبعد أبدًا أن تكون هذه الراقصة تمشى على ريجيم دقيق . . ولايستبعد أن معظم المشويات لاتأكلها . . وأنها تقوم بألعاب رياضية عنيفة . . وهذا طبيعى . . وهذا معقول .

ولو سألنا الراقصة عن سبب رشاقتها ، فإنها تميل إلى القول بأنها تأكل كل شىء ، وأنها تنام كثيرًا ، وأنها لاتقوم بأى مجهود .

ومع ذلك رشاقتها وحلاوتها ربانى . . من عند الله . . موهبة . . أى بلامجهود . . كما تفعل غيرها من الراقصات !

وعبدالوهاب يريد أن يقول إن موسيقاه ربانية . . والحكيم أيضا يريد أن يقول معانيه ربانى . . وأنه من الهواء يفكر . . ومن الهواء يؤلف .

وهذا غير معقول . .

ولكن الفنان ـ لأنه يتوهم أنه خالق ـ لأنه يتوهم أنه نصف أو ربع إله . . فهو يريد أن يشعر بلمسة ألوهيته . . فهو يوهم نفسه أو غيره . . بأن هذه المخلوقات وهذا الإبداع من عنده . . من لدنه . .

وأن هذه المعانى قد اهتدى إليها من زمان طويل . . وأنه قد عرف كل هذه المعانى . . خلقها . . وحملها . . ووضعها . . ونسى أن يعطيها أسماءها . . فالاسم لايهم . . فأى إنسان إذا جردته من اسمه ، كالسيارة إذاجردتها من رقمها ، فهو إنسان . . وهى سيارة !

* * *

بعد أن يظهر أى عمل فنى لتوفيق الحكيم ، يستعد هو شخصيا لتفسيره وشرحه . . ويكتب هذا التفسير ويعده فى ورقة . . ويجعل هذه الورقة على شكل نقط . . وعندما يلتقى به إنسان يفتح الدرج الذى أمامه ويقرأ بعض ما فى الورقة .

ذهبت إليه بعد ظهور كتابه «رحلة المديح والحرائق» . . ودارت المناقشة بيننا عدة ساعات . . وأخرج الحكيم الورقة من الدرج وقرأ منها ، وبعد أن انتهت المناقشة عاد فأخرج الورقة وشطب منها كل الملاحظات التى أدلى بها إلىّ . . أما حقيقة الملاحظات أو «الدفوع» فإنه سيدلى بها إلى أديب آخر أو ناقد آخر . . .

(٥٢)

المتحدث لايكون جماهيريًا لأنه يخاطب الجماهير . .

أو لأنه يخطب فى الجماهير . .

فمن الممكن أن تتحدث إلى الملايين ولايفهمون . . فى الراديو . . فى الصحف . .

ومن الممكن أن تخطب ولكن ليس الموضوع نفسه مفهوما فالذى يقول بصوت مرتفع : المربع القائم على محيط المثلث القائم الزاوية يساوى المربعين المنشأين على الضلعين الآخرين .

لايمكن أن يكون هذا جماهيريا لمجرد أن المتحدث كان يخطب !

* * *

لقد التصقت عينى باللوحة . . فلم أعد أراها بوضوح . . لابد أن تكون هناك مسافة لكى أراها كلها . . وأراها عمومًا . .

* * *

الحيوية الواضحة فى هؤلاء الأدباء الذين خرجوا من السجن تغرى أى كاتب بأن يتوقف عن الكتابة ليستريح . . وليمتلئ من الراحة حيوية . . أو تغريه بأن يأخذ اجازة بالقوة . . أو بالمرض . . أو بشعور لا إرادى بأن يدخل السجن !

(٥٣)

عمر لاعب الكرة قصير . .

خمس سنوات فى حياته تساوى عشر سنوات فى عمر راقصة . . وخمسة عشر عاما فى حياة مطرب ، وعشرين عاما فى حياة كاتب !

لا بد أن تكون هناك مسافة بينك وبين أى إنسان لكى تراه أوضح . . عندنا نموذج نعرفه . . إن سكرتير طه حسين لقد قرأ أكثر مما قرأ وكتب أكثر مما كتب . . لكنه لايعرف كيف يكتب ولاكيف يقرأ .

إن خادم العقاد قد عاشره أربعين عاما . . ومع ذلك لايعرف كيف يتكلم ولايعرف شيئا من حياة العقاد . .

إن يدى اليمنى قد عاشرت اليد اليسرى فى جسم واحد ، ولكنها مع ذلك لاتعرف كيف تمسك القلم !

(٥٤)

عندما قابلت طه حسين بعد وفاة العقاد بأيام ، لم يكن من الصعب أن ألمس فى وجهه شيئا من الارتياح ، وعندما سألته عن رأيه فى العقاد ، كان أشد الناس احتراسا فيما قال ، وعندما سألته من قبل عن رأيه فى العقاد ، وكان لايزال على قيد الحياة ، كان أشد الناس إطراء فيما قال . .

قال لى طه حسين : إن العقاد أحسن من محمد عبده وأحسن من جمال الدين الأفغانى . . بل ماذا فعل هذان الاثنان . . إن العقاد أكبر وأبقى منهما .

(٥٥)

إذا طبقت قوانين المرور على المسرح ، بمعنى أن كل ممثل يخرج على النص ، ذهبنا إليه وشممنا رائحة فمه لوجدنا خمرا يجب أن ننزله من فوق المسرح ، وبعد ذلك لن تجد ممثلا واحدا لكل مسارحنا الكوميدية .

إنهم يسحبون رخص سائقى اللورى الذين يصطدمون بالمشاة . . والسيارات . . والسبب هو هذه الرائحة !

فهؤلاء الممثلون لايرون العلامات الصفراء ولا الحمراء ، ولا يسمعون الملقن ، ولا يتذكرون أن هناك مؤلفًا . . ولذلك يجب أن نسحب رخصهم ، لا لأنهم لايحسنون قيادة النصوص ، ولكن لخروجهم على الآداب أيضا !

الغرض من هذا الإتجاه الجديد فى الأدب الذى تسميه الأديبة الفرنسية ناتالى

ساردت باسم «التروبيزم» أو أدب الحوار الداخلى هو ألا يكون هناك : قال فلان وقلت لعلان ، وأجابنى فلان وأجابنى علان . . إنما لاتريد هذه القلقلة . . ولذلك فأحاديثها قصص قد حذفت منها الأقواس وقال ويقول !

وبذلك يكون الحوار هامسًا مهموسًا . . وكذلك مناظر الطبيعة من الممكن أن تكون حوارًا بينها وبين حواسنا دون أن تتردد كلمة ، قالت أو قلت لها . .

(٥٦)

ثورة على الأشكال الأدبية المعروفة :

اللاقصة . .

واللا مسرحية . .

واللا قافية

(٥٧)

الفرق بين الشعر التقليدى والشعر الحر . . .

كالفرق بين ملعب كرة القدم العادى جدًا ، وملعب كرة القدم وقد ارتفعت خشبة المرمى شبرين أو ثلاثًا . . إنها نفس القواعد ونفس القيود مع بحبحة قليلة !

أو شكل شبكة التنس إذا انخفضت قليلاً !

وإن كان هناك بعض اللاعبين المهرة يستطيعون أن يلعبوا التنس بلا شبكة !

(٥٨)

الضجة عن اللامعقول سببها . . أن الأدباء أو الصحفيين عمومًا ليس لديهم فن الكتابة عن المسرح ولذلك فالتلفزيون يسهل عليهم مهمة الكتابة فهى أسهل السهرات وأرخص الليالى . .

ثم إنها فرصة ليدعى كل كاتب أنه يفهم فى التأليف والإخراج والتمثيل . . ولأنه لايريد أن يكون متخلفًا فى فهم الأدب والفن ، فهذه المقالات تدل على أنه يتابع . .

والكلام عن اللامعقول . . يشبه الكلام عن أزمة الأقلام الباركر والسيارات الكاديلاك ، لاتعنى إلا بعض المترفين . . أو خاصة المثقفين .

ولكنها ليست قضية عامة . .

وإن كانت حياة هؤلاء الكتاب فيها عبثية . . فهم يشعرون بعدم جدوى الكتابة عن الموضوعات الجادة . . لأن القارئ لا يريد أن يتعب . . ولأن الكاتب لا يريد أن يتعب أيضا . . ولا يريد أن يرهن القارئ فينصرف عنه . . فهو عادة يتملق . . وفى نفس الوقت يتعالى عليه . . أى يكتب له ، ولكنه ليس عنه . . أى يكتب للجماهير وفى نفس الوقت يرفض أن يكون منها . .

فهو يتملق ويقول له : أنت فوق كل شىء . .

ويتعالى فينقد كل ما يعرفه القارئ . . فهو يقول له : أنت لاتفهم أى شىء . .

أى أنت تعرف كل شىء ، ولاتفهم مما تعرفه أى شىء !

ومن هذا التناقض تنبع عبثية التأليف أو عبثية أن يكون الإنسان جاداً .

فالشعور بالعبث هو جوهر النقد الأدبى عندنا . . ولذلك كانت الكتابة تدور حول مشاهدات القراء . . لا مشاهدات النقاد !

(٥٩)

وداعًا أيها الملل[١] . .

هذه محاولة « لتكثيف » الضياع الذى يغمرنى . .

محاولة « لترسيب » البخار الذى أسبح فيه . . محاولة لبلورة أفكارى . . إننى أبلورها لكى أراها . . إننى أبخرها لكى أطهرها . . وأكثفها لكى ألمسها . . وألونها لكى أراها أوضح وألمع . . وأبعد عن الحقيقة !

إننى أحرق نفسى لكى أرى جرحى فى ضوء النار . . إننى أسيل دمى لأرى أعماقى . . إننى أضىء دمى لعقلى حتى لاتتعثر أفكارى . . إننى فى حالة بحث أليم جدا عن نفسى فى نفسى وبنفسى !

(٦٠)

هناك اتجاهان فى النقد :

واحد يرى خلع الكاتب وتتويج الكتاب نفسه . . واتجاه يرى خلع الكتاب وتتويج الكاتب !

(١) صدر لى كتاب بهذا العنوان .

(٦١)

الجزمة على السرير . .

لنفرض أن هذا السرير هو سرير أحد الأدباء الكبار . . فإذا جاء ضيوف ودخلوا عليه فجأة ووجدوا الحذاء على السرير ، فلابد أن يجدوا معانى عميقة من هذا الوضع الغريب . . أو الذى لايرونه غريبًا . . قد يذهب بعضهم إلى مناقشة صناعة الجلود . . وإلى مناقشة نظرية الأديب هـ .ج . ولز فى إصلاح الكون عن طريق إصلاح الأحذية . . وقد يقولون إن آدم لم يعرف الأحذية . . ولا الملائكة . . ولابد أن تكون لهذه الأحذية علاقة بلوحة بيكاسو المشهورة . . أو لابد أن أحد الصحفيين الخبثاء قد وضع الحذاء على السرير لأنه يريد أن يبين مدى سرحان هذا الأديب . . أو مدى سخريته من أزمة الجلود وارتفاع أسعار الأحذية . .

وقد يدخل الجناينى فيرى أن هذه الأحذية قد اشتراها سيده له . . فيذهب إلى الحديقة وينزع له شجرة الورد الوحيدة فى الحديقة . .

وقد تجىء الخادمة وتكتشف أنها أخطأت فى وضع الكتب فى المطبخ والحذاء على السرير . .

وقد يدخل الأديب فجأة ويندهش لهذا المنظر . . ثم تعجبه الفكرة ويمسك قلمًا وورقة ويكتب : بالفعل إننى لم أعد أشعر برأسى . . إننى أحس كأننى أضع فردة جزمة على المخدة . . إن أفكارى حافية فى حاجة إلى أحذية . . وأن أفكارى معلقة فى الهواء ، يجب أن تمشى على الأرض . . إن هذا الحذاء قد سقط من السماء قد وضعه أحد الملائكة ينبهنى إلى خطورة انزلاقى وإغراقى . . يجب أن أمشى على قدمى . . لا على رأسى . . فأنا أحيانا أحس أن أفكارى فى حاجة إلى برنيطة تلمسها . . أفكار أوروبية . . وأحيانا أحس أنها صلعاء . . بلاشعر . . وأحيانا أحس أنها لها شعر مسبسب وأحيانًا أحس أنها تحتاج إلى شىء واحد : جزمة قديمة !

(٦٢)

التليفون فى حياتنا . .

على المسرح يظهر واحد حركات يديه كالذى يدير قرصا بيديه . . كل حركاته . . وعندما يتوقف عن الكلام يحدث صوتًا . . يدل على أن السكة انقطعت أو أن الحرارة غير موجودة . . وعندما ينادى أى إنسان يقول له : ألو . .

يبدأ حياته بالكلام فى التليفون ويظهر معلقا أو مربوطاً فى حبل التليفون أو مشنوقا فيه . . وينقل التليفون من البيت إلى المكتب . . ثم إلى السرير . . ثم يجلس وهو وزوجته فى سرير واحد ويتكلمان فى التليفون أيضا !

* * *

لو كانت الأفكار التى فى رأسى وهى رائحة غادية مع نظراتى إلى السقف الأبيض لأصبح السقف فى لون الفحم . . ولتدلت من السقف على شكل مشانق ولتعلقت أنا من هذه المشانق .

ولكن بقى لون السقف كما هو أبيض فى مثل البياض السابق لعينى الحمراوين .

السقف كاذب . . وابتسامتى التى تخفى ضيقى وقرفى ومللى ، كاذبة . .

وأنا وراء هذا كله اتستر على كاذب . . على مجموعة من الكذابين هم : أنا !

(٦٣)

بعض الكتاب يشبهون أهل الكهف .

لقد اختفوا سنوات طويلة فى مكان ما . . يسمعون عن العالم ولا يرونه . . وكلما سمعوا شيئًا . . كان هذا الذى سمعوه يؤكد أن العالم فى حاجة إليهم . . إن الدنيا خربت فى غيابهم . . وهذا يؤكد ضرورتهم . . وبطولتهم . . والظلم الواقع عليهم . . فالمجتمع ـ إذن ـ يلقى جزاءه . . عاقبهم فعاقبوه . . وحرموه من الثروة الضخمة التى أخذوها معهم إلى السجن . . منهم أصحاب ملايين عقلية . . عقائدية . . الصدق والإخلاص والزعامة . . كل هذا كم يساوى من مال ؟

وعندما خرجوا من هذه الكهوف وجدوا الدنيا تغيرت . . الشعارات التى ينادون بها قد عرفها الناس وتجاوزوها . . فأحسوا أنهم مفلسون . . إن أموالهم لاقيمة لها . . إن العملة تغيرت . .

كل ما يريدون أن يفعلوه الآن هو أن تتغير العملة الجديدة . . ويعود المجتمع الجديد إلى استخدام العملة القديمة . . ليصبحوا مرة أخرى من أصحاب الملايين . .

فهل يعود المجتمع إلى الوراء ليتقدموا هم ؟

مستحيل طبعا !

(٦٤)

إذا رأيت رجلا يمشى في الشارع وقد نفخ بطنه ورجع برأسه إلى الوراء :

فإما إن هذا رجل خرج من السجن . . فهو يحاول أن يعوض عن الزنزانة الضيقة بالفضاء الواسع ينفح صدره وينشر جناحيه لكى يأخذ أكثر مما يستحق من الفراغ . . بعد أن أعطى أقل مما يستحق . . أو أضيق مما يستحق .

وإما إنه بائع عرقسوس . . ترك الإبريق فى البيت . . وهو يمشى من غيره . . بلا إبريق ولكن المكان الذى يستند إليه الإبريق عادة موجود . . قد اتخذ نفس الشكل ، نفس الانحناء . . فانتفخ البطن والصدر إلى الامام ليكون الأبريق عموديا على الحزام . . أو على خط الحزام !

(٦٥)

لايمكن أن يكون جاداً من يقول : إننى سأقتل نفسى . .

لأنه لو كان جادا لقتل نفسه . .

ولكنه يريد أن يثير الناس . . أن يثير شفقتهم لعلهم يمنعونه من مجرد هذا التهديد !

(٦٦)

لقد توقف فجأة كأننى سحبت الطريق من أمامه . . كأننى لممت الدنيا حوله . . لم يعد هناك مكان يمشى فيه . . أو انه يخاف ألا يجد مكانًا يقف فيه . .

لقد وقف فى الشمس طويلا حتى جفت يداه ، ولكن عندما بكى ، نبت العشب بين أصابعه !

* * *

الرياح هى أنظف ما تبقى للإنسان فى هذه الحياة !

* * *

الأفكار كالملابس الجاهزة ، أحيانا على قدك !

* * *

إنه يمشى مرفوع الرأس جدًا ، كأنه لايزال فى زنزانة سجن ، يبحث عن نافذة !

* * *

من الممكن أن تظهر الممثلة على المسرح وفى يدها نص مسرحى تقرؤه وتناقشه . . نصف فصل مثلا . . وبعد ذلك تبدأ أحداث هذه المسرحية !

* * *

الرسائل التى بعثت بها « مى » إلى العقاد تؤكد فيها أنه لا مانع عندها من أن تكون له أية علاقة بها . .

ولكنها تخشى الحمل .

فقط تخشى أن تحمل ، فإذا حملت ما الذى تفعله . . وهي مشكلة تستطيع أن تحلها اليوم تلميذات المدارس . . ولخوفها من الحمل ولصعوبة الإجهاض فى ذلك الوقت تعذبت هذه الأديبة وتعذب معها كل أدباء عصرها . .

ولو ظهرت حبوب منع الحمل فى ذلك الوقت ، لاختفت هذه المخاوف . . ولاختفى الأدب الرومانسى كله . . أدب الحرمان . . وأدب الخوف من الحمل !

* * *

عشيقات العظماء يمكن أن نسميهن جميعًا :

ناكحات السحاب !

* * *

لم تبق للإنسان حرية الموت . .

فهو لا يستطيع أن يعيش بحرية . . ولكن فى استطاعته فقط أن يختار الموت الذى يعجبه . .

الميزة الوحيدة هى أن تكون حرًا فى ألا تعيش !

* * *

من ضمن الحريات التى لم ينص عليها فى « إعلان حقوق الإنسان » حرية أن يناقض الإنسان نفسه . . وحرية أن يهرب . . وحرية أن يموت . . أى حريته فى أن يتحرر من حريته !

* * *

الزواج سيجارة والحب هو الفلتر . .

وكمـا أن الإنسـان لايسـتطيع أن يدخن الفلتـر وحده ، فـلايسـتطيع أن يعـيش بالحب وحده !

وكما أن الفلتر لايحجز كل أضرار السجائر ، فكذلك الحب لايستطيع أن يحجز كل أوجاع الزواج !

* * *

المرحلة الانتقالية التى نحن فيها كالمراهقة . . فيها كل بقايا الطفولة ، وفيها كل أعراض الرجولة . .

فيها الاندفاع كرجل ، وفيها الانكماش كطفل ، فيها هذه الرجات العنيفة . . تماما كالسيارة عندما تقوم . . فهى تهتز فى مكانها ولا تتحرك !

(٦٧)

الفرق بين على أمين ومصطفى أمين :

على أمين ينشد القوة من إثارة الشفقة عليه . . فهو كالذى يسقط فى الطريق تمتد إليه الأيدى لتحمله فيوفر بذلك قوته ، وينهض على أيد الآخرين . .

وقوته كسفينة تسبح فى دموع الآخرين . .

ومصطفى أمين ينشد القوة عن طريق إثارة الدهشة والإعجاب . . أى عن طريق السيطرة والتخويف . . فهو حريص على أن يتخفى ويخفى لكي يصدم بعد ذلك !

فعلى أمين ينشد الحب . .

ومصطفى أمين ينشد الإعجاب . .

وعلى أمين من أجل الحب يضحى بالقوة . .

ومصطفى أمين من أجل القوة يضحى بالحب !

ولذلك على أمين مرتبط بالأشخاص . .

ومصطفى أمين مرتبط بالأفكار . .

وعلى أمين يشبه ساعة تدق بانتظام . . ولأنها منتظمة فهى لا تلفت أحدًا . . ولكنها فى نفس الوقت تثير الإشفاق عليها من الإرهاق .

ومصطفى أمين ينشد انفجارًا يحدث بين الحين والحين .. لا أحد لايدرى به .. ولا أحد يصدقه .. ولكن الناس تذكره طويلا .. رغم أنه لاينفجر إلا فى فترات متباعدة !

* * *

كتبت تعليقا على قصة مصطفى أمين « نار » بأنها تشبه القصص الحديثة .. أو المسرحيات الحديثة .. فليس من الضرورى أن تكون لها عقدة .. وليس من الضرورى أن تكون شخصياتها مرسومة رسما دقيقا .. وإنما يكفى أن يكون هناك كلام بين أناس ليس من الضرورى أن تكون أسماؤهم معروفة ..

* * *

إحسان عبد القدوس محروم جدًا من النقد ..

فلا أحد ينتقده .. لا فى روز اليوسف لأنهم يخشون أن يجاملوه .. أو يخشون أن يهاجموه ..

ولا فى الصحف الأخرى لنفس السبب ..

فهو مثل فتاة حلوة ولكن نظرها ضعيف .. فهى لاتستمتع بالنظر إلى وجهها .. ولا تعرف عيوبها ولا حتى مزاياها .. ولا تعرف كيف تصلح عيوبها أو مزاياها ..

والنقد هو عيون الأديب ..

ويوسف السباعى كذلك .. لا أحد ينتقده .. وإذا انتقده هاجمه شخصيًا .. فهو لايستطيع أن يتصور يوسف السباعى دون أن يحقد على مركزه وعلى سلطاته .

ومصطفى أمين أيضا .

سطور قليلة جدًا التى كتبها كامل الشناوى على قصة « معبودة الجماهير » .. وسطور قليلة كتبها كمال الملاخ ..

وبعد ذلك لم يسمع بها أحد ..

وعيب قصة مصطفى أمين : أولا أنها ليست قصة بالشكل المعروف .. لا حوادث مترابطة .. وفى نفس الوقت هى أقرب ما تكون إلى قصص آلان روب

جرييه . . وناتالى ساروت . . أو «القصة اللا روائية» الحديثة جدًا ، رغم أن مصطفى أمين لايعرف هذه الاتجاهات الأدبية . .

ثم إن كل الشخصيات بنفس القوة . .

وكلهم يتحدثون على شكل مانشتات . .

وكلهم يحسنون التعبير وكلهم صحفى . . وكلهم رئيس تحرير أو صاحب صحيفة . . كلهم بنفس الدرجة من القوة . . وبنفس الدرجة من الحرارة والنبرة العالية !

* * *

لايمكن أن يعيش الفرد - مهما كانت قدراته - وحده بعيدا عن الناس . . لابد أن يعطيهم بعضه ، لكى يكون واحدًا منهم .

لابد أن يدخل فى شىء . . فى هيئة . . فى نظام . .

لابد أن يخفى الكثير من أطرافه ومزاياه ليكون واحدًا من الناس . .

لابد أن « يتجنن » . . أى يصبح جنينا . . مطويًا فى بطن شىء . . فى بطن أحد . . فى بطن نظام !

* * *

الانتشار ضد العمق . .

فالماء الذى فى الكوب يبدو عميقًا إذا بقى فى هذا الكوب . . ولكن إذا وضع فى كوب أوسع . . فى طبق . . فى طشت فإنه سيكون ضحلا . .

فمن الصعب أن يكون الإنسان منتشرًا . . وفى نفس الوقت عميقًا . .

ولكن الفنان لايستطيع أن يقاوم الانتشار . .

إنه جمهور أكثر ، وشهرة وقوة . . وقوة على وجه الخصوص !

(٦٨)

قصص « سفينة حنان إلى القمر » لليلى بعلبكى ، ليست قصة واحدة مكشوفة ، ولكن بها ألفاظ نابية . . ولذلك صادروها فى لبنان . . ويمكن مصادرتها فى أى بلد . .

قصة « أنف وثلاثة عيون » لإحسان عبد القدوس . . القصة كلها عارية . . وليست فيها لقطة واحدة ثابتة .

ويمكن مصادرتها فى أى بلد عربى . .

فقصة ليلى بعلبكى تشبه فستانا طويلا وبه ثقبان من أمام ومن خلف . . ولذلك فهو فاضح داعر !

قصة إحسان مثل مايوه بكينى . . فهو عار ولكنه ليس فاضحًا !

(٦٩)

أثيرت مشكلة الجنس فى قصص إحسان عبد القدوس . . وذهب عضو إلى مجلس النواب بسؤال : ولكن هذا العضو لم يدرس الموضوع . . لم يستعد له . .

إن هذه القصة تستحق المناقشة ، لا جدال فى هذا . .

إن إحسان كاتب له وزن ، ولذلك يجب أن نناقشه ، لاجدال فى هذا أيضا .

فالجنس خط أساسى بالنسبة للأدب .

أحد الخطوط الثلاثة المرموقة : الجنس والخبز والحرية . . الغريزة والعقل والقلب . .

ولابد من الكلام عن الجنس . .

والمشكلة هى : إلى أى حد يتحدث الفنان عن الجنس ؟ هل إذا تعرض للجنس لابد أن يكون ذلك عاريًا؟ لابد من التعرية !

أول نقطة هى : هل العمل الذى يقدمه لنا الفنان أدب أو ليس أدبا ؟

فإذا كان أدبا ناقشنا مدى حق الأديب فى الاستفادة من الجنس أو إثارته ؟

هل الأديب يقدم لنا الجنس كمعلومات عامة لابد أن يعرفها الناس ، فإذا لم يكن العمل الذى قدمه لنا عملا فنيا ، فهو عمل تربوى . . أو هو معلومات اتخذت لها إطارا فنيا .

أو بعبارة أخرى : هل الجنس فى القصص جاء محشورًا فى القصة . . أو أن السياق يقتضى الجنس ؟

فإذا كان السياق يقتضى الكلام عن الجنس وعن العلاقات الجنسية ، فلا لوم على الأديب . . ولكن إذا انحشر الجنس حشرًا بقصد الإثارة ، فليس هذا أدبا ولا فنا . .

القرآن فيه قصص جنس . .

الكتاب المقدس مليء بالقصص الجنسية التى لها معنى خاص وهو بيان الفساد الخلقى الذى غرقت فيه البشرية ، مما استحقت عليه لعنة السماء . .

قصص بوكاتشينو فيها جنس . . ولكن فيها فن أيضا . . (رجوع الشيخ الى صباه) جنس كله ، ولكن ليس أدبا ولا فنا . .

الكلام عن الأمراض السرية كلها جنس ، ولكن ليس هذا أدبا ولا فنا . .

فعندما أثيرت الضجة حول رواية « فانى هيل » فى انجلترا هذا العام ، وهى قصة قديمة ، كانت الحكومة قد صادرتها ، ناقشها النقاد .

وقالت مارجنيتا لاسكى إن هذه الرواية من الأدب الرفيع وأن الجنس جاء فى الطريق . . وأن سياق القصة يحتم الجنس ، ولذلك فلا حق للدولة فى مصادرتها !

وعندما أفرجت عنها الحكومة الأمريكية بعد أن ثبت لها أنها من الأدب الرفيع ، وأن الجنس ليس بقصد الإثارة . .

وعندما أثيرت قصة « عشيق الليدى تشاترلى » للأديب د . هـ لورانس أفرجت عنها الحكومة الأمريكية بعد أن ثبت لها أنها من الأدب الرفيع وأن الجنس ليس بقصد الإثارة .

أما الألفاظ النابية التى جاءت فى هذه القصة فقد استخدم المؤلف مرادفات لاتينية لها .

وهو يدافع عن هذه الألفاظ يقول . إننا جميعا نعرف كل الألفاظ النابية ، ولكن عندما نفاجأ باستخدامها نشعر بالصدمة ، فما الذي يصدمنا ؟ يصدمنا أننا لم نتعود أن نقولها صراحة . . أن نراها مكتوبة . . فقط هذا مع أننا جميعا نعرفها ونستخدمها !

وعضو البرلمان الذى أثار قصة إحسان عبد القدوس سعيد جدا بأن الدولة قد أعلنت أن الصحافة حرة ، وأن الكاتب متروك لضميره وتقديره فى تعرية ما يراه فنيا من جسم المرأة ومن العلاقات الجنسية ، وأنه هو الذى كان سببًا فى أن الدولة أعلنت وباركت حرية الصحافة !

فليست حرية الصحافة ، ولا حرية الفنان فقط فى أن يتعرض للجنس ، ليست حرية التعرية هى الحرية التى يجب الدفاع عنها !

وفى مجلس الفنون تناقشت مع توفيق الحكيم فى موضوع قصة إحسان عبد القدوس . .

من رأى توفيق الحكيم أنه شخصيًا تعرض للعلاقات الجنسية فى « الرباط المقدس » ولكن كلمة واحدة نابية لم ترد فى هذه المذكرات . .

وليس من الضرورى أن ترد كلمة نابية . .

وقال توفيق الحكيم : إن طالب الفنون الجميلة يرسم الجسم العريان . . لابد أن يراه عاريًا . . وبعد ذلك يرسم على النحو الذى يعجبه . . يرسم العرى بدرجات . . وهذه الدرجات متروكة للضرورة الفنية !

(٧٠)

أى صدق يمكن أن يكتبه أقارب الفنان عنه . . ما الذى تستطيع أن تقوله زوجة سقراط . .

وزوجة تولستوى . .

وزوجة دستوفيسكى . .

وزوجة لورانس . .

والمومس التى تزوجها الفيلسوف أوجست كونت . .

وما الذى تقوله أخت الفيلسوف نيتشه . .

وما يقوله فيفيان هولاند ابن أوسكار وايلد . .

وما الذى تقوله آنا ابنة فرويد . .

وبنات كارل ماركس . .

وبنات بندتو كروتشة .

وأم ستالين كانت تناديه بسوسو . . وهو اسم الدلع ليوسف ستالين . . الرجل الذى كان يحكم نصف الدنيا لم يزد على سوسو عند أمه !

وما الذى قالته أم تنسى وليامز عن « أنوثة »ابنها وخنوثته

وما الذى قاله زوج عن زوجته . . ما الذي قاله أرثر ميللر عن مارلين مونرو فى قصة « القلقون » وفى مسرحية « بعد السقوط » .

وما الذى قاله حسين ابن أحمد شوقى عن والده . .

وما الذى قالته ابنة أندريه جيد . .إنهم أناس ألصقوا عيونهم باللوحة فلم يروها بوضوح . . إنهم يعرفون الكثير ويفهمون القليل . . أما نحن الذين نرى عن بعد ، فنرى أوضح ، ولانعرف عن حياتهم إلا القليل . .

كان العقاد يقول : لو صح أن إنسانًا ، لأنه ذهب إلى بلاد الانجليز وعاش معهم ، يفهم أحوالهم أكثر من الذين لم يذهبوا إلى بلاد الإنجليز كالعقاد مثلا ، لو صح هذا لكان الحذاء الذى ألبسه فى قدمى ، بطول المعاشرة لنا ، يفهم فى الفلسفة والأدب أضعاف الذين يدرسون الفلسفة والأدب !

(٧١)

المرأة الشرقية تشبه موظفًا أو عاملا فى أحد المحلات . . فهى موظفة عند شخص . . وحياتها مرتبطة بهذا الشخص . . ولذلك فهى لاتشعر بالاطمئنان معه . . ففى يده كل شىء . . فى يده حياتها . . وفى يدها أن تبقى فى البيت وأن تكون فى الشارع . . فهو رجل . . وهو شرقى . . والقانون معه وإلى جواره وضد المرأة .

وليس من السهل ـ حتى على المرأة العاملة ـ أن تعيش بمفردها . . دون أن تتعرض للشائعات والمضايقات . . ولذلك فهى مرتبطة ارتباطا حيويا بالرجل الزوج . . فهو وحده القادر على أن يحقق لها الطمأنينة . . والأمان . .

وهو وحده أيضا القادر على أن يهدد أمنها وأمانها . .

ولذلك فالمرأة الشرقية لاتكف عن النقاش والخناق .

وتنظر إلى الرجل كإنسان غريب عنها يهدد حياتها . . كإنسان يريد أن يلقي بها فى الشارع . . كإنسان يريد أن يأخذ منها زوجها . . فهى تقسو عليه ، وهى لاتدرى ، كأنه رجل آخر . . كأنه رجل معتد على راحتها وعلى بيتها . .

أما المرأة الأوروبية فهى تحس كأنها موظف فى الحكومة أكثر اطمئنانا .

والمرأة فى أمريكا تحس كأنها صاحبة عمل . . وزوجها أيضا شريك فى هذا العمل . .

والزواج علاقة مصالح متبادلة . . راحة نفسية ومادية . . وأى خلاف يمكن أن يقضى بينهما بإلغاء العقد . . وتجديده معه أو مع غيره . . وبلا عنف . .

وربما لأن المرأة الشرقية ليست مطمئنة على نفسها فهى فى حالة دفاع عن النفس .

فى حاجة إلى أن تؤكد للزوج أن وجودها له معنى ، له هدف . . وأنها هى التى فعلت له كذا وكذا . . وأنه لولاها لكان هذا الزوج فى الشارع ، أو كان فى مكان يشبه الشارع تحت أقدام الرجال ، وتحت أرجل النساء . . . إلخ . .

فهى فى حاجة إلى أن تبرر وجودها . .

فى حاجة إلى أن تتحدث عن فضلها .

فى حاجة إلى أن تقيم لنفسها حفلات التكريم ، مادام الزوج لايقيم هذه الحفلات .

فى حاجة إلى أن تدعو إلى سلعتها . . وإلى مزايا هذه السلعة . . لأنها تبيع لزبون واحد . . وتخشى على هذا الزبون أن يطير منها . . ثم إنها غير مطمئنة إليه . . غير مطمئنة إلي ثروته وإلى معاملته فهى تماما كالسلع ، فى حالة انتظار لقروشه . . وقبل قروشه فى حالة انتظار لرضاه !

* * *

غريب أمر المرأة : أنها على استعداد لأن تحارب العالم كله من أجل الرجل الذى أحبته . . فإذا تزوجته ورأت فيه العالم كله عادت فحاربته !

فكأنها لاتقوى على محاربة واحد فقط . . وإنما تقوى على محاربة العالم . . ولكى تحارب هذا العالم لابد أن تجمعه فى شخص واحد !

* * *

كل شىء له ثمن . . الزواج له ثمن . . والعزوبية لها ثمن . .

الزواج يعطيك الاحترام الاجتماعى . . ويسلبك حريتك . . والعزوبية تسلبك الاحترام الاجتماعى وتعطيك حريتك !

* * *

عيب الزواج أنك تدفع ثمنا غاليا لأشياء تافهة . . وعيب الزواج أنك مضطر

دائما إلى أن تصالح من تخاصمه . . وتخاصم من تصالحه . . وأن تكون متهما كل يوم . .

فكأن الزواج محكمة يختارها الرجل . . يختار قاضيها وحيثيات الحكم والحكم ويختار المتهم أيضا !

أما العزوبية ففيها الحرية . . وفيها الحياة الدنيا ، التى لاتعرف معنى يوم القيامة . . ولا معنى الحساب فى القبر . .

وعيب العزوبية أن الرجل فيها يشعر بأنه حر ، وهو فى الواقع ليس حرًا . . لأنه مربوط برغبات قلقة . . فالقلق هو وحده الذى يشده إلى الجرى وراء النساء . . فهو ليس حرًا ، ولكنه فى حالة توتر شديد . . وهو مرغم على أن يخفف هذا التوتر .

(سأعيد هذا الكلام والمعنى بأسلوب أحسن وأوضح ، فيما بعد)

(٧٢)

مصيبة . . كارثة . . مأساة . . قمة المأساة ، أن النقاد لايقرأون . . كلهم يفضلون أن يروا كل شىء فى التليفزيون أو فى المسرح . . إما أنهم يقرأون كتابًا فهو شىء صعب جدًا . .

وإذا قرأ الناقد ، فمتى يقرأ . .

وأين يكتب . .

إن الأدب عندنا فى حالة انعدام الوزن . . لاتوجد موازين . . ولا مقاييس . . ولا توجد مكاييل . . لايوجد نقد !

* * *

حانوتى وزوجته داية : قصة !

* * *

الخبز والقبلات . .[1]

موضوع عن الخبز والجنس . . عن كارل ماركس وفرويد . .

(١) صدر لى كتاب بهذا العنوان .

(٧٣)

زنوج سود . .

وزنوج بيض أيضا . . بنات الليل . . نوع من الزنوج البيض . . خارجات على القانون . . أقليات محتقرة . .

ففى مسرحية « المومس الفاضلة » نجد الرجل الأبيض يحتقر المومس ، ولا يرى أنها تعرف الشرف ، ومع ذلك يراها أشرف من الزنجى الشريف . . لأنها بيضاء .

ولأن هناك نوعين من العدالة : عدالة للأبيض وعدالة للأسود .

فالمجتمع يثور على الزنجى الذى تزوج فتاة بيضاء شرعًا . .

ولا يثور على الأبيض الذى اتخذ عشيقة سوداء . . وينفر من المكان الذى يدخله الزنوج . . فى حين أن الجرسونات فى مطاعم البيض كلهم من الزنوج . . فهو يرفض المساواة بالزنوج .

ولكنه لا يرفض أن يكونوا جرسونات له !

* * *

الأفكار فى رأسى تتضارب كأنها ديوك ذكور . . ليست عندى بنات أفكار . . وإنما أحاول أن أصالحها بعضها على بعض . . ولكنها ترفض . . كأننى أحاول أن أكرهها على الشذوذ الجنسى !

(٧٤)

مصطفى أمين وعلى أمين . .

مهندسا صحافة . . فهما يعملان كل عام على تطوير هذه الصناعة . . تماما مثل مهندسى السيارات ، يغيرون شكلها ورفارفها . . وزجاجها الأمامى . . ويحرصون على تمرين السائقين عليها . .

فالمهم هو تطوير هذه الصناعة . .

فلا اعتراض على براعتها الهندسية . .

ولكن العيب هو أنهما بلا رأى سياسى . . ولأنهما بلا رأى . . فقد عاشا طويلا كالمهندسين والأطباء وكل الخبراء الأجانب .

ولذلك فلابد أن يكون لهما رأى ، كأى إنسان ليس خبيرًا صحفيًا .

أى لا بد أن ينسيا أنهما من الخبراء ، وأن يتذكرا فقط أنهما من أصحاب الرأى لا من أصحاب الخبرة الهندسية اللاتينية !

(٧٥)

المرأة تكره الخادمة . .

لأنها ترى فى الخادمة صورة ذليلة لها . . فالخادم هو أيضا يعمل عندها . . مربوط بإرادتها ونزواتها . . وهى أيضا تعمل عند زوجها مربوطة بإرادته ونزواته . . وهى تكره هذا الوضع . . تكره وضعها . . تكره الهوان والذل فى صورة الخادمة . . وفى صورة الخادم .

ولذلك فمتعة لاشعورية عند المرأة أن تتحكم فى الخادم . . لأنها تعوض عن تحكم الرجل فيها . . ولأن الخادم رجل ، فهو مناسب لأن تتحكم فى أى رجل . . رجل ذليل !

فالمرأة والخادم ، الاثنان على باب الرجل !

(٧٦)

لازلت عاجزًا عن أن أمد يدى أكثر فى اتجاه الناس . . إننى لا أمد يدى . . إن الناس يتوقعون أن أمد أى شىء ناحيتهم . .

إن الواحد منهم يسألك : وأين أنت ولماذا لا تسأل عنى ؟

ومن الممكن أن ترد عليه : ولماذا لا تسأل أنت؟

إن الناس فيهم هذا الغرور وفيهم هذا الشعور بأنك لابد أن تسأل عنهم . . وتشكرهم . . وتطلب إليهم الكثير . . لتشكرهم أكثر !

عيب هذا من وقت طويل . . فقط اعرفه . .

وكان سقراط يقول : إنه يكفى أن يعرف الإنسان عيوبه ليصلحها !

إن المعرفة لاتكفى يا أستاذ البشرية !

(٧٧)

اتق شر من أحسنت إليه . .

معناها : لأننى أحسنت إليك ، فأنا أتوقع منك أن تشكرنى . . أن تذكر دائما أننى أحسنت إليك . . ولكنك تنسى عادة . . وهذا يضايقنى . . وهذا يجعلنى

أشعر أنك رجل جاحد . . وهذا يضايقنى ويجعلنى أفكر فى الانتقام منك . . من جحودك . . ولأننى أريد أن اذكرك بما فعلت بك . . فإن هذا يضايقك أنت أيضا وقد تفكر فى التخلص من هذا الإذلال . . ومن الممكن أن تكون عدواً لى . . لا لأننى أحسنت إليك ولكن لأننى أريد أن أسىء إليك لأنك جاحد . . لأنك لاتذكر فضلى عليك . . مع أن هذا الفضل يكون تافهًا . .

فأنا أتقى شرك ، لأننى أحسنت إليك . . لأن حرصى على أن أذكرك بما فعلته لك ، يضايقك يثيرك ، فتنقلب ضدى . . فأنا أحاول أن أفضحك أن أعايرك . . أن أذلك بما فعلته من أجلك . .

ولذلك يجب أن اتقى شر الرجل الذى أحسنت إليه !

فإذا فعل هذا الرجل ، فهو على حق .

لأننى فى هذه الحالة لا أكون محسنًا إليه ، وإنما أكون قد فضحته . .

فلو فرضت مثلا أننى أقرضتك مبلغا من المال سرًا .

وجئت وشكرتنى على ما فعلت من أجلك . .

ولكنك فوجئت بأننى أشعت فى كل مكان أننى أقرضتك . . ثم رويت أسرار أسرتك ومتاعبك العائلية التى أمنتنى أنت عليها . . ألا ترى أننى فضحتك . . وأننى شنعت عليك . . فما كان منك إلا أن ضربتنى !

ويقول الناس طبعا : اتق شر من أحسنت إليه . . واعتقد أن الناس ليسوا على حق .

فأنا لم أحسن إليك ، وإنما أسأت إليك !

فالذى يحسن إلىّ لا يفضحنى . .

والذى يحسن إلىّ ويعلن ذلك لكل الناس ويطلب منى أن أركع وأسجد له ، لقد فضحنى وأذلنى ، فهو لم يحسن إلىّ .

(٧٨)

ما معنى أن يذهب إنسان إلى التليفزيون وتسلط عليه الأنوار . . ثم لايقول شيئا له معنى ؟

معناه أن يبدو تافهًا فى أجمل صورة ! وعلى أوسع نطاق !

أتفه من الآلات الحديدية التى تضىء . .

أتفه من الميكرفون . . أتفه من الخشب !

ولذلك حتى لا أكون تافهًا بهذه الصورة الأنيقة المنتشرة ، يجب ألا أجلس أمام الميكرفون والكاميرات وليس فى ذهنى ما أقوله . . وليس عندى من سلاح أدافع به عن تفاهتى . . وليس عندى مبيد للتفاهة التى تظهر على شكل ذباب يحط على رؤوس المشاهدين !

* * *

مسرحية يقرأ فيها الممثلون النص ويغيرون فيه – ارتجالاً !

(٧٩)

جرس التليفون . .

صوت طائرة تمزق الهدوء . .

التليفون على شكل حيوان أسود يصرخ . . وهو فى مكانه أسود لايهتز . كل هذا الصوت وهو لايتحرك .

المستشفى . . التليفون . . والتليفزيون . .

* * *

تسمع صوت تليفون يرن . .

أحد الممثلين يقول : عاوز أى شىء . . مريض . . قتيل . . محب ولهان . . سخيف يتسلى . . هل يرد . .هل لايرد . . الرنين فيه إصرار .

كرباج من الرنين على أذن الممثل . .

دائرة قرص التليفون على الجدران . . على الأرض . . الكلام يدور فيها . . ما إن يحرك الممثلون أيديهم كأنهم يطلبون رقمًا . . أى كلام بينهما يبدأ بكلمة ألو . . وينتهى مع السلامة . . ويتوقف الكلام كأن الخط انقطع . .

واحد منهما يطلق : الووو . . بصوته . .

هل يتدلى من أعلى المسرح . . حبل تليفون . . يدخل منه الممثلون الواحد بعد الآخر ويتكلم . .

مريض يريد طبيباً . .

جريح يريد البوليس . .

حريق يريد المطافئ . .

أو أن أحد الممثلين يحلم . .

جرس متقطع يرن من حين إلى حين . . .

الناس تعيش على الأسلاك . . حياة الناس منشورة على حبال التليفونات . .

السكة انقطعت . .

كابينة التليفون . .

كل شيء يدور فى التليفون . . حتى عندما لم يكن هناك تليفون ، فالناس يتكلمون كأنهم يضعون السماعات على آذانهم . . ينامون ويصحون ويأكلون ويشربون . . كل هذا بالتليفون . . هناك خيال . . ما أقبح التليفون المصور . . إنه يقضى على الخيال . . إنه يفسد متعة أن يتخيل الإنسان شيئا . .

الإذاعة كانت تمنح للناس فرصة أن يتخيلوا . . فجاء التليفزيون وقضى على الخيال . .

كان فى المسرح خيال . .

فجاءت السينما وقضت على الخيال .

كان التليفون هو آخر الأجهزة الحديثة التى احتفظت بالخيال .

فجاء التليفون المصور وقضى على الخيال . . ألو . . السكة انقطعت !

(٨٠)

تناول أية مشكلة . . مغامرة . . وابدأ الكلام عنها بعبارات حكاية . . ثم أضف إليها بعض السخط واشتم عشرين واحدا من الذين تعرفهم من القريبين . . وبعد ذلك سيقول عنك الناس أنك كاتب تقدمى !

الأظافر الناعمة..

كتاب عن الطفولة . . طفولتى . . وطفولة الأدباء والفنانين !

عن رواد الفضاء . . أو من الذين يشعرون بالوحدة العالية . . أو العزلة السامية . . أو المعتقلون فى الأبراج العالية . .

(٨١)

حكى لى طاهر الجبلاوى صديق الاستاذ العقاد أن اللوحة التى رسمها صلاح طاهر والتى هى عبارة عن تورتة فى داخلها بطرمان عسل نحل ويلتف حوله الصراصير والذباب قد طلب العقاد إلى صلاح طاهر أن يرسمها هكذا ، دون أن يعرف صلاح طاهر المعنى المقصود من هذه اللوحة .

أما المعنى الحقيقى فهو أن العقاد فى ذلك الوقت كانت علاقته بمديحة يسرى على أشدها . .

ومديحة اسمها الحقيقى هنومة خليل . .

وكان العقاد يدللها بقوله : هنى . . أى عسل نحل . . وعندما اشتغلت مديحة يسرى بالفن أحس العقاد بالحزن الشديد عليها . . وقال إنها العسل الذى يقف عليه الذباب والصراصير .

وطلب إلى صلاح طاهر أن يرسم هذه اللوحة التى وضعها العقاد فى غرفة نومه . .

وكان العقاد يقول لطاهر الجبلاوى : إن مديحة عبارة عن ذراعى التى انفصلت عنى . . إننى أراها ، فأرى يدى وهى تتحرك بعيدًا عنى . .

وقال لى طاهر الجبلاوى إن العقاد كان يرش لها السلم بالورد وماء الورد . .

وقال لى عامر العقاد ابن اخ الأستاذ العقاد : إن فى رسائل العقاد خطابًا من مديحة يسرى بخط أخضر واضح تستعطف العقاد وتقول له : إنها راحت تدق الباب ولكنه رفض أن يفتح ، وتقول له : إنها ذهبت إلى باب المطبخ وراحت تدق الباب ولكنه رفض أن يفتح لها وبكت كثيرا .

وقال لى طاهر الجبلاوى إن سارة هى سيدة لبنانية واسمها أليس . . وهى الآن فى باريس . . وكانت جميلة جدًا . . وسارة كانت لها ابنة . . هذه الابنة تزوجت رجلا يهوديا .

وقد حدث أن اختلفت هى مع العقاد ، وانفصلا ولكن عندما كان العقاد يلقى محاضرة فى الجامعة الأمريكية وراح الحاضرون يبعثون إليه بالاسئلة فوجئ بورقة صغيرة مكتوب عليها : وحشتنى . .

وكانت الورقة بإمضاء سارة . .

فى ذلك الوقت كان العقاد فى الخامسة والثلاثين . . وتركها وأحب العقاد مى زيادة . .

ولم تكن لهما أية صلة جنسية . . اعترف العقاد بذلك .

وسمعت من عامر العقاد أنه قرأ رسائل مى إلى العقاد ، وهى من بينها رسالة اعترفت فيها بأن رجلا اسمه فرح اعتدى عليها . . وهو الأول والأخير . .

وأصيبت مى بلوثة فى آخر أيامها . .

وكانت تحس أن كل سائل يقدم لها هو سام وأن أحدا يريد أن يقتلها . . وكان العقاد يشرب هذا السائل ـ أى سائل ـ موضوع أمامها . . ولكنها كانت تقول له : لن يصيبك أنت . . فأنا المقصودة به .

(٨٢)

قال لى طاهر الجبلاوى : إنه طلب من الاستاذ العقاد أن يعترف ببنوة بدرية مصطفى أو بدرية م . ش رسميا ، ولكن العقاد كان من رأيه أن ينتظر قليلا .

وقال لى طاهر الجبلاوى : إن فوزية م . . . كانت مستودع أسرار العقاد . . وأنها عندما كانت تزوره كان لايسمح له بأن يجلس معها . . فيما كان يسمح له بأن يجلس مع كل صديقاته .

وقال : إن فوزية هى التى اشترت قماش الستائر لبيت العقاد فى أسوان وأن هذه الستائر هى التى كانت سببا فى وفاة العقاد . .

فقد بعث العقاد بهذه الستائر إلى أخيه أحمد فى أسوان . . والعقاد لا يحب زوجة أخيه أحمد ، وكان الغرض من هذه الستائر هو أن يضعها فى الفراندة للوقاية من الشمس .

وفوجئ العقاد عندما دخل البيت بأن الستائر كانت أقصر مما يجب ، وأدرك العقاد أن زوجة أخيه قد اقتطعت جانبا من القماش .

وقال العقاد لطاهر الجبلاوى : إننى لم أكد أرى هذا حتى جلست على المقعد عاجزًا عن الحركة . . وشعرت باوجاع المصران . . وفى نفس اللحظة طلبت حجز تذاكر العودة إلى القاهرة .

وعاد العقاد إلى القاهرة . . وروى ما حدث لفوزية . . ومرض العقاد وروى أسباب المرض لكل أصحابه وسمعت أنا هذه الرواية من عامر العقاد .

وأكد لى طاهر الجبلاوى أن العقاد ما كان يحب أولاد أخيه وهو يعلم علم اليقين أنهم لا يريدون إلا أمواله .

قال لى طاهر الجبلاوى : إن بدرية . . . قد انتحرت ثلاث مرات قبل انتحارها الأخير ، مرة عندما رسبت فى الامتحان ومرة عندما أجرى العقاد عملية جراحية فى عينه ، ومرة بعد ذلك لايذكر بالتحديد سببها .

ثم هذه المرة الأخيرة عند وفاة العقاد .

وقال أيضا : إن العقاد كان مريضا طول عمره . . فهو لا يأكل اللحوم ولا الطماطم ولا الخبز . . وكان يشكو من المعدة ومن المصران ومن أنفه ومن صدره . . وكان يرتدى الملابس الصوف صيفا وشتاء . .

وسبب التجهم البادى على وجه العقاد هو هذه الأمراض . .

وسبب الحركة التى تلازم أنفه ، هو أنه كان يشكو من أنفه . . وكان يضع فيه قطرات من الدواء . . وقد أجريت له عملية فى أنفه عند طبيب اسمه مارسيللنى بالقرب من مكتبة الانجلو . .

قال لى أيضا إن فوزية ذهبت إليه فى الساعة الخامسة صباحًا . . وذهب معها إلى بيت العقاد . . وكانت معه بدرية وصوتت ولطمت وراحت تلطم خديها بالجزمة فى صالون العقاد . . أما بدرية فهجمت على التمثال وراحت تبكى وتقول : يا أبويا . . يا أبويا .

وجاء أولاد أحمد العقاد وهددوها باستدعاء بوليس النجدة . . وكانت فى البيت سيدات من الأقارب . . وأدى هذا إلى حرج شديد . .

وأخذ طاهر الجبلاوى فوزية وبدرية فى تاكسى إلى البيت . . إلى بيت فوزية .

سألت طاهر الجبلاوى : إن كان قد رأى أثار كدمات على وجه العقاد بسبب

سقوطه على الأرض فقال : إنه لم ير العقاد وهو ميت . . لم يستطع . . بل إن ذكر اسم العقاد يوجعه . .

قلت له : إن بعض تلامذة العقاد قد لاحظوا هذه الكدمة الطولية . . وأننى أيضا رأيت ذلك ! وأن هناك اشتباها فى مقتل العقاد . . وأن القاتل هو أحد أولاد أخيه . . أو عامر بالذات !

فقال : لا أستبعد فقد كان الأستاذ يكرههم . . ويعرف أنهم لايريدون إلا فلوسه . .

(٨٣)

فى فندق سيدى عبدالرحمن روى لى الأستاذ التابعى قصته مع روز اليوسف . . وقصة مصطفى أمين وعلى أمين مع التابعى . . وقصة موسى صبرى مع الشيخ الباقورى . .

وقصة ابنه الصغير كوكى . . إنها قصة الحب والتدليل والمرض والجهل . . والمركب من كل هذه العناصر معًا .

فالطفل وليد التدليل . . الأب يقول أمه هى السبب والأم تقول الأب هو السبب . .

والنتيجة أن الاثنين وضعا الطفل فى نيران الحب ، فاحترق . . شاط !

فباسم الحب الشديد وضعاه فى قيود لانهاية لها . . وخلقا فى نفسه مخاوف لا حد لها . . قيدوه . . ربطوه . . سجنوه . . ثم راحوا يبكون السجين !

فالحب الشديد كالكراهية الشديدة . .

والنتيجة هى هذا المرض . . مرض الاضطهاد . .

وكما أن الطفل كره أبويه بسبب اضطهادهما له . . كذلك أبواه ، لابد أن يكونا قد كرها الطفل أيضا بسبب تعذيبه لهما . . فهو يعذبهما عن طريق حبهما له . .

فهو المعذب الذى يرد العذاب إلى والديه أيضا . . كلاهما يعذب الآخر . . كلاهما ضحية الآخر . .

صورة أخرى . . إذا كان حب الأم لطفلها يجعلها تضعه على ساقها كلما صحا . . فإن الحب الشديد يجعل الأم تضع طفلها علي صدرها ليلا ونهارًا . . فهى قدماه وساقاه وفمه وعقله . . فهى باسم الحب تقضى عليه . . تلغى وجوده . . فهى باسم الحب «تجننه» أى تحوله من وليد إلى جنين !

وإذا كان الحب يدفع الأم - مثلا - إلى أن تجعل طفلها يستحم فى ماء دافئ . . فإن الحب الشديد جدًا يجعل الأم تضع ابنها فى ماء يغلى . .

والنتيجة أنها بدلا من أن تدفئ ابنها ، فإنها تحرقه . . تشويه . . ويصبح طفلها محروقًا . . فى أعصابه . . فى جسمه . . فى دنياه كلها !

(٨٤)

المرأة لاتنسى أبدا حقوقها . .

والرجل كثيرًا ما يغفل عن حقوقه . .

والمرأة لأنها باستمرار مشغولة بنفسها ، فهى فى نفس الوقت مشغولة أيضا بكل ما يتعلق بنفسها وبجسمها وبالرجل الذى ترتبط به . .

والمرأة لأنها عالم صغير ، ولأن عالمها ضيق جدًا ، لا يتجاوز الرجل والطفل والأخ والخال ، فإنها تعرف هذا العالم جيدًا . . وتعيش فيه . . ولاتشغلها القضايا العامة ، ولا النظريات العامة . . وإنما كل ما تفكر فيه هو هذا المجال الضيق الذى تحسه وترتبط به . .

وهو بالضبط نفس العالم الذى لايفكر فيه الرجل عادة . .

(٨٥)

مظاهر الهرب النفسى ، ليس فقط : الانتحار . . وإنما الهرب هو انسحاب من موقف إلى مواقف أخرى . . فالأحلام هرب . . والنوم الطويل هرب . . والمرض الذى يؤدى إلى النوم هرب . .

والأحلام نفسها صورة من صور الهرب . . فكثيرا ما يرتد الإنسان فى أحلامه إلى طفولته . . والارتداد إلى الطفولة إما أن يكون سببه الخوف الشديد الذى يحيل الإنسان إلى طفل ، يخاف ويبكى أو يكون سبب هذا الارتداد هو الهرب من الواقع . .

(٨٦)

ما معنى أن يتفجر فيك إنسان وكأنه عدو لك وكأنه لايريدك وكأنه لايطيق الحياة معك أو لك أو بك . . هكذا فجأة !!

معناه أن هذه الرغبة قائمة ، ولكن الظروف هى التى تغطى عليها . .

فإذا جدت ظروف أخرى قطعت هذه المسافة ، وأصبح الإنسان ملتصقا بهذه الرغبة ، فتظهر على لسانه فجأة .

أحسن صورة لذلك ما يحدث بين الزوجين . .

مهما قيل فى العلاقة بين الزوجين ، ففيها من الانفجارات والتهديدات ما يجعل الإنسان يندهش هل أماكن هذه الانفجارات قريبة فعلا . . هل هى أشياء جديدة . . هل معقول أن يكون بين اثنين متحابين شىء من هذا ؟!إن من يرى زوجين يتشاجران بعنف يندهش وهو يتساءل : وما الذى جمع بينهما ؟ وكيف قامت هذه العلاقة بينهما ؟ أى شىء ربط بينهما ؟

ربط بينهما المبالغة فى كل شىء . . ومن ضمن هذه المبالغة : أهمية هذه العلاقة وقدرتها على حل كل هذه المبالغات ، وعلى تذويب الجليد والحديد وربط كل شىء انقطع ودفع التعويضات لكل الخسائر ومحو الماضى وإبراز الحاضر ووضع الإطارات الذهبية للمستقبل . . كل هذا فى درجات حرارة عالية . .

فكيف لاينفجر الاثنان من حين إلى حين ؟!

(٨٧)

هل البلادة الذهنية التى عندى سببها رغبة أكيدة فى أننى لا أريد أن أكتب . . أو لا أريد أن أفكر . . أو أنه لاقيمة لما أكتبه ؟

هل صحيح أننى أريد أن أقول كلامًا آخر . .

هل هذه مجرد رغبة . . وهل للوفاء بهذه الرغبة لابد أن اتهيأ نفسيا وعقليا .

إن الذى أريد أن أقوله واضح فى رأسى . . ولكن فى حاجة إلى مزيد من الدراسة . . والدراسة تحتاج إلى وقت . . فقد فاتنى أن أقرأ . . أن أدرس . . أن أرى الذى أقرؤه . . وأن أكتبه بوضوح .

أريد أن أقول ما الذى يجب أن أفعله للناس . . ما الذي يجب أن أقوله للناس .

كيف أنفع الناس ؟ وما الذى ينفع الناس ؟

إننى فى أحيان كثيرة أحس أننى لا أساوى ما ينفقه مدرس يمحو الأمية فى إحدى القرى .

ما الذى أكتبه ؟ من الذى يقرأ ما أكتبه ؟

أى فائدة ؟ أى معنى . . أى قيمة فيما أكتب ؟

لابد أن يكون للكلمات دور أقوى لابد أن يكون لها موقف أكثر عمقًا . . لابد أن يكون هو أكثر أصالة . . لابد أن تكون لجذوره أعماق ، ومن هنا نجنى ثماراً أكثر حيوية وأكثر فائدة !

آه لو كنت أعرف كيف أقول ما أريد أن أقوله . . منتهى أملى أن يكون الذى أقوله قويا واضحًا وضوح هذه الحروف أمام عينى . .

فقط أن أرى ما أفكر فيه . . فقط أن أرى ما أريد أن أقوله . .

إننى فى مناقشة مع الدكتورين عبد الرحمن بدوى ورشاد رشدى قلت إننى أتمنى أن أكون أوضح أن أكون مفهوما أكثر ، إننى لا أتعب من تكرار هذا المعنى . . لا أتعب من ترديده .

وربما كان سببه هو أننى تخصصت فى الفلسفة . . وذهبت للعمل فى الصحافة . . ومطلوب من الرجل المتخصص أن يكتب كلامًا غير متخصص فى مجال غير متخصص ولغير المتخصصين من القراء .

أو مطلوب أن أكتب الفلسفة التى تخصصت فيها فى الصحف وهى متخصصة ، وللقراء العاديين . .

هذا الإحساس بأن الذى أقوله هو فلسفة ، وبأن الذى يقرأ ليس فيلسوفًا ، وإنما هو إنسان مستعجل ويريد أن يقرأ بسرعة . . وأن يفهم بسرعة . . وأن يصل إلى المعنى بسرعة . . فإذا كان يذهب إلى عمله فى الأوتوبيس فإنه يريد أن يصل إلى هدفه بصاروخ ، ولذلك يجب أن تكون العبارات صاروخية ، وأن تكون المعانى كالمشاعل واضحة . . هذا المطلب البسيط الذى يشتريه القارئ بقروش ، هو أصعب ما يجده الكاتب : هو أن يكون صاروخى العبارة . . وضاء المعانى ، أين يجد الجمل الصاروخية ؟ وأين يجد المعانى المضيئة ؟ وإذا وجدها مرة ، فكيف يعثر عليها كل مرة . . وهل هذا ممكن ؟!

فى كل موضوع يخطر على بال الكاتب ! وكم مرة فى الشهر يمكن الكاتب أن يحقق ذلك ؟ وإذا كان الكاتب علم بهذه الأمنية! أليس من حق الكاتب أن يناقش القارئ ، وبأى حق يطلب القارئ هذه الصواريخ والمشاعل . . لماذا يتعذب الكاتب . . ويحترق من أجل عبارة واضحة . . وحتى إذا قالها فإن القارئ لايدرى بالعذاب الذى عاناه كاتب لكى يقول له هذه العبارة . .

إننى أرثى للكاتب ، لكل كاتب هذه أمنياته ، وأحسد القارئ على أنه فى مقعده يطلب القمر !

* * *

إذا نظرت إليه فى الكنيسة فستجد أنه لايستطيع أن يرفع يديه إلى السماء . .

أن يده اليمنى لاترى فيها إلا أصبعين . . فقد أكلت الحرب أصابعه الثلاثة . . أما يده اليسرى فهو لايستطيع أن يرفعها فقد أكلتها الحرب أيضا . . ولكن بأصبعيه الاثنين سيرتكب جريمة كبيرة . . سيقتل زوجته !

(٨٨)

فى كتاب مىّ « ابتسامات ودموع وظلمات وأشعة » . . صفحة ٢٤٦ كلام يدل على حيرتها بين وطن أمها ووطن أبيها ، والوطن الذى تعيش فيه والأوطان التى تحلم بها . . إنها صورة لحالة إنسان لايستطيع أن ينتمى !

(٨٩)

الذى يدل على أن على أمين متفائل هو أنه تصور أن الطريق « سالك » وأن الله على طرف الخط . . وأنه إله من نوع خاص . . إله ملاكى . . ولكن على أمين يطلب من الله شيئًا واحدًا هو أن يتمكن من التسامح مع الناس أو أن يمكن الناس من التسامح . . ولكن كل الذى طلبه من الله ، وكل الذى طلبه من الناس سحبه من آخر كتاب « دعاء » فقد لعن الناس جميعا . .

(٩٠)

الحرب جريمة ضد الإنسانية . .

وهى أيضا عقوبة لكل مجرم !

(٩١)

الأدباء والفنانون هم الجهاز الهضمى لأى عصر من العصور !

(٩٢)

شارع التنهدات . .

هو شارع من الزمالك يبدأ ببيت أم كلثوم وبيت إحسان عبدالقدوس وبيت فاتن حمامة وليلى فوزى ولبنى عبدالعزيز . . وعلى أمين . . وفى نهاية الشارع توجه حشود الناس الذين يتنهدون بمئات الألوف . . فى نادى السباق وفى النادى الأهلى . .

كل هؤلاء يتنهدون بمتعة . . بفن . . يتنهدون ولكنهم لايموتون . .

أم كلثوم صاحبة أجمل تنهدات . .

إحسان عبد القدوس صاحب أرق تنهدات . .

على أمين طبيب التنهدات . .

وهذا الشارع كل إنسان يمر به يقول : آه . . ولايسكت إلا ليقول : مرة أخرى . .

الهواء هنا علمنى أقول آه . .

كما أن الهواء الحار يجعل الإنسان يعرق وينفخ . . والهواء البارد يجعله يرتجف . .

فكذلك الهواء العاطفى . . الظلال والصفاء والقمر يجعلنى أقول : آه . .

قولى : آه . .

نقول معًا : آه . .

ودوى انفجار . .

لقد قال الشارع كله : آه !

* * *

فى مذكرات الكسندر ديماس ص٥١ يقول لها :

- ألا ترين هذا الشارع الجميل المظلم . .

- أيوه . . ماله ؟

- إنه شارع التنهدات . . ومن هذا الشارع جئت أنا !

(٩٣)

أظافر طويلة.. (أدب الأظافر الطويلة)(١)

أظافرها الطويلة :

سيمون دى بوفوار . .

ساجان . .

ناتالى ساروت . .

فرنسواز ماليه جوريس . .

جليله رضا . .

ليلى بعلبكى . .

غادة السمان . .

ليلى عسيران . .

لطيفة الزيات . .

جويس انيس منصور . .

نوال السعداوى . .

كوليت . .

كوليت خورى . .

فرچينا ولف . .

شيلا ديلانى . .

---

(١) صدر لى كتاب بهذا العنوان .

چورچ اليوت . .

چورچ صاند . .

بنت الشاطئ . .

قضايا المرأة والحرية والجنس . .

دراسة أندريه موروا لجورج صاند . .

رأى شوبنهور فى المرأة . .

رأى العقاد فى المرأة . .

مفهوم الأدب النسائى . .

باحثة البادية . .

مارى ماكارثى . .

جرترود شتاين . .

هاتا أرنت . .

(٩٤)

معظم المقالات التى أقرؤها عبارة عن « أداب المرور » . . كيف يمكن أن تمشى على اليمين . . كيف لاتصطدم بعلامات المرور . . عساكر المرور . . مخالفات المرور . . الرخص والتأمين على الحياة .

أن المقالات هى نوع من تيسير لوائح المرور . .

فقط : كيف تمشى في الشارع ؟

هل كل حياة الإنسان ـ أو هل الإنسان ـ هو إنسان يمشى . . فقط فى الشارع ؟ ألا توجد للإنسان مشاكل أخرى . . أليس إنسانا أولا ؟ أليس كائنا ماديًا أو تكوينًا نفسيًا . . أو انسانًا جدا أو مسئولا ؟إن الذى يتحدث عن آداب المرور يتحدث فقط عن أناس لهم سيارات . . أو أناس مشاءون فقط . . أو سائقو تاكسى أو عربجية . . مع أن قيادة التاكسى والعربة الحنطور ليست إلا صفة عارضة جدا لأى إنسان . .

إن كل المقالات هى تفسيرات لكل مذكرات آداب المرور فى الشوارع . . كأن الناس بلا بيوت ، كأن الناس ليسوا ناسا ؟ كأنهم فى نهار دائم ، وكأنهم لاينامون ولا يأكلون

ولايتعذبون ، وإنما فقط يمشون ككل العربات المكانيكية فى مدينة الملاهى !

وتبقى دائما مشكلة الإنسان . . من هو وما حدوده ؟

(٩٥)

قال لى طاهر الجبلاوى إن العقاد عندما رأى سارة تمشى مع الفنانة (أسيا داغر) وهى أخت أسعد داغر رئيس تحرير جريدة القاهرة ، أدرك فورا أن سارة زوجة أسعد داغر قد اتجهت إلى الأوساط الفنية . . أى اتجهت إلى أناس آخرين غير العقاد . .

وأنه لا أمل بعد ذلك . . لا أمل منها . . ولامعنى لحبها . . وثار العقاد . . وبدا يكلف طاهر الجبلاوى بمتابعة سارة فى كل مكان . .

وقال لى طاهر الجبلاوى : إن العقاد عندما علم بصلة مديحة يسرى بمحمد أمين قرر أن يتركها . . ولكن هذا القرار كان أليما جدًا . . وحاولت مديحة أن تدافع عن نفسها . . ولكنها لم تفلح . . والعقاد نفسه قرر أن يقطع صلته بها !

بدأت هذه التاملات فى مارس سنة ١٩٦٠ وانتهت فى ابريل سنة ١٩٦٢ .

وقد ضاعت عشرات الصفحات فى اولها واكثر من مائة صفحة فى نهايتها . . وقد انقذت هذه الصفحات من الضياع . . فقد كان فى نيتى ان اكملها فتكون كتاباً وحدها . . ولكن . .)

اختلفنا كثيرًا
وبقي الإعجاب دائمًا!

أى محـــــل أرتقـــى　　أى عـظـيـم اتـقـى(*)
وما خـــلـــق اللـــه　　ومـــا لـم يخـلـق
محـــتقـر فى هـمـتى　　كـشـعـرة فى مـفـرقى

لم نسمع المتنبى وهو يتغنى بنفسه وبهذه المعانى، ولكن سمعناها مفرقة فى صالون العقاد.. وأسعدنا ذلك كثيرا، فنحن أيضا مفتونون بالعظمة الفكرية، والأبهة العقلية، والبطولة الإنسانية.. وكنا نرى كل ذلك فى العقاد.. وفى أنفسنا أيضا أدباء ومفكرين إنه أعظم من أقوى الحكام، وأغنى الأغنياء..

وقد عرفته كاتبا فبهرنى.. وعرفته شخصا فبهرنى أكثر.. وحجب عنا كل عظماء زمانه وزماننا.. وكنا نراهم عظماء.. ولم يرهم كذلك، ولم يتسع وقتنا وانشغالنا بدروسنا واستغرقنا فى العقاد أن نراجع كل ذلك.. وأن نقول له ويقول لنا.. فقد كان هو الذى يقول أكثر.. ونحن الذين نتلقى ونراجع الذى قال ذهابا إلى بيته وإيابا..

(*) القيت فى احتفالية للعقاد فى مكتبة القاهرة الكبرى..

وكنا نستدرج العقاد إلى أن يتحدث فى الفلسفة التى تخصصنا فيها . . وكان يقول كلاما جميلا . . ونعرض عليه مشاكلنا فى فهم النظريات الفلسفية . . وكنا نسمع كلاما سهلا . . ومتعة كبرى فى ذلك الوقت أن يحضر أساتذتنا يناقشون العقاد .

وفى آخر الأربعينات كانت الفلسفة الوجودية . . وكنت من أشد المتحمسين والداعين لها . . وأصدرت كتابى الأول عن الوجودية سنة ١٩٥٠ . . ولم يقرأه العقاد . . وفى ذلك الوقت اشتركنا مع الأستاذ فى لعبة بريئة . . فقد كانت الترجمات الإنجليزية للفيلسوف الوجودى الدانماركى سيرن كيركجور تترى شهرا بعد شهر . ونلهث وراءها فى المكتبات ويسبقنا الأستاذ فيحصل عليها ، ويتعمد أن يسألنا كلما رآنا : إلى أين وصلتم فى الوجودية يا مولانا؟!

وكان ذلك بداية المرح فى اللقاء الأسبوعى فنقول : حتى الكتاب الفلانى يا أستاذ . .

ويرفع العقاد صوته مناديا الخادم : يا إبراهيم هات الكتب التى على السرير .

وتكون كتب الفيلسوف كيركجور التى ظهرت أخيرا والتى قرأنا عنها ولم نرها ، ويضحك العقاد ، وكان ينعش الحماس فينا عندما يسأل عن آخر النكت . . فتقال له . ولكنه يقول الجديد الذى لانعرفه . . تماما كالكتب التى لم نعرفها تضحكه وتضحكنا وتضاعف من إعجابنا به . . وكل ما يأتيه الأستاذ فهو عجيب . . ثم إنه يضحك دائما !

ولعبة أخرى كان الأستاذ العقاد يسميها « شيطنة تلامذة » . . فقد كنا نقارن بين الأستاذ وبين كارليل وهازلت والفيلسوف الألمانى نيتشه . . أو بينه وبين الفيلسوف الألمانى شوبنهور . . وكنت أنا الذى يرى أن العقاد قد تأثر كثيرا بشوبنهور . . وفى شعر العقاد أدلة كثيرة على ذلك . .

أما كتابه « هذه الشجرة » فهو أروع وأبدع وأصدق ما قيل عن المرأة . . وهذا الكتاب وحده كفيل بأن يجعل العقاد أعدى أعداء المرأة فى كل العصور . . هو عن فهم صحيح وتجربة متواضعة ، ونحن عن نقص فى التجربة وخوف منها . . وكان

العقاد يذكر كثيرا ما فعلته زانطيبة زوجة سقراط ويروى كيف هرب تولستوى من زوجته حتى يموت بعيدا عنها . .

وكنا فرحين بكل ذلك . . ونشرت أول كتاب عن « المرأة عند العقاد وشوبنهور» . .

يقول شاعرنا الفيلسوف عباس العقاد :

خلِّ الملام فليس يثنيها
حب الخداع طبيعة فيها
هو سرها وطلاء زينتها
ورياضة للنفس تحييها
وسلاحها فيما تكيد به
من يصطفيها أو يعاديها
وهو انتقام الضعف ينقذها
من طول ذل بات يشقيها
أنت الملوم إذا أردت لها
مالم يرده قضاء باريها
خنها ولاتخلص لها أبدا
تخلص إلى أغلى غواليها !

ويقول الأستاذ العقاد :

تريدين أن أرضى بك اليوم للهوى
وارتاد فيك اللهو بعد التعبد
وألقاك جسما مستباحا وطالما
لقيتك جسم الخوف جسم التردد
رويدك إنى لا أراك مليئة

بلذة جثمان ولا طيب مشهد
جمالك : سم فى الضلوع وعثرة
ترد مهاد الصفو غير ممهد
إذا لم يكن بد من الحان والطلى
ففى غير بيت كان بالأمس مسجدى !

ويقول الأستاذ :

زرقة عينيك لا صفاء
فيها ، ولكنه فضاء
حمرة خديك لا حياء
فيها ولكنه اشتهاء
قوامك الرمح لا اعتدال
فيه ، ولكنه اعتداء

* * *

يا حيرة القلب فى هواه
يا غاية العمر فى مناه
وجهك سبحان من جلاه
ولوث النفس بالطلاء !

وغير ذلك كثير فى شعره . . وكان الأستاذ يصف هذه المحاولات بأنها شقاوة . . وكان يضحك عاليا ويقول : يا مولانا عندما تكبر سيكون لك ما هو أسوأ من ذلك فلا تتعجل !

وعندما نشرت مجلة « فكر وفن » الألمانية دراسة ضافية عن العقاد قالت إنه تأثر بالفيلسوف المتشائم شوبنهور أكثر من تأثره بالفيلسوف نيتشه . .

وأسعدنى أننى تنبهت إلى هذه الحقيقة صغيرا ووقتها لم يعترض الأستاذ على ذلك إما لأنه موافق ، وإما لأنها شقاوة تلامذة ، وإن كانت صحيحة !

* * *

. . وفجأة كأننا قمنا بحركة انفصال عن العقاد أو تمرد فى داخل معسكره . . فقد بدأ يسخر منا بعنف . . ويسفه ما نراه جديدا جميلا - أقصد الفلسفة الوجودية التى آمنا بها . .

وفى يوم نقلت إليه سنة ١٩٤٤ كيف أن الطلبة حملوا أستاذنا عبدالرحمن بدوى على الأكتاف عند حصوله على الدكتوراة التى موضوعها « الزمان الوجودى » وأن لجنة الامتحان كانت من طه حسين وعلى عبدالواحد وافى وباول كراوس وحسن إبراهيم عميد الكلية . . ولم يكن بين هؤلاء الطلبة الا القليلون جداً الذين يعرفون ما الذى قاله عبدالرحمن بدوى ولا ماهو الجديد فى الفلسفة الوجودية الألمانية التى يعتنقها . . وإنما كانت مظاهرة عدائية للدكتور عبدالواحد وافى الذى دأب على السخرية من عبدالرحمن بدوى . . حتى المستشرق الألمانى باول كراوس قد اعترض على بعض التعبيرات التى استخدمها د . بدوى والحق معه . ولم يقبل منه الطلبة ذلك . . أما طه حسين فقد التفت إلى تلميذه ووصفه بأنه أول فيلسوف مصرى . .

ولا أظن أننى أكملت هذه الصورة للأستاذ . . فقد قاطعنى مهاجما طه حسين وساخرا من أن يعين أحدا فيلسوفا . . وفيلسوفا وجوديا ، هكذا على كيفه ومزاجه . . وأصبحت الوجودية مادة للسخرية فى جلسات الأستاذ الأسبوعية .

وهذا طبيعى . . فالأستاذ ينتسب إلى مدرسة فلسفية أخرى وهى مدرسة الفكر الإنجليزى كله . . ومن رأيه أن الإنجليز أقدر الناس على فهم الحياة لأنهم تجار . . ولذلك كان مفكروهم وفلاسفتهم فى غاية الوضوح . . وكان الأستاذ أقرب إلى مدرسة التحليل المنطقى التى يتزعمها الفيلسوف الإنجليزى براتراند رسل . . فليكن! ولكن الوجودية ليست عبثا ولهوا وهلوسة . . وكنت أقول له إننا نحن الوجوديين مصابون بأرق عقلى . .

والتقطها الأستاذ ليطلب منى أن أذوق النوم ولو يوما واحداً . . نوما عميقا ، وأجىء فورا من الفراش إلى بيت الأستاذ ليرى بنفسه كيف يتغير النظر والنظرة !

وفى سنة ١٩٥١ طلبت من الأستاذ العقاد أن يكتب لنا مقالا فى مجلة «الشهر» التى كان يرأسها الصحفى الكبير أحمد الصاوى محمد وكنت نائب رئيس التحرير

وكان سكرتير التحرير الفنان حسن فؤاد والمشرف الفنى الأستاذ عبدالسلام الشريف . . وكتب المقال ، وكان هجوما على الوجودية . . وهاجمنى ، وهاجم عبدالرحمن بدوى دون أن يذكر اسمه ـ احتقارا له أو استخفافا به ـ وكان لابد من نشر المقال ، ولم تطاوعنى نفسى أن أرد عليه . . ثم عاد فهاجمنى مرة أخرى فى (أخبار اليوم) ، وصالحت نفسى على نفسى ، فرأيت أن الأستاذ لايهاجمنى شخصيا وإنما يهاجم الفكر الذى لا يراه ، ولايحبه أو الذى لم نأخذ رأيه فى اعتناقه !

وقد راهنت زملائى فى صالون العقاد علي هذا المعنى وكسبت الرهان ، وقلت له : يا أستاذ إنك أول من أشار إلى الفلسفة الوجودية عندما قلت عن الفيلسوف نيتشه كذا وكذا . . أو هذا ما فهمناه خطأ !

وأسعده ذلك . . ولم أكن صادقا ، ولكن صحت نظريتى !

ويعود يسخر من طه حسين الذى يشكل وزارة للفكر فيجعل هذا وزيرا للفلسفة وهذا وزيرا للنقد والثالث وزيرا للتاريخ . . وكان الأستاذ يقول : لو كان الأمر كذلك يا مولانا لتوجت نفسى امبراطورا من عشرين عاما !

وعبدالرحمن بدوى هو الآخر كان لايحب العقاد . . والأسباب كثيرة ولكن أحد هذه الأسباب أننى دعوت الأستاذ لإلقاء محاضرة عن « السببية عند الغزالى والنسبية عند أينشتين » ، فقد كان د . بدوى يدرس لنا مناهج البحث الفلسفى وقد تعرض لكثير من معنى الزمن والحركة فى الفيزياء عند ماكس بلانك وهيزنبرج ونيلس بور والأمير دبروى . . وجاءنا الأستاذ وكانت محاضرته فى المدرج ٧٨ الذى امتلأ بطلبة من كليات الآداب والحقوق والعلوم والهندسة ، واحتشد رجال الأمن أيضا . وكنت قد طلبت إلى الأستاذ أن يحاضرنا فى أى موضوع يراه . . فرفض بكبرياء . . وطلب أن نختار نحن الموضوع الذى نراه ، أى أنه على استعداد للحديث فى أى موضوع نراه ، لا فى موضوع قد استعد له من قبل . واخترنا هذا الموضوع الصعب الذى أزعجنا وأعجزنا . .

وتضايق د . بدوى ولكننا نحب العقاد وعبدالرحمن بدوى أيضا ، فعبد الرحمن بدوى أستاذنا ودليلنا إلى فلسفات الحضارة والوجودية الألمانية . ولولا ما أرساه من مصطلحات جديدة بقدرة فريدة على نحتها وتعميق معانيها ، ما عرفنا عشرات

الأسـمـاء . . وكـان بدوى يحب ويكره بعنف . . وتسللنا وراءه ، وبعـيـدا عنه إلى الوجودية الفرنسية عند سارتر ومارسيل وكامى والأسبانية عند أونا مونو وأورتيجا أى جاست والإيطالية عند روجيرو والروسية عند برد يائف . .

وفى هذا الجو المشحون ضدنا ومعتقداتنا عرفت طه حسين ، فلم أكن أعرفه ، وندمت كثيرا جدا على أننى ما عرفته إلا متأخرا ، ففيه أستاذية وأبوه ورقة ولطف . . يدعونا فى أدب إلى الفكر فيما نقول وفى الذى يقوله الأستاذ . . وكان الأستاذ حادا عنيفا رافضا لكل الذى لم يقل . . وظللنا على حبنا للأستاذ . .

ونندهش طويلا ونعرف الكثير فى دنيا العقاد . . وقد رأيته البداية لكل شىء . . بل رأيت معه كثيرا من البدايات . . فاهتديت إلى أنه ولد فى السنة التى ولد فيها طه حسين والمازنى وعبدالرحمن الرافعى والفيلسوف الوجودى الألمانى مارتن هيدجر والوجودى الفرنسى جابرييل مارسل وفيلسوف الوضعية المنطقية فتجنشتين والأديب الفرنسى كوكتو وعميد المؤرخين الإنجليز ارنولد توينبى والشاعرة الروسية اخماتوفا وكذلك هتلر ونهرو وشارلى شابلن ، ووجدت سنة ١٨٨٩ سنة حاسمة فى التاريخ الإنسانى . . وكان الأستاذ هو البداية أو هو الأول على كل هؤلاء والساخط على أكثرهم . .

وعندما كتبت فى سنة ١٩٤٩ مقالا أحيى الأستاذ فى ميلاده الستين . . كان رد الأستاذ : يا مولانا لقد بلغتها سرا ففيما الفضيحة؟

ولم يكن سعيدا !

وكنت أسجل هذه النوادر والطرائف وملاحظاتى عليها أملا فى أن اؤلف كتابا عن الأستاذ . .

ومما قلت عن العقاد أنه ينتمى إلى زمن عاش فيه الناس بعيون بلا أجفان فهم لم يذوقوا النوم ولا الأحلام . . فإنما خلق الله أجفان الناس ليستطيعوا النوم والأحلام والشعر . .

ثم انشغلت كثيرا بنفسى ومستقبلى . . وظلت سنوات صالونات العقاد حية فى رأسى وفى قلبى حتى نشرتها سنة ١٩٨١ فى كتابى « فى صالون العقاد كانت لنا أيام » . .

وعدت إلى الأستاذ مرة أخرى فى كتابى « عاشوا فى حياتى » . . ومرة ثالثة فى كتابى « أنتم الناس أيها الشعراء » . . ورابعة فى كتابى « هؤلاء العظماء ولدوا معا » . . ولايخلو كتاب لى من ذكر شىء عن الأستاذ . . له أو عليه . إنه هناك فى مكان رفيع عظيم الاحترام من ماضى وحاضرى . . وإن لم يكن وحده الذى شغلنى وأضاءنى وأضاء لى . . إنهم كثيرون . . وطبيعى أن يلقى العظماء احتراما عميقاً من الذين يتعلمون وهم يقرأون ويتعلمون وهم يكتبون . . ويعرفون أقدار الكبار . . وينقلون ذلك إلى القراء . .

هل كنت أسعد حظا ؟ ربما . .

فلم يكن صعبا أن أجد العقاد فى أى وقت وطه حسين والحكيم والمازنى ولطفى السيد وعبدالوهاب وأم كلثوم ومصطفى مشرفة وعبدالهادى أبو ريدة . ويوم تخرجت فى الجامعة لم أعرف بالضبط ما الذى يمكن أن أفعله . . فقد أصر عبدالرحمن بدوى على أن أمضى فى السلك الجامعى . لاسبيل غيره . . وإلى جانب عملى الصحفى درّست فى الجامعة وكان رئيسى د . بدوى ١٢ عاما . ثم تفرغت تماما للصحافة فعاتبنى أستاذى د . شوقى ضيف . . ولم أندم . . ويوم جئت إلى القاهرة قلت إننى دخلت جامعتين معا جامعة العقاد وجامعة القاهرة . . ويوم كان لابد أن أترك الجامعة اتجهت إلى التدريس فى جامعة أكبر . . تلامذتها بالملايين هى جامعة الصحافة .

وكان الأستاذ يسخر من أساتذة الجامعة وطرائقهم فى التفكير . . طه حسين ومنصور فهمى . . والعقاد معه الحق فى أن التدريس يجفف الفكر ويجمد الخطوة ويخنق الجرأة ويقتل الحرية . . وقد سارعت فقلت للأستاذ : أنت تتفق مع الفلاسفة الوجوديين فى كل ذلك يا أستاذ !

فأيقظت بذلك الفتنة النائمة . . وانفتحت شهيته ليصف الأساتذة بالجهل والوجوديين جميعا بالهذيان !

وقد رأى الملايين فى التليفزيون ذلك اللقاء الذى أعددته لطه حسين وعدد من الأدباء ، وقبل تسجيل هذا اللقاء هاجم طه حسين الأستاذ العقاد ، واتهمه بأنه لم يدخل جامعة ولم يحصل على أى مؤهل وهذا واضح فى طريقته فى الكتابة . . فهو يقف فى صف طويل من الأفكار . . هو فى المقدمة دائما والأفكار أبقار يجرها وراءه !!

أما الفرق بين العقاد وطه حسين والحكيم فهو : أن العقاد يقف أمام الفكرة وطه حسين إلى جوارها والحكيم وراءها . . فالعقاد يقول لك أنا أرى كذا . . وطه حسين يقول : ألست معى فى كذا . . والحكيم يقول : نحن نتحاور معاً .

وكان طه حسين يعيب على المؤرخين أنهم يلجأون إلى الخرافة فى تفسير الأحداث . . أو أنهم يلجأون إلى التفسير الإلهى أو حشر الأحداث فى قوالب مقدسة فهم يفرضون على وقائع التاريخ هالات سماوية ويجردونها من الإنسانية ومن الضعف البشرى . .

وهذا بالضبط ما فعله الأستاذ العقاد بعد ذلك . . فهو يقيم إطارات منطقية صارمة لمسار الأحداث . . فالكون عند الأستاذ مربوط ربطا لا فكاك منه . . تماما كعالم نيوتين . . وليس كعالم أينشتين . . فالعقاد تقليدى فى فهمه للأحداث . . وهو يرى أن البطل الفرد هو القوة المحركة لعجلات التاريخ . .

والفرق واضح بين العقاد وطه حسين . .

فالعقاد يلجأ إلى التفسير النفسى المنطقى للشخصيات التى يدرسها ويقدم لنا مفتاحها الصغير . .

وطه حسين يلجأ إلى التفسير البيانى أو البلاغى فى دراسته لأية شخصية . . وأوضح نموذج لذلك : دراسته للمتنبى وأبى العلاء . . وما كتبه الأستاذ عن العبقريات نموذج بارز لكل ذلك . .

وقد سخر طه حسين كثيرا من كتاب « أبو نواس » للعقاد . . فالأستاذ فى دراسته للشاعر أبى نواس استعان بكل نظريات فرويد . . ولم يلتفت كثيرا إلى شعره . . وإنما أرغم الشعر والشاعر على أن يدخلا البيت الصغير الذى أقامه من الزجاج غير القابل للكسر !

مرة قلت للأستاذ « إننا » فى الفلسفة الوجودية . . ولم أكمل هذه العبارة فاستنكر كلمة « إننا » وقال : كأن الوجودية يا مولانا دير أقمتموه لكم ولا يحق للعقلاء أن يدخلوه . . لقد دخلنا مستشفى الأمراض العقلية كثيرا زرنا ودرسنا وتأملنا . . . هاها ها .

أى أننا مجانين . . لابأس! فالأستاذ يرى مالانراه . . ونرى مالا يراه . . هو كذلك ونحن أيضا . واختلفنا . . وافترقنا ، ولكن الإعجاب به قوى عميق .

وذكرت للأستاذ مرة وأنا مصر على أن يسمعنى : إننا فى الفلسفة الوجودية نتخير منهجا آخر فى دراسة الأدب والأديب . . فنحن نأخذ من حياة الأديب ما نفسر به عمله ومن عمله ما نفسر حياته . . إيمانا منا بأن الأديب يساوى بالضبط ما كتب . . وأروع نموذجين لتطبيق هذا المنهج الوجودى ما كتبه الفيلسوف سارتر عن الأديب « جان جينيه » إنها أعظم دراسة نقدية فى التاريخ كتبها فيلسوف عن أديب لايزال حيا . . ثم ماكتبه سارتر عن (فلوبير) أبغض شخصية إليه . . فهو أيضا أروع وأبدع وأمتع . . والحب مثل الكراهية يمد الباحث بأقوى أسلحته . . فسارتر يحب جان جينيه . . ويكره فلوبير كما لم يكره أحدا . . وكتاب سارتر عن فلوبير جاء فى أكثر من ألفى صفحة . . قرأتها فى شهر !

* * *

وقد ذهب العقاد . ومعه الكثير من إشعاعه علينا . . ومن حيويته فينا . . ولكن بقى منه الكثير الذى لانجده عند سواه . .

وبقيت صورة الأستاذ جالسا أمامنا كما كان يفعل : يضع يده على الجانب الأيمن . . ثم على الجانب الأيسر . . يضغط على المصران الغليظ العصبى . . فقد كان الأستاذ العقاد يأخذ نفسه بمنتهى القسوة والناس أيضا .

وعندما تمدد العقاد على فراشه الأخير . . ونحن حوله . . كان يحدثنا ـ كما فعل سقراط مع تلامذته ـ عن أمله الباقى فى أن يؤلف كتابا عن « فلسفة الجمال » . . وأن يجمع نظريته التى تفرقت فى كتبه نثرا وشعرا .

وعن حلمه فى أن يفسر « القرآن الكريم » تفسيرا عصريا مبتدئا بسورة الرحمن . . فسارعت إلى د . عبدالقادر حاتم وزير الإعلام أزف إليه هذه البشرى ، ولم نكد نستعد للمشروع الجليل ، حتى أنهاه العقاد برحيله .

وقبل الرحيل لم أستأذن الأستاذ فى أن آتى له بطبيب . . وجئت بصديقى جمال الدين بحيرى أستاذ أساتذة الجراحة والتجميل . . ولما رآه العقاد سألنى إن كان باطنيا فقلت : هو كذلك . .

وسأله الطبيب . . وسأل الطبيب . . ثم خرج الطبيب ليقول لى : إنه يعرف أكثر

من أى طبيب باطنى . . فلايكاد يصف له دواء حتى يقول : جربناه يا مولانا وكان أثره ضعيفا لأننا ولأنه . فإذا عاد واقترح دواء جديدا قاطعه الأستاذ قائلا : ولكن هذا مضاد للدواء الفلانى . . ومعطل للدواء العلانى . .

وقال لى د . بحيرى : ليس عندى ما أقوله فهو يعرف كل شىء .

واستطاع العقاد الطبيب أن يعالج العقاد الأديب . . حتى جاءه الشفاء من كل داء والراحة من كل دواء . . وهكذا كان العقاد الأديب ضحية العقاد الطبيب !

* * *

وقد حزن على موت العقاد كثيرون . . اثنان كان حزنهما أعمق : زكى نجيب محمود وأنا . . أما زكى نجيب محمود صديق الأستاذ والذى ترجم له كتابه « فى بيتى » فلم يقرأ له العقاد شيئا . . ولا كتب عنه ، وكان زكى نجيب محمود ـ كما قالى لى ـ يتمنى لو تنبه العقاد إلى فن المقال عنده . . فلم يعرف الأدب الحديث أحدا أبدع فى صناعة المقال كما فعل زكى نجيب محمود وتوفيق الحكيم . .

ولم يقرأ لى العقاد إلا مقالا واحدا ، وأحزننى ذلك . . المقال نشرته سنة ١٩٤٩ فى جريدة « الأساس » التى كان يكتب فيها وكانت لسان حال « الهيئة السعدية » . . المقال عنوانه « معنى الفن عند تولستوى » . . وفى هذا المقال استخدم تولستوى تعبير « الأدب الهادف » وكان تعبيرا شائعا فى ذلك الوقت . . وأسعدنى العقاد دقيقة واحدة وأتعسنى ألوفا . . فقد قال لى إنه قرأ المقال وأعجبه . . عندما ناداه الخادم لكى يرد على التليفون . . وتركنى فى نشوة غامرة . . ثم عاد الأستاذ ليقول : إن الذى أعجبه هو الأسلوب !

أى أن العقاد أعجبه أسلوبى لأنه قريب من أسلوبه الصعب الشاق . . وكان ذلك يوما حزينا . . ولما عدت إلى المقال وجدتنى لم أتخلص تماما من التراكيب الفلسفية الصعبة ولم أخلعها عن رأسى وقلمى . . إذن سوف تصبح حاجزا مانعا لانتشار فكرى بين الناس . . وجعلت أعيد صياغة المقال عشرين مرة . . ووقتها توقفت عن الكتابة . . ولم أعرف كيف أعود ، ثم عدت ، بعد أن تجردت من القوالب الفلسفية الخشنة . . أملا فى أن أكون مفهوما لأقل الناس علما . . لقدكان ذلك أملى ، ولا يزال . . فشكرا للأستاذ !

وفى يوم قررت أن أهاجم الأستاذ كما هاجمنى والوجوديين . . فقد ارتأيت أنه

وقع فى خطأ لغوى دون أن يدرى لأنه لايعرف اليونانية واللاتينية . . وكتبت وقلت : لعل ضعف نظر الأستاذ هو الذى جعله لايفرق بين بعض الحروف . .

فالعقاد كتب مقالا يهاجم فيه « مسرح العبث » الذى تزعمه فى مصر توفيق الحكيم عندما كتب مسرحية « يا طالع الشجرة » فكتب الأستاذ يقول إن « العبثية » معناها كل ما يتنافى مع المنطق . . أى حين يكون الإنسان لامنطقيا ولا علميا . . واستخدم العقاد كلمة « باتا فيزيك » ورأيت أن الأصح هو « بارا فيزيك » . .

ثم تحدثت مع المرحوم عامر العقاد سكرتير الأستاذ وابن أخيه . . وأخبرته بأننى سوف أهاجم الأستاذ لامحالة ولاجدال ولاتردد فى ذلك . . فقد تعلمنا منه ألا نجامل أحدًا . . وهو لايجامل فى الحق أحدًا !

وبعد دقائق حدثنى عامر العقاد قائلا : إن الأستاذ يطلب إليك أن ترجع إلى كتاب أسلن عن « مسرح العبث » صفحة كذا . . وسوف تجد أنك أنت الغلطان يا مولانا !

ونزلت من المكتب إلى البيت . . وفتحت الكتاب . . ووجدت الأستاذ على حق . . فالكلمتان باتا فيزيك وبارا فيزيك بمعنى واحد !

وأضفت ذلك إلى حساب العقاد فى دقته فى كل ما يكتبه . . فهو الأستاذ دائما !

وكان طه حسين يقول لى : أستاذك العقاد . .

وكان العقاد يقول لى : أستاذك الشيخ طه . .

وكان الحكيم يقول لى : العقاد بتاعك . .

وجمعت ثلاثتهم على التليفون فى حديث واحد عن رأيهم فى بعضهم البعض . . وكانت آراؤهم التى نشرتها فى ذلك الوقت سيئة تماما . . فقد عاشوا معا كارهين بعضهم البعض وساخرين أيضا .

ولكن ثلاثتهم كبار عندنا . . وإن لم يروا ذلك فى أنفسهم . . فالعقاد : هو المفكر . .

وطه حسين : هو الأديب . .

والحكيم : هو الفنان . .

أما بقية الصورة الثقافية التذكارية فهى هكذا :

العلماء : أحمد زكى ومصطفى مشرفة وبول غليونجى . .

والمؤرخون : سليم حسن وعبدالرحمن الرافعى وشفيق غربال وأحمد أمين وحسين هيكل . .

والشعراء : شوقى وحافظ والعقاد وعبدالرحمن شكرى وعلى محمود طه . .

والموسيقيون : سيد درويش وعبدالوهاب والسنباطى وزكريا أحمد والقصبجى . . والشجاعى صديق الأستاذ .

وأساتذتنا فى الفلسفة : عبدالرحمن بدوى ومحمود خضير وعثمان أمين وإبراهيم مدكور ومصطفى عبدالرازق ويوسف كرم والأب قنواتى . .

والفنانون : مختار ومحمود سعيد وناجى وصلاح طاهر . .

ومئات من الأسماء الأوروبية . .

إنهم أقلام وأضواء وسبل وجسور . . عشنا بهم ومعهم . . وعاشوا بنا بعدهم . .

وكنا التلامذة السعداء بهم . . كنا ومانزال . . وكانت حياتنا معهم وبهم متعة مؤكدة نفتقدها كثيرا . .

ولكن الفن أبقى من الفنان . . والفكر أبقى من المفكر .

وكما علمنا الأديب اندريه مالرو : أن الفن يعيش على الفن وليس على الطبيعة . . فنحن لم نتعلم خلط الألوان ، وحركة الفرشاة من غروب الشمس وشروقها وإنما من تأمل لوحات الفنانين الآخرين . . ولم نتعلم الموسيقى من خرير المياه وعصف الريح ودعاء الكروان وإنما من النظر إلى النوتة الموسيقية والعازفين . .

وكذلك شأننا فى الشعر والنثر .

وقد أسعدنا زماننا فعرفنا هؤلاء الكبار . . وعرفنا بهم عظماء آخرين . . وعشنا بهم ومعهم . . وأضأنا بهم ولهم . . فكانت حياتنا الأدبية والفلسفية . . فهم لم يموتوا . . ولا العقاد مات . .

ولقد اندهش الجمهور عندما ذهب الأستاذ العقاد إلى الجامعة الأمريكية واستأنف فى محاضرة له الهجوم على شوقى أمير الشعراء بعد وفاته بعشر سنوات . . وقالوا : ولكن شوقى قد مات !

وقال الأستاذ : ولكننى أراه لم يمت ولايموت !

وكذلك العقاد . .

وعملا بوصية الأستاذ العقاد سوف أذكُره وأذكّره بشعره . . ففى ذلك إطالة لعمره دقيقة أو دقيقتين .

يقول الأستاذ عن الأستاذ :

إذا شيعونى يوم تقضى منيتى
وقالوا : أراح الله ذاك المعذبا
فلاتحملونى صامتين إلى الثرى
فإنى أخاف اللحد أن يتهيبا
وغنوا فإن الموت كأس شهية
ومازال يحلو أن يغنى ويشربا
وما النعش إلا المهد . . مهد بنى الردى
فلاتُحزنوا فيه الوليد المغيّبا
ولاتذكرونى بالبكاء وإنما
أعيدوا على سمعى القصيد فأطربا !

أوراق صحفية

مجلة أكتوبر

عندما صدر العدد الأول من (أخبار اليوم) كنت طالبا غارقا في الفلسفة. لا أدرى بأى شيء حولى في مصر أو في الدنيا ولا أعرف من كتاب مصر إلا عددا قليلا جدا هم العقاد وطه حسين وعددا كبيرا من الكتاب والشعراء القدامى .. والأسماء التى تملأ حياتى هم أساتذتى : عبد الرحمن بدوى ومصطفى عبد الرازق ولطفى السيد وعدد كبير جدا من الفلاسفة المعاصرين والقدماء .. أما الذى يشغلنى ليلا ونهارا فهو كيف خلق الله العالم .. من ماء ؟ من طين ؟ من نار ؟ وكيف كان الإنسان الأول ؟ وكيف الموت والحياة ؟ والحياة بعد ذلك ؟ ونأكل سندوتشات الفول ونعيد تركيب الكون من أوله لآخره .. ومعلوماتنا قليلة وخيالنا كبير وطموحنا مشوش ..

ولا أذكر أننى قلبت في العدد الأول من أخبار اليوم .. وإنما رأيت الصفحة الأولى بشكلها الفظيع .. العناوين كبيرة وبالألوان .. وكل موضوع له عنوان كبير .. وسمعت عن (أخبار اليوم) وعن مصطفى أمين وعلى أمين .. كلام عام .. وحكايات سريعة وبمرور الوقت اتخذ مصطفى وعلى أمين شكل العمالقة .. أو سكان الكواكب الآخرى .. بس ! وانصرفت إلى عملى وفكرى ودنياى ..

فلم تكن أحلامى أن أكون صحفيا . ولا أعرف معنى صحفى . وكل ماهناك أننى أريد أن أكتب . أو أبدأ فقط بصناعة الكلام . فقد كان أبى شاعرا متصوفا . وقد حفظت عنه شعرا كثيرا . . كما أننى أكملت حفظ القرآن الكريم فى التاسعة من عمرى . فلابد أذن أن تكون لى علاقة بصناعة الكلام الجميل . . فقط حفظت فى سن صغيرة أعظم كلام وأجمل شعر . . ولكن كيف أكون كاتبا لاأعرف . وما الفرق بين الكاتب والصحفى لا أعرف . . وتغيرت آمالى عندما تفوقت فى الفلسفة . وكنت الأول فى مسابقة الفلسفة فى الثانوية العامة . . وعندما كنت طالب الامتياز الوحيد فى قسم الفلسفة . .

وفى اللحظة التى سألنى أبى : هل جاء ترتيبك الأول ؟ هل حصلت على مرتبة الشرف الأولى ؟ فقلت : نعم . .

فمات أبى . وكان لابد أن أعمل . وذهبت إلى أستاذى د . شوقى ضيف وهو أول من تنبأ وأنا فى السنة الأولى أننى سوف أكون شيئا هاما . . وبعث بى إلى الدكتور عبد الوهاب عزام الذى هو صديق لمحمود فهمى النقراشى باشا الذى يصدر جريدة (الأساس) . . ولم أذهب .

وكانت هذه هى البداية للصحافة . . للعمل فيها والاهتمام بالصحف الأخرى . . والتفت إلى صحف (أخبار اليوم) . . وإلى مصطفى أمين وعلى أمين لا أحد يكتب مثل أخبار اليوم . . ولاأحد يتناول الموضوعات المثيرة مثلهم . .

ووجدت زميل الدراسة فى المنصورة الثانوية كاتبا فى أخبار اليوم : الأستاذ عبد السلام داود . .

وأصبحت قراءة صحف (أخبار اليوم) طعاما أسبوعيا . فلا أحد يكتب مثل مصطفى أمين . . ولا أحد يكتب بإيجاز وبسرعة مثل على أمين . . وقرأت التابعى . . وعددا كبيرا من الكتاب . .

لقد انبهرت بأسلوب أخبار اليوم . .

ما اسم هذا الأسلوب : السرعة . . الإيجاز . . الإثارة . . الانفراد . . شىء عجيب؟ كل أسبوع ! الأخبار فيها والعناوين العجيبة . . كيف ؟

ولم أكن قد رأيت الأخوين مصطفى وعلى . . فكنت أذهب إلى حيث مبنى أخبار اليوم . . وكنت أرى المبنى عجيبا . . الواجهة رخام والسلم عريض . . وعمال الطباعة فى البدروم . . المكان نظيف . . العمال يتحركون فى هدوء وكل شىء أراه غريبا عجيبا . . ولم أفلح فى رؤية مصطفى وعلى . . ولكن لابد أنهما من الكائنات العجيبة . . وقيل لى : إنهما أحدثا انقلابا فى مجلة (الاثنين) قبل ذلك . .

وانتقلت إلى العمل فى (روزا ليوسف) معجبا بإحسان عبد القدوس وهو أول من قدمنى للقراء فى مصر . .

ونشرت فى (روزا ليوسف) أول مسرحية وجودية . وقدمها وقدمنى إحسان عبد القدوس . .

ولما عرفت كامل الشناوى كان هو أول من أطلقنى وآخرين إلى الفضاء الصحفى . . وكان كامل الشناوى حتى موته منصة لإطلاق الصواريخ . . وأسعدنى أن أعمل معه فى (الجريدة المسائية) وقد أعطانى ضعف الأجر . ولم يشأ أن يطلب منى أن أترك جريدة الاساس ولا روزا ليوسف . . وفى ذلك الوقت كنت مدرسا للفلسفة فى الجامعة . .

وفى الجريدة المسائية وجدت الكاتب الكبير سلامة موسى . وكان الحديث إليه متعة عقلية ، ولكن المتعة الأكبر فى صالون العقاد . .

وأغلقت الجريدة المسائية . .

وأخذنا كامل الشناوى معه إلى جريدة الأهرام . فعملت فيما بين ١٩٥٠ حتى ١٩٥٢ . وفى الأهرام كنت أكتب القصة كل يوم ، ٧٥٠ قصة قصيرة . ولم يكن مسموحا لنا بالتوقيع . فالذين يوقعون هم : محمد زكى عبد القادر وأحمد الصاوى محمد والقراء إذا كتبوا مقالا إلى الأهرام . . وترجمت فى الأهرام (مذكرات روميل) . . ومذكرات (ثلاثة ضد روميل) .

وجاء خبر كأنه صاعقة حملنا من الأرض إلى السماء . . لقد قرر كامل الشناوى أن نعمل فى (أخبار اليوم) . . فأخبار اليوم تستعد لإصدار صحيفة يومية اسمها (الأخبار) . . ودون أن نقدم استقالتنا من (الأهرام) ذهبنا إلى (أخبار اليوم) . . إذن

سوف أرى مصطفى وعلى . وسوف أكون على مسافة قريبة وسوف أسأل وأتلقى جوابا . وأعرف كيف يكتبون وكيف يفكرون . . لم أنم تلك الليلة . . ولم أحاول أن أعرف ما الذى أقلقنى . . ما الذى جعل قلبى يدق هكذا . . ليس الخوف . . أو هو الخوف الا ننجح فى هذه المؤسسة العجيبة الأفكار والأساليب .

وكتبت أول خبر فى الصفحة الثانية من العدد الأول من الأخبار . . وكان الخبر عن الخناقة بين تحية كاريوكا ويحيى حقى مدير مصلحة الفنون . وهل هى بصقت فى وجه سوزان هيوارد . . أو لم يحدث شىء من ذلك . وقد تحققت من أن الخناقة صحيحة ولكن البصق ليس صحيحاً . .

وانتقلت إلى العمل فى (آخر ساعة) فأنا لا طاقة لى على ملاحقة الأخبار والحوادث . . وإنما أنا أريد أن أكتب مقالا أدبيا أو نفسيا أو تعليقا على كتاب . .

ورأينا مصطفى وعلى . . فقد كنا نقف على السلم حتى نراهما . وكان من الصعب أن نفرق بين الاثنين – كان ذلك فى سنة ١٩٥٢ . ولكن عرفنا الفرق . فقد كان على أمين يشكو من دمل فى رقبته ، وقد لف شيئا حول رقبته . فعرفنا ان هذا هو على أمين . . ولما شفى من الدمل ، لم نعد نفرق بينهما . . وأخيرا عرفنا الفرق : فالذى يصافح أى انسان يعرفه أو لا يعرفه فهو مصطفى أمين . . أما الذى لا يصافح الذين يعرفهم فهو على أمين . .

وفى يوم وجدت المرحوم كمال الملاخ فى حالة هياج . ويطلب منى أن نعود إلى (الأهرام) . أما السبب فهو أنه لاحظ أن السعاة لايقفون تحية له ذهابا وإيابا وأن على أو مصطفى إذا رآه لا يصافحه بينما كنا فى الأهرام نتغذى ونتعشى فى القناطر الخيرية مع نجيب كنعان مدير تحرير الأهرام . .

وعرف كامل الشناوى . فنبه على أمين إلى ذلك . . وفى يوم رآنا على أمين وقال : أهوه . . أدينى بأسلم عليك ولا داعى إلى العودة إلى الأهرام . . (وضحك) .

وقرر كمال الملاخ أن يعود إلى الأهرام : لأن على أمين يسخر منه !

ولم نكن قد اعتدنا على روح المرح وخفة الدم عند مصطفى وعلى وفى كل أخبار اليوم .

أما أنا فكان ارتباطى بعلى أمين أكثر . . لأن على أمين أسهل ومصطفى أمين أصعب . فالطريق إلى قلب مصطفى امين هو : الخبر . . هو المانشيت . . الخبطة الصحفية التى تزلزل الدنيا . . وكان ذلك أمرا صعباً . أما على أمين ففى استطاعتك أن تجلس إليه وأن تكلمه وأن يتركك ويمضى فى الكتابة ويمنعك أن تقوم قبل أن تقرأ مقاله . .

وكنا نقول : إن الصحفى هو مصطفى . . والكاتب هو على .

ولكن عرفت فيها بعد أن الفروق بينهما قليلة . . فهما يفكران فى نفس الشىء ويتفاهمان بأن ينظر أحدهما إلى الآخر دون أن يقول شيئا وعرفنا أن هناك فرقا هاماً : فأفكار مصطفى على لسان على . . وإذا أردت أن تعرف قرارات مصطفى فأسأل على عن رأيه فى أى موضوع . . سوف يقول لك . . وهو بالضبط رأى مصطفى . . وإذا اختلفا فإن مصطفى يأخذ برأى على . .

وعرفنا فيما بعد أن مصطفى أمين يكتب أو يعيد كتابة أى موضوع سواء كان حادثة أو جريمة . . ولذلك تجد روح أخبار اليوم هى روح مصطفى أمين . . فهو يكتب الصفحة الأولى كلها . . هو الذى يكتب العناوين ويعيد صياغة الأخبار . . وعلى أمين هو الذى (يوضب) الصفحة الأولى ويختار لها الشكل والصور وهو الذى رسم جميع صفحات أخبار اليوم وهو الذى أرسى أبوابها فى أماكنها . . وله فلسفة فى كل ذلك .

وكان مصطفى أمين يبدو لنا كرجل له قدرات خارقة . . مثلا : عندما يجىء عامل المطبعة بالصفحة مبللة لكى يقرأها مصطفى أمين قبل طبعها . . فإنه يستطيع أن يقرأ الصفحة وهى تبعد عنه مترا . . ويقرأها وهى مقلوبة . هذا حقيقى ويحدث كل يوم . . فهو بسرعة يكتشف سطرا مقلوبا . . أو خطأ مطبعيا . . أو خبرا فى غير مكانه . كيف ؟ هذه إحدى قدرات مصطفى أمين .

وبعد شهر واحد من العمل فى أخبار اليوم سافرت فى إجازة إلى أوروبا . وبعثت بعدة مقالات . ووجدت إنها نشرت فى الصفحة الأخيرة من (آخر ساعة) . وتضايقت جدا . ودون أن أشكو لصديقنا الأكبر كامل الشناوى دخلت إلى على

أمين أشكو ثائرا . واستمع على أمين بهدوء . وفجأة دخل مصطفى أمين . ونظر إلى على ونظر له على ولم يكن قد سمع أى شىء مما قلت . وإذا به يقول : اسمع ياأنيس . من الممكن ان ننفصل كأصدقاء ؟

وخرجت . وجمعت أوراقى وعدت إلى البيت . وفى نيتى أن أذهب إلى الأهرام . .

وفى الصباح الباكر فوجئت بعلى أمين يصعد سلم البيت . . فى الدور السادس أمام مسجد السلطان أبو العلا . وقابلته والدتى : وكان يلهث من الإرهاق . . إنها ستة أدوار . . والسلم رأسى كأنه سلم مئذنة فى جامع أبو العلا . . وكأن أسفى شديدا لأننى أرهقته هكذا . ونزلت مع على أمين . وانتهى الأمر !

وعرفت فيما بعد أن أسوأ لحظة من الممكن أن يلقاها أى محرر فى أخبار اليوم أن تكون له شكوى . ويعرضها على مصطفى وعلى معا . . انهما يصبحان كالمقص يقطعان من دخل بينهما . . وتندهش كيف عرف مصطفى أمين أننى شكوت . . ولكن بسرعة عرف وبسرعة قرر . وقراره : ان نشر المقالات فى آخر ساعة بهذا الحجم هو القرار . . وهذا قرار الأستاذ محمد حسنين هيكل ولا راد لقراره . لماذا ؟ لم أكن أعرف ما الذى يمثله هيكل فى أخبار اليوم أو حتى فى مصر ؟ !

وبدأت أتفادى مصطفى أمين فى أى شىء . . فعلى أمين بابه أوسع وصدره أرحب وهو إنسان أطيب . أما مصطفى أمين فهو صقر منقاره أطول من أنفه . . وله نظرات غير مريحة . . نظرات تخترق الإنسان وتتهمه . . كأنه وكيل نيابة مكافحة المخدرات أوالإرهاب . . فإذا نظر إليك مصطفى أمين وأطال النظر فلابد أن ترفع يدك وتركع وتقول : مظلوم يابيه . . والله ماهو أنا . .

مع أنه لم يتهمك بشىء . . وإنما له نظرة تفتيشية جائعة . . يريد أن يفتشك ليعثر على خبر ، فإن لم يجد فأنت لا صحفى ولاحاجة . . ولا داعى لأن يلقاك ويستمع إليك .

مرة كنت فى مكتب مصطفى أمين وجاء محرر وحكى له حكاية . . وسمعها مصطفى أمين بلهفة ودهشة . . وجاء محرر آخر وروى له نفس الحكاية وكان مصطفى أمين يستمع إليه بشوق ورغبة فى المزيد . . شىء عجيب . فسألته فقال :

لو أننى أفهمت المحرر الثانى أن حكايته قديمة ، فإنه لن يحكى لى أية حكاية يعرفها . . ولكن إذا أفهمته أننى أستمع الى حكايته لأول مرة ، فإنه لن يتردد فى أن ينقل لى كل خبر جديد . . ثم أننى أحب أن أستمع الى الحكاية الواحدة بأكثر من رواية !

أذكر أن الصحفى محمود شكرى الذى كان سببا فى دخول مصطفى وعلى السجن يوم قامت ثورة يوليو قد جاء بعد ذلك بسنوات للسلام والتحية ، وكنت فى مكتب مصطفى أمين عندما جاءت السكرتيرة تقول : يامصطفى بك . . محمود شكرى يريد أن يقابلك .

فقال مصطفى أمين : قوى . . قوى . . خليه يدخل . . ودخل محمود شكرى الذى أدخل مصطفى وعلى السجن . فقام مصطفى أمين وهو يقول : أهلا ازيك يامحمود . . وحشتنى . . بالحضن ياراجل . . أهلا أهلا . . تشرب إيه يامحمود ؟

وانتقلت من مكتب مصطفى إلى مكتب على . فعند على أمين الراحة والأمان والبساطة والطيبة . .

ولم يكد على أمين يفرغ من التليفون حتى هممت أحكى له ما حدث . . عندما جاءت السكرتيرة تعلن لعلى أمين أن محمود شكرى جاء لتحيته .

احمر وجه على أمين . . ونهض واقفا . . وراح يدق المكتب بيديه . . ويقول : السافل الحقير . . الحيوان . . اسمع يا أنيس . محمود زفت ده حيجى دلوقت . . وأنا سوف ألقى به من النافذة . . قوم وافتح الشباك . . قوم . . قوم ياجبان .

ودخل محمود شكرى .

واقترب منه على أمين وهو يقول : ايه اللى جابك ياحقير . . ياسافل . . امشى اطلع بره . . افتح الشباك ياأنيس . . افتح . . مثل هذا الحيوان لازم يموت دلوقت !

ولم يتوقع محمود شكرى أن يكون على أمين مختلفا إلى هذه الدرجة عن مصطفى أمين . . وخرج مسرعا متجها إلى الأسانسير عندما خرج مصطفى أمين من مكتبه ووضع يده على كتف محمود وذهب به إلى الاسانسير وهو يقول : مع السلامة يامحمود . . خلينى أشوفك . . شكراً على الزيارة !

يانهار أسود على أعصاب مصطفى أمين . وهذا هو الفارق الكبير بين أعصاب

مصطفى وأعصاب على من المؤكد أن رأى مصطفى فى محمود شكرى لا يختلف عن رأى على . ولكن مصطفى داهية وعنده قدرة فائقة على إخفاء مشاعره . وليس على أمين !

وكان من أحلامى أن أنال إعجاب مصطفى أمين . ولو مرة واحدة . وجاءت الفرصة . . فقد كتبت موضوعا طويلا عن بعثة الشباب برئاسة عادل طاهر إلى موسكو . . وحكيت كيف أن الفتيات المصريات كن ينزلن من القطار الروسى يرقصن بقمصان النوم فى المحطات . . وماذا فعلن وغير ذلك . . من الأعمال العجيبة . وكان هذا الموضوع هو الوحيد فى أخبار اليوم . وكان مصدر ثورة وغضب جمال عبد الناصر وكمال الدين حسين وزير التعليم فى ذلك الوقت . .

وطلب منى مصطفى أمين أن أوقع على أهم تحقيق فى أخبار اليوم ولكنى اعتذرت لاننى لم أسافر مع البعثة وإنما أنا جمعت معلومات عنها من أصدقاء كانوا ضمن البعثة . . وأعطانى مصطفى أمين مكافأة مائة جنية . وأقام لى حفلة تكريم فى اجتماع التحرير الأسبوعى . . كافأنى على الحرفية الصحيفة . . وقال إنه أسعده جدا أن يتصور الناس أنه هو الذى كتب الموضوع . . مع إنه لم يضع كلمة فى المقال . . وإنما كتب له العنوان فقط . . ثم أثنى على سلوك وأمانة الصحفى الذى لم يشأ أن يوقع باسمه على أحسن موضوع صدر فى أخبار اليوم . . لأنه لم يكن ضمن البعثة المسافرة !

وأسعدنى هذا الاحتفال أو هذا الاعتراف بأننى صحفى وأديب أيضا !

والمرة الثانية ذهبت أشهد طلاق الأمبراطورة ثريا أسفنديارى من زوجها الأمبراطور محمد بهلوى الذى كان زوجا للاميرة المصرية فوزية . .

فقد ذهبت الزميلة خيرية جبرى لتحضر الطلاق فى طهران . . وذهبت لأحضره من كولونيا . . وفى كولونيا أطلقوا علينا الكلاب وخراطيم المياه حتى لا يقترب أحد من السفارة الإيرانية حيث تقيم الامبراطورة . . فأبوها سفير لبلاده فى ألمانيا . . إذن ليست عندى أية معلومات عن إجراءات الطلاق . وأحزننى ذلك . .

وجاءت الصدفة . فقد كنت أقيم فى بنسيون والبنسيون كانت تقيم فيه واحدة تعمل فى صالون الحلاقة الذى ذهبت إليه الامبراطورة . وجاءها تليفون من

الامبراطورة . . ونقلت لى الحديث الذى دار بين الزوجين ونقلت هذا الحديث حرفيا إلى مصطفى أمين . ونشره فى الصفحة الأولى ، وأقام حفلة تكريم لى . . وأعطانى مكافاة مائة جنيه . !

ومرة ثالثة عندما انعقد مؤتمر المستشرقين فى ميونخ . . فأعطانى أستاذى د . عبد الرحمن بدوى مقالا عن المؤتمر الذى تهجموا فيه على الرسول ﷺ وعلى القرآن الكريم .. وقدمت المقال لمصطفى أمين وأبدى امتعاضاً شديدا . لماذا ؟ إن المقال جاف وغير صالح للنشر . فقلت : يعنى ايه ؟

قال : يصلح للنشر فى مجلة فلسفية . . وليس فى أخبار اليوم .

وسكت . ولم أتصور أن مقالا لأستاذنا الكبير عبد الرحمن بدوى لا يصلح للنشر . . بسرعة قال لى : اكتبه بأسلوبك وأنا أنشره !

ولم يمهلنى حتى أناقش هذه الفكرة . وإنما جاءت نظراته كاسحة . . معناها : اخرج الآن ولا تضيع الوقت !

وحصلت على مكافأة خمسين جنيها . . فقد كتبت المقال بعبارة أسهل وأبسط .

وبسرعة أمسك مصطفى أمين القلم وجعل عنوانه : مؤامرة على النبى محمد ونشره فى صدر الصفحة الأولى !

وفى سنة ١٩٥٩ رأى مصطفى أمين أن أسافر إلى الهند . وقالها لى وكأنه يريد أن يقول : روح فى ستين داهية !

ولم أفهم . ولكن لا مانع عندى أن أروح ولا أعود ما دامت رحلة غريبة فى بلاد غريبة . . فقد أتت الانتخابات فى الهند بحكومة شيوعية فى ولاية كيرالا . والمطلوب أن أذهب وأبحث وأكتب بعد ذلك !

وكتبت عن الهند . ووجدت الصحف الهندية تهاجمنى بعنف فقد نقلت وكالات الأنباء ما كتبته فى مصر عن أهل وشوارع وحيوانات الهند . وفزعت . وبعملية حسابية بسيطة وجدت لو أن كل هندى رمانى بحجر لتكوم فوق دماغى هرم . فعددهم فى ذلك الوقت ٣٠٠ مليون نسمة .

وكتبت لعلى أمين أقول له إننى سوف أسافر إلى جزيرة سيلان لأبحث فى العشرين عاما التى أمضاها أحمد عرابى باشا ورفاقه . وكنت أول من كتب عن

عرابى فى منفاه . . بيته وماذا قدم لهذه البلاد . . من صناعة الكعك والغريبة والكنافة والقطايف والطربوش . . وكيف علمهم اللغة العربية . .

وقررت أن أذهب إلى أبعد من ذلك . . فاقترحت أن أذهب إلى سنغافورة وإلى أندونسيا واستراليا والفلبين وهونج كونج واليابان . . وجاءنى خطاب من على أمين يقول : إن الرئيس جمال عبد الناصر قد أعجبه المقال الذى كتبته عن شيوعية الصين ، وقال بالحرف الواحد : ماهو بيكتب كويس ليه ما بيكتبش أكثر . .

وقال لى : سوف أحول لك فلوسا . . إلى أمريكا وقابل الملكة نازلى . .

وسافرت وقابلتها . وبعد أن تحدثت إليها أربع ساعات طلبت منى ألا أنشر سطرا واحدا . وكتبت إلى على أمين ووافق على ذلك مادمت قد وعدتها . . ولم أنشر حتى هذه اللحظة شيئا عن ملكة مصر السابقة التى لا تملك الدفاع عن نفسها ضد القصص المفبركة التى نشرتها الصحف المصرية ؟

وفى هذه الرحلة التى استغرقت ٢٢٨ يوما وأنفقت فيها حوالى ٩٠٠ جنية فقط - فيما عدا تذاكر الطائرات - كتبت عن تحضير الارواح بالسلة . . وانتشرت (السلة) فى مصر وشغلت الناس ورجال الشرطة والتلامذة . . وكل بلاد العالم العربى . . وقال أنور السادات لمصطفى أمين إنها من ألاعيب أخبار اليوم لكى تشغل الناس عن (الاتحاد القومى) والله يعلم أن أخبار اليوم لادخل لها فى ذلك . . إننى وجدت تحضير الأرواح فى أندونيسيا . . وجربت تحضير الأرواح فى استراليا وفى الفلبين وفى اليابان . . وترددت فى النشر فأنا مدرس للفلسفة والمنطق فى الجامعة ، كيف أنشر شيئا لاعقليا ولا منطقيا . ومع ذلك وجدت أن السلة تساوى أن يعرفها الناس . . والغريب أن السلة بعد أن انتشرت فى مصر ونقلتها وكالات الأنباء ، عادت إلى أندونيسيا نفسها . . وكانت قد اختفت من عشرات السنين !

وفى نهاية الرحلة حول العالم ذهبت إلى إيطاليا وقررت أن أستريح . . فذهبت إلى مدينة رابالو ثم إلى بورتوفينو . . وقررت أن أعطى لنفسى إجازة . . وكنت سعيدا . ولا أعرف ما الذى نشرته صحف أخبار اليوم . . فقد كنت أبعث بمقال لأخبار اليوم ومقال للجيل ومقال لآخر ساعة . ومقال لليوميات وباب أخبار الأدب . .

وفى إحدى الليالى الجميلة الهادئة فوجئت بمن يقول لى : تليفون عشانك !

وكان المتحدث على أمين : ياأنيس . . زملاؤك اختاروك رئيسا لتحرير الجيل . . تعال فوراً !

وأقفلت السكة . وكانت غلطتى أننى أعطيت عنوانى للصديق صلاح يوسف كامل مدير الأكاديمية . وعلى أمين بذكائه اتصل به وعرف رقم تليفونى !

وكتب مصطفى أمين مقالا صارخا يحتفل فيه برئيس التحرير الجديد . وقال : إنه سوف يغنى معى . . وكنت عريس الصحافة المصرية . وكانت رحلتى هذه هى أوراق اعتمادى . .

وقال لى مصطفى أمين : إن المشير عبد الحكيم عامر قال له : إنه يتمنى أن يقوم برحلتى هذه وأن يتخلى عن كل سلطاته . . إنه يحسدنى على الدوران حول الارض وعلى ما كتبت وما عرفت !

وكتب مصطفى أمين فى نهاية مقاله الذى كتبه عنى كرئيس لتحرير (الجيل) ونشره فى أخبار اليوم وآخر ساعة والجيل : مبروك ياأنيس فأنت الآن تجلس على أعظم خازوق فى مصر !

وصدر قرار (تأميم الصحافة)

والهدف هو أخبار اليوم فى الدرجة الاولى ومصطفى أمين ملك الصحافة الحديثة . . صانع الاخبار والشريك فى الأحداث وتشكيل الوزارات قبل الثورة . .

وجلس مصطفى أمين وعلى أمين فى البيت ؟ !

وقد أحزننا جميعا ذلك . . وتوالى على أخبار اليوم ضباط كثيرون يمسكون أخبار اليوم ويقطعون لسانها ويهبطون بتوزيعها حتى لا يكون لها أثر ولا صوت ولا صدى ولا ضوء ولا ظل . !

ولابد أن تكون هذه المعانى هى التى عاشت فى عقولنا ووجداننا . وكتبت مقالا بعنوان (حمار الشيخ عبد السلام) . . والشيخ عبد السلام هو قاضى القضاة العز بن عبد السلام . . قاضى قضاة مصر . الذى اكتشف أن المماليك الذين يحكمون مصر من العبيد ولابد من تحررهم . . أى لابد من بيعهم فى الأسواق . . والذين

يشترونهم يعتقونهم . فلا يجوز شرعا أن العبيد يحكمون الأحرار . وحاول المماليك أن يعدل الشيخ عبد السلام عن هذا القرار فرفض . هذه الحادثة التاريخية أخذها توفيق الحكيم وجعلها موضوع مسرحيته البديعة (السلطان الحائر) . وكتبت عن المسرحية . . وكان كلامى كله ذا معنيين . . وفى نهاية المقال جاءت هذه العبارة : لقد وقف العز بن عبد السلام على حدود مصر راكبا حماره . . هو بالنيابة عن العلماء ، والحمار بالنيابة عن الشعب المصرى !

وجاء دورى أن أجلس فى البيت فصدر قرار الفصل يوم رأس السنة . لا مرتب ولا عمل ولا كتب ولا أحاديث فى الإذاعة ولاأمل فى الهرب . . رغم أننى حاولت وأمسكنى على أمين . . فقد كنت اتفقت مع المرحوم مصطفى شردى على تهريبى على ظهر أية سفينة إلى السعودية . . فقد وعدنى صديقى الشاعر الأمير عبد الله الفيصل أن يجد لى عملا فى صحف السعودية !

ومصطفى شردى هو الذى أبلغ على أمين ففوجئت بعلى أمين يدق بابى فى أحد فنادق بور سعيد قبل السفر بساعات !

وفى هذه المحنة ظهر مصطفى أمين على حقيقته فهو الأخ الاكبر وهو الأب والأستاذ وهو مصدر الأمل والصبر . . وقد قاسمنى مرتبه . . بكل نفس رضية . . فى بيت مصطفى أمين كنا نلتقى كل ليلة : على أمين ومحمد عبد الوهاب وفاتن حمامه وعبد الحليم حافظ وكمال الطويل . كانت فترة نسيان . . فترة طويلة ملعونة . . وكانت حكمة على أمين : اسمع لا تمتحن أصدقاءك فى هذه الظروف وإلا خسرتهم جميعا . . وسوف تعود إلى عملك ، فتجد العمل ولاتجد الأصدقاء !

وقد هرب الأصدقاء . ولم أعد ألوم أحدا . فالحكمة قد علقتها فى أذنى ! وذهبت المحنة . .

وجاءت محنة أكبر عندما دخل مصطفى أمين السجن . . أكبر ظلم وقع على أى إنسان فى مصر . مؤامرة حقيرة دنيئة على ملك الصحافة .

وانتقل مصطفى أمين (من العرش إلى البرش) . . من عرش صاحبة الجلالة إلى حصير فى زنزانة . تسع سنوات . . كيف استطاع أن يتحمل كل ذلك . . لقد كان على أمين منهارا فى بيروت وفى لندن . . وكان لا ينام على السرير . . وإنما كان ينام على الأرض مثل مصطفى أمين .

إن هذه التجربة الأليمة التى تهز الجبال وتهدها أيضا ، قد هزت أعماق مصطفى أمين . ولكن لم تهد عقله ولا قلمه . . وخرج مصطفى أمين من السجن كأنه كابتن فريق . . كان يسخن نفسه على الخط تسع سنوات - تسع سنوات ياناس ألوف الليالى الباردة المظلمة - وعندما نزل إلى الملعب كان فى غاية اللياقة الصحفية . . وكان فى غاية الجرأة . . وتحدث الصحفيون عن (ظاهرة مصطفى أمين) . . ولا يزال مصطفى أمين ظاهرة صحفية . وتربع تلامذته على المؤسسات الصحفية . . ولاتزال أخبار اليوم أكثر المؤسسات الصحفية حيوية وإبداعا . . وكان مصطفى أمين لم يبلغ السبعين وإنما بلغ الخامسة والثلاثين مرتين !

وأكبر محنة فى حياة مصطفى أمين طبعا هى وفاة توأمه على أمين . لقد كان على أمين يفكر فى تطوير صحف أخبار اليوم . وعندما كلفنى الرئيس السادات إصدار مجلة (اكتوبر) قال لى على أمين : لاتصدرها خارج أخبار اليوم . . لا تصدرها وحدك . . سوف اشترك معك فيها . . كما اشتركنا معا فى رئاسة تحرير مجلة (هى) . .

وعندما كنت أزور على أمين فى مستشفاه . . كنت أجده يتلوى على السرير وتحته الصفحات التى صممها لصحيفة جديدة . . وكان شعار مصطفى وعلى هو : أننى أفضل أن أموت واقفا على أن أعيش راكعا .

ومات على أمين واقفا وعاش مصطفى أمين واقفاً .

وعندما استدعانى أنور السادات نائب رئيس الجمهورية وكان مشرفا على أخبار اليوم بعد أن كان يشرف عليها الشيوعيون قال لى : تحب تروح المانيا الشرقية ؟

قلت : موافق !

قال : أنت مش واخد بالك . . محمد قال لى أنك أطلقت اسم المانيا الشرقية على أخبار اليوم . .

أما محمد هذا فهو محمد حسنين هيكل .

ثم سألنى : محمد قال أنك اقترحت كتابة آية قرانية على مبنى أخبار اليوم . قلت ايه ؟

قلت : لأن كل يوم يأتى لنا رئيس جديد يبهدل صحف أخبار اليوم ويتحكم

فى المحررين اقترحت أن نكتب عليها من الخارج هذه الاية : كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب .

ضحك السادات : ها . . ها . . طبعا هناك فرق كبير بين أولاد أمين وأى حد ثانى . أنت مخلص لهم . . وأنت تلميذهم مش كده .

قلت : أيوه ياسيادة النائب !

والرئيس السادات عندما حدد سن المعاش بستين عاما كان يقصد أن يتوقف عن الكتابة مصطفى أمين وجلال الحمامصى وزكى عبد القادر وأمينة السعيد . ولكن لم يحدث شىء من ذلك . . فمن الذى يقول لمصطفى أمين اقعد فى بيتك . . ولو قعد فى بيته ، من الذى يقول لا لمقالاته . .

وعرفت بهذا القانون قبل صدوره ومنعنى الحياء أن أقول شيئا وبعد أن صدر قلت للرئيس السادات : تعرف ياريس من هما أول اثنين ينطبق عليهما القانون ؟

– مين ؟

– موسى صبرى وأنا . . فموسى صبرى أكبر منى بيوم واحد !

وتضايق الرئيس السادات جداً . . وظللنا نمشى ساعة وهو لاينطق بكلمة وكان فى نيته أن يقول : لماذا لم تنبهنى ؟ لماذا لم تقل لى ؟

وقال لى المرحوم موسى صبرى : أنت غلطان . لماذا لم تقل له . .

وكان رأيى ولا يزال : أن الكاتب لا عمر له . . فعند ولادة أى كاتب تتحرر له شهادة ميلاد ، ولا يتحرر له تصريح بالدفن . . فنحن أطول عمرا وأبعد أثرا من الحاكم نفسه !

***

ولا نهاية لحكايات ونوادر وقصص مصطفى أمين شاهنشاه الصحافة الحديثة . .

وأستاذ أساتذة الصحافة . . وآخر عمالقة العاملين فى بلاط صاحبة الجلالة . .

ما الذي أغضب
مصطفى أمين؟!

(١)

عندما كان علي أمين مريضا فى المستشفى كان يحلم بأن تصدر جريدة جديدة . . أو مجلة أكون رئيسا لتحريرها . . بعد أن رأست تحرير مجلتى (الجيل) و (هى) . . ثم احتجبت المجلتان عن الصدور . . وهى حكاية صحفية حزينة !

ثم رأست تحرير مجلة (آخر ساعة) . .

وكان على أمين يتسلى بأن يرسم خطوطا عريضة للصحيفة اليومية أو للمجلة . التى يحلم بأن تكون لها شكل مجلة (تايم) الأمريكية . . وكنا قد جربنا أن نجعل مجلة (الجيل) مثل تايم . . ولكننا تعبنا جدا - على أمين وأحمد رجب وأنا . فقد كان من الضرورى أن نعيد صياغة كل ما يكتبه المحررون . ولم يكن المحررون حريصين على تجويد مواضيعهم أو التعب فى جمع معلوماتها . . لأن مجلة (الجيل) بشكلها الجديد لا تنشر أسماء المحررين - تماما مثل مجلة (تايم) فى ذلك الوقت . اما الآن فقد عدلت (تايم) عن نشر مقالات ودراسات بغير إمضاء . .

أما تفاصيل المجلة التى يحلم بها على أمين ، فلم تكن واضحة تماما . فقد كانت

حالته الجسمية والنفسية سيئة جدا . وكنا نرى أن عمل مجلة جديدة هو نوع من التحدى : التحدى لتأميم الصحافة . جاء التأميم قتلا للصحف . . وتحديا للمرض . . وتأكيدا مستمرا لمقولة هامة وهى : أن المجلات المحترمة هى فقط التى تصدر عن مؤسسة (أخبار اليوم) . . اما المجلات الأخرى فلا وزن لها !

وكان لابد أن أحكى لمصطفى أمين وعلى أمين تفاصيل الحديث الذى دار بينى وبين الرئيس السادات – وكانت هذه هى بداية المشاكل التى جعلتها سراً . . فقد كلفنى فى إحدى رحلاته بإصدار مجلة جديدة . . مجلة رأى وسياسة أحسن من أية مجلة أخرى فى أى مكان فى العالم العربى . .

وكنت فى ذلك الوقت سنة ١٩٧٦ رئيس تحرير (آخر ساعة) وإصدار مجلة معناه عبء جديد يضاف إلى (آخر ساعة) . . أو من مكان آخر غير دار أخبار اليوم . .

ثم استدعانى الرئيس السادات عندما كنا فى السعودية . وأخرج من تحت المخدة عددا من الأبواب التى يرى ضرورة وجودها فى المجلة الجديدة . . واختار أن تكون لها شكل مجلة (الحوادث) اللبنانية ولكن مصرية صميمة . . وليست لسان حال أى أحد من المحيط للخليج . . وكانت الأبواب التى فكر فيها السادات تتعلق بالشباب . . فهو يريد أن يتحدث إلى الشباب . وأهم ما يشغل السادات هو أن يحكى لهم ماذا حدث من تشويه لتاريخ مصر وحركتها الوطنية . . اما الخط الذى بنى عليه كل توجهاته للشباب فهو : كلنا وطنيون . . مسلمون ومسيحيون . . ولا أحد خان مصر . . وإنما كلنا حاولنا . . أخطأنا وأصبنا . وأن الحق معنا وبأيدينا . . وإننا سادة مصيرنا . وكل دولة وكل شعب يرى ويقرر ما يناسبه . . ونحن مختلفون وظروفنا أيضا . ولا إدانه لأحد دون سبب . . الخ

كلام جميل . ولكنه ليس إلا بابا أو خطا من خطوط المجلة . . واقترحت على الرئيس السادات بعض الأسماء المصرية والعربية والأجنبية . ولكنه ترك لى هذا الاختيار والمسئولية بعد ذلك . وهو لايحب أن يدخل فى تفاصيل أى مشروع . . هو يريد مجلة . فلتكن مجلة !

ولكن كيف تصدر ؟ ومن أى دار ؟ . . ومن أين أجىء بالمحررين والمطبعة والفلو ؟

- ليس هذا شأنه . ففى جيبى قرار من الرئيس بإصدار مجلة . انتهى الامر . .

ذهبت إلى صديقى يوسف السباعى . وكان رئيسا للأهرام . وهو رجل فنان وعسكرى . وكانت نصيحته : لا تناقش كثيرا . اصنع نموذجا للرئيس واعرضه عليه . وسوف يرى أن هذه خطوة عملية يتم الاتفاق والاختلاف عليها . وأنا سوف أساعدك فى الطباعة وفى الإعلانات وفى التوزيع . .

وكان يوسف السباعى أصدق صديق . .

ورأيت من الواجب أن أقول لعلى أمين . واعتدل على أمين على السرير والمرض ثقيل عليه وعلينا وقال لى : هذه المجلة لا تخرج إلا من (اخبار اليوم) . . أنت رئيس التحرير . . وانا محرر صغير عندك . . لابد أن تخرج من (أخبار اليوم) ونحن على استعداد تام لأن نساعدك حتى تكون المجلة الجديدة أحسن مجلة فى مصر . .

ولكن مصطفى أمين - وهو سىء الظن بطبعه - اعتقد أننى أنا الذى فاتحت الرئيس فى إصدار مجلة جديدة . .

أو بعبارة أخرى أنا أخذت فكرة على أمين وعرضتها على الرئيس . .

ولم يكن ذلك صحيحا . .

ففكرة إصدار مجلة قديمة عند الرئيس السادات . . وكان قد عرضها على قيادة الحزب الوطنى وفاتحوا فيها السيد أبو النجا ، رئيس مجلس إدارة دار المعارف . . وكتب سيد أبو النجا تقريرا طويلا عريضا . ولم يعجب الرئيس السادات ، وقال إنه هذا ليس مشروع إصدار مجلة ، وإنما هو مشروع بيع مجلة !

وكاد المشروع أن يموت . وكان ذلك قبل مجىء على أمين إلى مصر - فقد ظل على أمين خارج مصر طوال وجود مصطفى أمين فى السجن - أى أكثر من تسع سنوات !

ولذلك عندما صدرت مجلة (اكتوبر) اتخذ منها مصطفى أمين موقفا غريباً . . وأطلق عليها شائعات كثيرة قبل صدورها . . وكان يسخر من المحررين الذين تركوا (أخبار اليوم) ليعملوا فى المجلة الجديدة التى لا يعرف المحررون منها سوى اسمها : ٦ أكتوبر أو ١٠ رمضان . .

وقد عاب مصطفى أمين على أحد الزملاء أنه ترك جريدة (الأخبار) ليعمل فى مجلة مجهولة لا يعرف لها شكلا ولا حتى اسما ولا رسماً . .

وإنما الزملاء الأخبار وآخر ساعة لأنهم أصدقائى وتلامذتى . ولأنهم على يقين من أن هذه المجلة الشابة سوف تنجح بهم ولهم . ومن الغريب أن مؤسسة (أخبار اليوم) التى هى أمنا وقد تركناها لكى نمد فروعها وجذورها فى اخرى ، كانت هى مصدر التشنيع والتشكيك فى المجلة الجديدة وقالوا : المجلة اسمها اكتوبر لأنها سوف تعيش شهرا وتموت بعد ذلك . .

ولهذا السبب طلبت من الرئيس السادات أن أنشر حديثه معى فى كل الصحف التى تصدر يوم صدور مجلة (اكتوبر) فى اكتوبر سنة ١٩٧٦ . . وكنت قبل ذلك أجمع المحررين ليسمعوا ما قاله الرئيس فى تسجيل موجه إليهم . . ولم يكن هذا كافيا لتهدئة الخواطر . . ولذلك ظهر الحديث فى كل الصحف وفى الإذاعة والتليفزيون لرفع معنويات المحررين . وفى الحديث وردت عبارة غريبة للرئيس تقول : إنها لن تكون مجلة (لتصفية الحسابات) بين الصحفيين أو السياسيين . .

وهو يشير الى المعارك حول عبد الناصر وما فعله زبانية عبد الناصر فى الصحافة وفى السجون . . فالمجلة الجديدة سوف تكون جديدة بأقلام شابة - والقصة طويلة . .

وفى يوم سألنى مصطفى أمين : فى تقديرك كم شهرا سوف تبقى هذه المجلة ؟ !

فقلت متضايقا : ما بقيت أخبار اليوم !

لقد كان السؤال خشنا . . فكان الجواب أكثر خشونة !

(٢)

وكنت قد اتفقت مع الملكة فريدة على أن أنشر مذكراتها فى مجلة (أكتوبر) .. ولكن لم أعرف متى يكون ذلك . طبعا ليس فى أعدادها الأولى . فقد طلبت الى الرئيس السادات أن يتحدث إلى الشباب كما وعد . فكانت سلسلة (الجليد يذوب بين مصر وروسيا) . وفى هذه السلسلة روى الرئيس السادات للشباب حقيقة ماحدث بين مصر وروسيا وكان كلامه بالعقل .. ولم يعجب لا روسيا ولا الشيوعيين ..

وفى نفس الوقت جلست إلى الملكة فريدة أسألها وأسألها . ولاحظت أن أسئلتى قد قصدت بها أن أرد على مصطفى أمين واتهاماته للملك فاروق . فبعض مما قاله ليس صحيحا . فليس صحيحا أن الملك فاروق كان سكيرا . لانه لم يذق الخمر ، لا تدينا ولكنه لا يحب طعمها . هكذا قالت لى الملكة فريدة . وقالت لى الملكة ناريمان . وقال لى الأمير أحمد فؤاد عندما دعانى الى الغداء فى بيته فى باريس . وعندما دعوته هو وزوجته (الأميرة) فضيلة الى العشاء فى باريس .. وعندما التقيت به فى بيت وزير الثقافة المغربى فى الرباط .. فقد وجدت زوجته لا تكف عن التدخين والشرب . اما هو فيدخن فقط . وأكد لى أنه مثل والده لايحب الخمر ..

ولكن لم يعجبنى أن أهاجم مصطفى أمين .. ولا هى مهمتى أن أتولى الدفاع عن الملك فاروق .. فليس موضوع الخمر يشربها أو لا يشربها هو القضية ..

ولكن وجدت لمصطفى أمين عذراً وهو أنه لا يحب أن يخرج أحد من (أخبار اليوم) ولا أن يخرج عليها . . أما إننى خرجت منها أو تخرجت فيها فهذا صحيح أما إننى خرجت عليها فليس صحيحاً . ولكن خرجت لأرأس مؤسسة (دار المعارف) التى كانت للطباعة والنشر فصارت مؤسسة صحفية والفضل فى ذلك لمجلة (اكتوبر) الجديدة . .

وتضايقت أكثر عندما انتقلت تشنيعات ونكت على لسانى ضد مصطفى أمين . طبعا كذب ! فلا يوجد أى سبب من أى نوع يدعونى إلى ذلك . .

وقابلت مصطفى أمين وقلت له : اسمع يامصطفى بيه أنا لاأنكر فضل أخبار اليوم . . وانا لاأزال وسوف أبقى أقول : (عندنا) فى أخبار اليوم !

ولم أغير هذه الكلمة حتى الآن . . فأنا تركت (أخبار اليوم) من ٢١ عاما . ولا أزال أقول : عندنا فى (أخبار اليوم) وإذا ذهبت إلى الاسكندرية فأننى أذهب إلى مكتب (أخبار اليوم) وهناك يترك لى الصديق محمد شاكر مكتبه وتليفوناته . . مع إننى لم أعد فى (اخبار اليوم) وإننى أكتب مقالات للأهرام . . ولا أعرف أحداً فى مكتب الأهرام بالإسكندرية لأننى مازلت عندنا فى (أخبار اليوم) . . وصورتى تطالعك فى مدخل أخبار اليوم . فقد تربيت وصعدت ورأست فيها تحرير ثلاث مجلات : الجيل وهى وآخر ساعة . .

ومصطفى أمين سيد العارفين فالجو الصحفى كله كلام . . صناعتنا الكلام والأخبار . . والأخبار التى ليست صحيحة وما أكثرها فأننا نفبرك غيرها من الحكايات والنكت والشائعات . . وعلى الرغم من أن الكلام صناعتنا . . فأننا نضيق بالكلام إنتاجا واستهلاكا واستيرادا وتصديرا . .

وكان شارلى شابلن يندهش لسلوكيات الناس . وكان يقول : إننا نفزع من منظر الدم مع أنه يجرى فى عروقنا !

فكيف نفزع من الكلام الذى يجرى حبرا أسود فى عروقنا وبنزينا فى أنوفنا !

ولا يهم أى كلام . فالمجلة يجب أن تصدر وأن تنجح وأن تتفوق وأن تكون حديث الناس فى مصر والعالم العربى ، وخبطاتها الصحفية سوف تجعلها حديث الدنيا . وقد كانت ولسنوات طويلة .

وفجأة دعانى مصطفى أمين إلى مكتبه وسألنى : عاوز ارشح لك كاتبا ناشئا ليكتب عندك . .

- يسعدنى يامصطفى بيه

- ألا تسأل من يكون ؟

- يكفى أنك رشحته . . من هو ؟

قال : أنا . .

- ياه شرف لنا يامصطفى بيه . . متى يكون أول مقال ؟

- ياشيخ أنا بأضحك معاك !

- تصور يامصطفى بيه . . مصطفى أمين وإحسان عبد القدوس ونجيب محفوظ وإسماعيل فهمى ومذكرات الرئيس السادات . . إنها صواريخ تدفعنا إلى فوق . . إلى مدار حول الأرض . . فى السماء . .

وفى إحدى حفلات أعياد ميلاد مجلة (أكتوبر) . جاءنا مصطفى أمين وجلس إلى تلامذته . . فأكثر شباب مجلة (اكتوبر) كانوا معى فى (آخر ساعة) . . السكرتارية كلها من آخر ساعة . . والباقون من (الأخبار) . . ولم يشعر بأنه غريب عنا . . ولا نحن غرباء عنه . .

ثم قال كلاما أسعد الرئيس السادات عندما نقلته إليه . قال مصطفى أمين لنا جميعا : لا شىء يدل على حرية الصحافة فى مصر إلا ما تنشره مجلة (اكتوبر) من مقالات فى غاية الجرأة . .

ولم يشأ مصطفى أمين أن يشير صراحة إلى مقالات إحسان عبد القدوس التى عنوانها (على مقهى فى الشارع السياسى) . . ففى هذه المقالات كان إحسان يهاجم سياسة مصر وسياسة الحكومة وسياسة الرئيس السادات . .

ولم يحدث مرة واحدة أن قلت لإحسان عبد القدوس : اكتب شيئا أو احذف شيئا . . أو نقلت إليه شكوى رئيس الوزراء وقيادات الحزب الذين يهاجمهم إحسان بمنتهى السخرية والقسوة أو السخرية القاسية أو القسوة الساخرة . . كل أسبوع . .

حتى إحسان عبد القدوس انزعج وشكانى إلى بعض الأصدقاء وإلى زوجتى

وقال : إن أنيس يريدنى أن أدخل السجن فهو لم ينبهنى مرة واحدة إلى ما أكتبه ومدى العنف الذى فى كل عبارة . .

ثم سألنى إحسان عبد القدوس فى عشاء عنده وكأنما أراد أن يورطنى أو يجعل عددا من الأصدقاء يشهدون علينا . . فبعد العشاء سألنى : أريدك أن تجاوبنى أمام الجميع : لماذا أنت تتركنى اكتب ما أكتب دون أن تحذرنى من غضب الرئيس السادات . .

وأقسمت لإحسان عبد القدوس صادقا : إن الرئيس السادات لم يغضب مرة واحدة . . ولا راجعنى فى هذا الذى تكتبه . ولا طلب منى أن ألفت نظرك إلى شىء . . صحيح رئيس الوزراء اشتكى وأمناء الحزب والوزراء . . ولكنى أعتقد أنك سيد المحللين السياسيين فى مصر . . وأن الذى تكتبه أكبر دليل على حرية المجلة وحرية الصحافة . . فإن لم يكن الذى تكتبه نوعا من المعارضة داخل الحزب ، فأنت كاتب حر !

وإحسان عبد القدوس مثل مصطفى أمين : سىء الظن بالناس . حتى بأصدقائه . . أو خصوصا بأصدقائه !

وقرأت حديثا لإحسان عبد القدوس فى مجلة (الحوادث) يقول فيه : أنا أكتب والسلام . . ولا أعرف أين يقع أو يذهب كلامى . . وإذا دخلت السجن أو اغتالنى أحد فأنيس منصور هو المسئول . . لانه استدرجنى لأن أقول كل ما يخطر على بالى دون أن يحذرنى وانا أعرف عبد الناصر والسادات . . عبد الناصر دغرى . . إذا لم يعجبه كلامى وضعنى فى السجن أو يرسل واحدا يضربنى بالرصاص . . أما السادات ففلاح لئيم وباله طويل . . وقد اعتاد الفلاح المصرى إذا أراد أن يقتل أحدا أن يختفى فى حقول الأرز أو القصب . . وأعتقد أن السادات الأن فى حقول القصب . . لأن عبد الناصر زعيم واضح . . والسادات رجل متآمر . . فعلى الرغم من أنه أصبح رئيسا للدولة ، فهو يتصرف كواحد لم يصل بعد إلى السلطة . ولذلك فهو يسكت ويصبر ثم ينقض بعد ذلك . . وقد أوصيت زوجتى إذا حدث لى شىء فليحاكموا أنيس منصور أولا !!

وقلت لإحسان عبد القدوس : أولا أنا الذى طلبت إليك أن تكتب ولا تزال

تكتب ولم يتعرض لك أحد . . ثم إذا كان هذا يضايقك ولا تشعر بالأمان ، فلا تكتب - وإن كان يحزننى ذلك . وليس من المعقول أن أسكت عنك والسادات وأجهزة الدولة كل هذه الفترة الطويلة لم تتعرض لك . . فليس أسهل من أن يفعلوا ذلك فى أى وقت . .

وشكوته إلى يوسف السباعى صديقنا نحن الاثنين . وكان من رأى يوسف السباعى : إننى تعبت طوال عمرى مع إحسان . . إنه يريد ان يكون مدللا معظم الوقت . فإذا كتب فلابد أن تضرب له تليفونا وتقول : ياحلاوتك ياجمالك ياعظمتك . . ولا تكتفى بالتليفون وإنما يجب أن تزوره مع طلوع كل مقال . . وأنا لم أستطع وأنت لن تستطيع . . فلا تسأل فيه - إحسان دلوعه ودلعه بايخ . . اسمع قل له إن الرئيس السادات طلب أن أكتب أنا بدلا من إحسان . . هاها . . هاها . . تعرف لو حصل فسوف يلعن أجدادى أنا . . ويرى أننى الذى تآمرت عليه . . وسوف يحذرك منى أيضا . . هاها . . هاها . .

وفؤجئت بمصطفى أمين يقول لى : إيه حكاية يوسف السباعى ؟

- مفيش حكاية ؟

- هل طلب الرئيس أن يكتب يوسف بدلا من إحسان ؟

- أبدا دى نكتة . .

- لا مش نكتة . . إحسان قاعد قدامى أهوه . .

- نكتة . . والله زى نكتك يامصطفى بيه !

- . . . .

وأذكر أن الرئيس حسنى مبارك طلبنى فى ساعة مبكرة وقال لى : هل قرأت ما كتبه إحسان

- ايوه ياريس

- هل يعجبك مثل هذا الكلام ؟ !

- لا ياريس

- ولا أنا . . إننى أتكلم باعتبارى مواطنا مصريا . . وأرى أن الذى كتبه إحسان

عبد القدوس فيه مغالطة وفيه إضرار بالوطن . . وإنه يعطى صورة وحشة جدا بقلم كاتب كبير

– طيب ياريس تحب الفت نظر إحسان . .

– لا . . أرجوك . . هو حر يكتب ما يمليه عليه ضميره . . ولكن أرجوك لا تقل إننى غير راض عن الذى يكتبه . . لا تقل له ياأنيس . .

– حاضر ياريس . .

– شكرا

– . . . .

ولم أقل لإحسان عبد القدوس أن الرئيس حسنى مبارك غير راض ، وأنه تكلم لا باسم رئيس مصر ورئيس الحزب ولكن كمواطن مصرى حريص على البلد وعلى صورة إحسان عبد القدوس . .

(٣)

كنت أتمنى أن أكتب هذه السطور والملكة فريدة لا تزال حية ترسم لوحاتها وتوقع عليها بامضاء ف . ف - أى فريدة فاروق . ولكنها ماتت يرحمها الله . . فقد كانت بسيطة أنيقة متواضعة ولها كبرياء . . وكل شيء في كلامها وجلستها ومشيتها وحبها العميق لمصر يؤكد أنها ملكة . .

فقد سألني مصطفى أمين : إن كنت سأنشر مذكرات الملكة فريدة . . وعن أى شيء سألتها . . وهل فيها جديد . . وهل الرئيس السادات عنده فكرة عن هذه المذكرات . .

قلت : إنها فكرة . . ما تزال فكرة . . وقد وعدتنى . . وليس الوقت مناسبا لذلك . . ولابد أنها سوف تدافع عن نفسها وعن فاروق فقد تعرضت لكثير من الظلم . . والتشنيع . . وهى لم تكن طرفا فى أى قرار سياسى داخلى أو خارجى فى مصر . . فهى ملكة وليست زوجة رئيس جمهورية أمريكا . .

- ولكن كل حياتها معروفة . .

- صحيح . . لكن الذى ليس معروفا هو كيف ترويها . . كيف تتحدث عن نفسها . . وأنت تعرف الكثير جدا يامصطفى بيه ولكن الناس العاديين لا يعرفون . . إنني سألتها عن موضوعات شخصية جدا . .

واتفقت مع الملكة ناريمان أن أكتب مذكراتها . .

ولكن حدث في يوم كانت ستزورنا فى البيت عندما نشرت (مجلة أكتوبر) فى باب (اتجاه الريح) أن (ميمى ميدار) عشيقة الملك فاروق سوف تنشر مذكراتها . . وغضبت الملك ناريمان . ولم تحضر . ولم تعتذر . . فلا هى ولا الملكة فريدة تطيق كلمة واحدة ضد الملك فاروق !

وكان ابن الملكة ناريمان قد زارنى وهو شاب يعمل فى توكيلات السيارات . . وأخوه كان يعمل سكرتيرا للدكتور أسامه الباز . وكدنا نتفق على مذكرات الملكة ناريمان . . حتى جاء هذا الخبر الذى أفلت منى . . ولو عرفت ما كتبته . .

وضاعت منى مذكرات الملكة ناريمان . .

وقبل ذلك أرسلنى على أمين إلى أمريكا لمقابلة الملكة نازلى والحصول على مذكراتها . . وكنت فى اليابان . فتلقيت برقية من على أمين يقول فيها : مصطفى وأنا نريدك أن تسافر إلى أمريكا وتقابل الملكة نازلى وبناتها وزوج بنتها رياض غالى وتجرى حديثا مع الجميع أو تحصل على مذكرات الملكة نازلى . . ولا يهم كم من الوقت سوف تبقى فى أمريكا . .

كان ذلك فى ديسمبر سنة ١٩٥٩ وكنت فى اليابان ولم أكمل رحلتى حول العالم التى استغرقت ٢٢٨ يوما بلا توقف . . ومعنى ذلك أننى سوف أبقى بضعة أيام فى أمريكا . . فليكن !

ولكننى تعبت من الرحلة الشاقة جوا وبرا وبحرا . . والسفر من بلاد باردة الى بلاد استوائية الى جليد القطب الجنوبى . . ففى يونيو كنت فى الهند وفى يوليو كنت فى التبت وفيتنام وكمبوديا ولاوس وسنغافوره وفى أغسطس كنت فى اندونيسيا . . ثم فى استراليا حيث الشتاء والجليد . . ثم الفلبين حيث الحرارة والرطوبة وفى اليابان حيث العواصف . . وبعد ذلك إلى جزر هاواى حيث الجمال

الهادىء والهدوء الجميل فى المحيط والشاطئ والفواكه والموسيقى والرقص والبنات المصنوعات من الشيكولاته المخلوطة باللبن والنبيذ . .

تعبت جدا من هذا الانتقال وليست عندى رغبة فى أن أعود إلى مصر قبل أن استريح فى ايطاليا . . ففى ايطاليا أشعر إننى فى بلدى . . بين أهلى . . بين أعز الناس . .

وقد دفعنى التعب إلى أن أتهجم على إحدى مستشفيات طوكيو . . وأن أملأ استمارة وانتظر دورى ساعة وساعة لعل أحدا يدعونى للكشف . . وذهبت شاكيا إلى موظفة الاستعلامات : إننى جالس من ساعتين ولم يستدعنى أحد ؟ !

فقالت : نحن فى انتظار المدام – لان هذا مستشفى ولادة !!

وذهبت إلى هوليود ومنها إلى ضاحية بيفرلى هيلز . وقابلت الملكة نازلى وبناتها وزوج ابنتها رياض غالى . وقالت لى الملكة كلاما كثيرا جدا ونحن على طعام الغداء والعشاء والسهر الطويل . . ونفت الكثير جدا من الحكايات والمغامرات التى نشرتها الصحف المصرية وخاصة فى مجلتى (المصور) و (آخر ساعة) و (اخبار اليوم) وقالت : إننى لا أملك الدفاع عن نفسى .

وكانت لها حكايات وروايات ونوادر وكلام عن الصحفيين المصريين . . عن محمد التابعى ومصطفى أمين وإحسان عبد القدوس وغيرهم . .

وعندما دعتنى طلبت منى أن أزورها مرة أخرى قبل عودتى إلى مصر واستحلفتنى بكل عزيز ألا أكتب سطرا واحدا مما قالت !

ولم أكتب سطرا واحدا . وغضب مصطفى أمين !

إذن فأنا لم أكتب لا مذكرات الملكة نازلى ولا مذكرات الملكة ناريمان ولا مذكرات الملكة فريدة . .

وقد جاءتنى سيدة عندها مذكرات وصور للملكة فريدة . وتريد نشر هذه المذكرات التى هى أحاديث على المخدة بين صديقتين . وقرأت بعض هذه المذكرات ولم أجد فيها شيئا غير عادى . . وإنما هما سيدتان صديقتان وبينهما كلام عادى عن الأولاد والزوج والحب والناس . . ولكن ليس المهم أن تقول الملكة فريدة عن

حبها وعن الناس . . ولكن أن تقول كملكة ماذا حدث وكيف حدث . . ومن هم الرجال والنساء وراء الستار الملكى ومن هى الفنانة ومن هى الراقصة . . ومن التى دخلت ولم تخرج ومن التى خرجت ودخلت عشرات المرات رغم أنف الملكة أو بعلمها . .

لقد سألت راقصة معروفة عن علاقتها بالملك فاروق كما وصفتها (أخبار اليوم) فمدت يدها إلى المصحف وقالت : وحق كتاب الله لم يحدث بينى وبين الملك فاروق أى شىء يغضب ربنا . . أنا أتكلم عن الملك فاروق بالذات - ولكنى أغضبت ربنا ألف مرة مع ألف رجل !

وحكيت لمصطفى أمين قال : إنها كاذبة . .

وعدت أقول لها ما قاله مصطفى أمين . قالت : هوه مصطفى قال لك كده ؟ !

ومدت يدها إلى التليفون فقلت لها : فى عرضك . . أنا لاأجرى تحقيقا . إننى مصدقك . يكفى أنك أقسمت على المصحف !

وسكتت الراقصة المعروفة وقالت لى : أقول لك حاجة لايعرفها غيرى ولن يصدقها أحد . .

- ياريت . .

- طبعا انت تعرف الفنانة كاميليا . . وأنا أضع الآن يدى على المصحف مرة ثانية . . والله العظيم وحق كتاب الله . . إن هذه الفنانة لم تكن لها صلة جنسية بفاروق . . والله العظيم . . والله العظيم والله العظيم ولا كانت لها صلات بأحد فى السنوات الاخيرة من حياتها . ليه ؟ فقد كان عندها مرض نسوى يمنعها من ممارسة الجنس . . والله على ما أقول شهيد !

وقلت للرئيس السادات : ياريس كنت أفكر من سنوات أن أنشر مذكرات الملكة فريدة . . فهل . .

قال : اسمع ياأنيس من حقها أن تقول ما تشاء فهى حرة . وأنا لن اعترض على مذكراتها سواء نشرتها فى مجلة (اكتوبر) أو فى أى مكان آخر . . فهى مواطنة مصرية كانت ملكة وهى حرة . . ولكن فقط لا أرى فى الوقت الحالى أنه من المناسب نشر مذكراتها فى مجلة (اكتوبر) لأن الناس يتوقعون منك أشياء أخرى أهم من ذلك . . هل هى التى طلبت منك نشر مذكراتها . .

- لا ياريس . . أنا اللى طلبت . وهى وافقت . .

- وهل حكت لك ما الذى تريد أن تقوله . .

- لم تقل كلاما محددا . . ولكن أنا الذى سوف أسألها

- أقول لك لا مانع أن تنشر مذكراتها فى العام القادم . . إن شاء الله . . وسوف أوجه إليها أنا بعض الاسئلة . . هناك أحداث كثيرة غامضة حتى علينا نحن . .

- زى ايه ياريس ؟

- زى ايه . . حدث شىء غريب جدا . . أيام كانت فريدة ماتزال ملكة وكان الملك قد قرر أن يطلقها . . وكان ذلك قبل الثورة بعامين تقريبا . . وفوجىء موظفو القصر . . وفوجئنا بحاجة تموت من الضحك . واحد راكب بسكلته . . ووقف أمام الباب الخلفى للقصر . . وكانت معه لفة من الورق وعرفنا فيما بعد أنها سندوتشات فول وطعمية . . فهل كانت للملك أو للملكة . . شىء غريب . . وعندى أسئلة جادة أكثر . . فكرنى بس قبل ماتنشر مذكراتها . .

وفجأة نشرت مجلة (الشبكة) حديثا لمصطفى أمين يهاجم فيه الملكه فريدة التى سوف تنشر مذكراتها فى مجلة (اكتوبر) وتقول فيه مالا عين رأت ولا أذن سمعت ؟!

ومعنى ذلك أن مصطفى أمين لم يهضم بعد أن تخرج مجلة جديدة دون أن تكون بنت (أخبار اليوم) . . فعلا إنها ليست بنت أخبار اليوم ولكن (حفيدة) أخبار اليوم فهى ابنة لواحد من أبناء اخبار اليوم . .

وظلت هذه نكتة يجددها مصطفى أمين من حين إلى حين . . ولم تفسد للود قضية . .

(٤)

سألنى الرئيس السادات : إن كانت (أخبار اليوم) تقوم بحملة عنيفة ضد مجلة (اكتوبر) فنفيت ذلك . وأدعيت أنهم أقاموا لى حفلة تكريم . . ورأوا أن هذه الحملة المزعومة هى ضد (أخبار اليوم) أيضاً !

واندهش الرئيس السادات : وهل من الضرورى أن تخرج الحملات من (أخبار اليوم) أو من روزا ليوسف . . شئ عجيب . . عاوزين يحرموا علينا نطلع مجلات . . شئ عجيب !

– ولكن ياريس لم يقل أحد ذلك .

– أنا عارف ياأنيس . . وانت لن تقول غير هذا الذى تقول . . أنا عارف . . أنا عارف إحسان عبد القدوس كيف يفكر ومصطفى أمين . . أنت ناسى أننى كنت صحفيا . . وأعرف الأحقاد التى تحرق قلوب الصحفيين الكبار . .

ولم أحاول أن أقنع الرئيس . واندهشت كيف وصلته هذه الشائعات أو المعلومات بصورتها وتفاصيلها الدقيقة . .

وعرضت على مصطفى أمين دفعا لهذه الشائعات أن يكتب لنا مقالا أو أكثر . . أو أن أحدا يجرى معه حديثا . ووافق . ثم عاد فاعتذر . ثم وافق . واعتذر نهائيا . واندهش الرئيس السادات لهذا التردد . . وكان له تفسير عجيب لذلك !

وفى ذلك الوقت جاء على لسان السفير السوفيتى أن مصطفى أمين قال له : إن الرئيس عبد الناصر قال له أى لمصطفى أمين إن أنور السادات ليس مريضا ولكنه يدعى المرض . . وان الموقف إذا اقتضى أن يكون له رأى فأنه يهرب إلى ميت أبو الكوم مدعيا المرض . . وفى إحدى المرات أرسل له الرئيس عبد الناصر الدكتور محمد عطيه ليتأكد من مرض السادات فوجد درجة حرارته أربعين . . ولكن الرئيس عبد الناصر عرف من المخابرات أن الفلاحين يأكلون الحلاوة الطحينية بالشطة وهذه من شأنها ان ترفع درجة حرارة الفم والحلق الى أربعين وما فوقها . . وكذلك يفعل السادات وقال له عبد الناصر إننا جميعا سوف نموت وإن السادات هو الذى سوف يدفننا جميعا !!

وسألت مصطفى أمين فقال لى : إنه لم يقابل السفير الروسى فى حياته . . ولكن عبد الناصر قال له كلاما بهذا المعنى !

وسألت الرئيس السادات فضحك . .

وعدت أقول له : ياريس هل صحيح أنك فى جنازة عبد الناصر تظاهرت بالإغماء لأنه قيل لك إن هناك محاولة لاغتيالك أثناء الجنازة ؟ !

فضحك ولم يرد . .

فعدت أقول له : طيب ياريس . . أنت أفهمت عبد الناصر أنك مريض وأنك سوف تموت قريبا ولذلك أوصيته بالاولاد وقلت له : وصيتك الاولاد ياجمال (قلتها مقلدا صوت السادات) .

فضحك ولم يعلق . .

ثم عدت أقول له : يعنى ياريس أنت قلت له أنك مريض وأنك سوف تموت . . وفى نفس الوقت ليس لك رأى فلا خوف منك ولا خطر ولا أهمية . . فأنت (نومت) عبد الناصر تماما . . ولذلك احتفظ بك نائبا له . . ثم نائبه الأوحد . .

وضحك وقال : ياساتر . . ياباى ياأنيس دا أنت خبيث خبث !!

– أنا اللى خبيث ياريس ؟ !

ومضى السادات يضحك ولا يقول شيئا . قلت له : بالمناسبة ياريس مصطفى أمين يريد أن يكتب فى اكتوبر .

– أنت طلبت منه ؟

– هو اللى طلب . . مداعبا ولم يكن جادا . .

– يكتب يقول إيه ؟

– إنه كاتب كبير يقدر يقول أى حاجه ياريس . .

– لا مش أى حاجة ياأنيس مشى أى حاجة . . يقدر يقول حقيقة ما جرى . . على كل حال مش حيكتب . . يكتب وفى مجلة (اكتوبر) فى السياسة يقول ايه . . يقدر يقول عن الناس وعن الزمن الذى لخبط حياته وموازينه . . إذا كان كده . . قوى . . خليه يكتب .

– لكنه لن يكتب ياريس . .

– أنا عارف . . . . أخوه على كان كتب مرة فى بيروت إنه عندما كان مصطفى أمين فى السجن أرسل لى خطابا وأننى لم أرد عليه . . وهذا لم يحدث . وأنا بأقول واكتب على لسانى فى مجلة (اكتوبر) إن هذا لم يحدث . . ولماذا لا أرد عليه . . لابد أن له مشكلة أو طلبا . ولا شىء يحرجنى أن أقول : لا . . أو نعم . . اسأل مصطفى عن الحكاية دى . .

وبعد أيام سألت مصطفى امين . وقلت للرئيس : إنه لم يكتب خطابا . وهو لا يعرف أن على امين كتب ذلك –

– بل كتب وجاءنى صديقهم الصحفى اللبنانى سعيد فريحه وسألنى عن ذلك . فأكدت له أننى لم أتلق خطابا . . واندهش سعيد فريحة مثلى تماما . . فما الذى كان يريده مصطفى أمين . . اسأله وقل لى . .

– حاضر ياريس . .

ولم أسأل مصطفى أمين فقد نفى تماما أنه أرسل خطابا من السجن إلى أنور السادات . . ولكن عرفت من سكرتيرة مصطفى أمين أنه بعث إليها هى بخطاب مغلق ثم طلب إليها أن تمزقه ومزقته دون أن تعرف على أى شىء يحتوى . . وحتى لم تعرف أنه كان موجها للرئيس السادات . .

وفى اليوم التالى أعطانى الرئيس السادات صورة الخطاب الذى بعث به مصطفى أمين . . ولا أعرف كيف حصل الرئيس أو أجهزة الأمن على صورة هذا الخطاب . . هل أخذوا صورته عند خروج الرسالة من السجن إلى السكرتيرة . . أو بعد ذلك . . فالرئيس لم يتلق الخطاب مباشرة ، وإنما جاءه بشكل ما . .

وسألنى السادات : تحب تنشر هذا الخطاب ؟

فقلت : لا . . لا . . ياريس أبدا ! أرجوك . .

قال : إننى أداعبك أنا لا أنشر خطابا شخصيا . وأرى أن نشره غير إنسانى . . فالإنسان فى هذه الظروف القاسية - وقد عرفت السجن والتشريد - يقول كلاما ينكره بعد ذلك . .

ثم مزق الرئيس أمامى صورة الخطاب . .

وفى عشاء فى بيت الموسيقار محمد عبد الوهاب اقترب منى موسى صبرى وقال لى : عندك صورة من الخطاب الذى سوف تنشره فى مجلة اكتوبر . .

- أى خطاب ؟

- بتاع مصطفى امين ؟

- لا . .

- أنا متاكد . . على كل حال مش مهم سوف نقرؤه فى (اكتوبر) . .

- والله العظيم ياموسى ليست عندى أية صورة من هذا الخطاب !

- ولكن ايه رأيك إن هذا ما يقوله مصطفى امين . . وعلشان كده هو زعلان جدا . .

- ياموسى مش صحيح . . وأنا لا أحب أن أغضب مصطفى أمين . . ياموسى إنت ناسى ما أصابنا بسبب حبنا لأخبار اليوم وصداقتنا بمصطفى أمين وعلى

أمين . . أنت تعرف من هما بالنسبة لنا . . وأخبار اليوم بالنسبة لنا . . هم الأساتذة و (أخبار اليوم) هى الأم وهى قاعدة انطلاقنا كصواريخ فى سماء الصحافة . . معقول ياموسى ؟

– أنا بأقول مش معقول ولكن مصطفى . .

– طيب أنا أعمل إيه . . مصطفى لا يصدق أحدا ولا يثق فى أحد . .

– ياأخى قل له . .

– قلت له . . وأقسمت له . .

– هل أقسمت أنك لم تر الخطاب . .

– أقسمت . .

– ولكنه سمع من سكرتارية الرئيس السادات أنه أتى لك بالخطاب وانك قرأته وأنه هو الذى مزقه . . .

– الرئيس السادات مزق الخطاب . . فكيف أنشره . . ولو كان السادات يريد نشره لقال لى . .

– حاول أن توضح لمصطفى امين . .

ذهبت إلى مصطفى أمين فقال لى : موسى حكى لى مادار بينكما . .

– يامصطفى بيه كيف تتصور لحظة واحدة أنه يمكن لواحد مثلى أن يجرحك بكلمة أو بفعل . . أنت تعرف قيمتك عندنا واعتزازنا بك . . وإيماننا بأن ظلما فادحا وقع عليك . . كيف يخطر على بالك أنه من الممكن أن أنشر خطاباً شخصياً جدا . . مستحيل .

ونهض مصطفى أمين وعانقنى . وأنا صادق فى كل ما قلت . .

(٥)

كنت أرى فى اهتمام مصطفى أمين لكل ما تنشره مجلة (اكتوبر) تحية لنا . . فلو كان الذى ننشره ، لا قيمة له ، ما حرص على أن يسألنى أولا بأول . .

وكان مصطفى أمين يهتم أيضا بجريدة (الوفد) التى أصدرها ورأسها تلميذه وصديقى : مصطفى شردى . .

وفى يوم نشرت أنا خطابا قد بعث به السيد شعراوى جمعه الذى كان وزيرا للداخلية . . وفى الخطاب يستحلفه شعراوى جمعه بالعفو والصفح . .

وقيل أيامها أن السادات اشترط ، لكى يخرج شعراوى جمعه من المعتقل أن يطلب إلى الرئيس ذلك . فلما بعث بهذا الخطاب ، أفرج عنه . .

وأنا نشرت الخطاب على مضض . فشعراوى جمعه تربطنى به صلات صداقة . . وهو الصديق الصدوق لقريبى الوزير توفيق عبد الفتاح وتوأمه الوزير زكريا توفيق . . وكانت زوجتى وهى صغيرة تكتب لهم منشورات الثورة . . فقد كانوا يريدون أحدا لاعلاقه له بالضباط الأحرار ، ولا يمكن أن يعرف أحد خط من يكتب

هذه المنشورات . ثم عرفت شعراوى جمعه وزير الداخلية ولى معه حكايات ونوادر . . وكان مدير مكتبه د . عبد المنعم جنيد زميلى فى إحدى الرحلات إلى أوروبا . وقد قامت الثورة ونحن فى البحر فى طريقنا إلى إيطاليا . . وكان من الضباط واحد اسمه حسنى نجيب ، كان ضابط فى البوليس الدولى . . ثم صار محافظا للمنيا . . وعندما بلغنا الشاطئ الإيطالى ورأينا فى الصحف صورة محمد نجيب وجدنا أنه من المستحيل أن يكون أخا لحسنى نجيب . . فمحمد نجيب أسمر وحسنى نجيب أبيض . . ولكن الناس صدقونا . . واحتفلوا بحسنى نجيب فى المطاعم والأديرة التى كنا ننام فيها . . وكانت هذه الرحلة تضم د . عبد العزيز حجازى ود . عبد المنعم البنا ثم أستاذ اللغات الشرقية د . مراد كامل .

ثم قابلت شعراوى جمعه فى قبرص . . فله ابنة تزوجت دبلوماسيا ليبيا . ولم يشأ الرجل أن يعاتبنى أو يقول شيئا عن الخطاب الذى بعث به للرئيس السادات . .

حتى جلست إلى الصديق المستشار عبد الحميد يونس ، وعنده حكايات لا أول لها ولا آخر . . وكان له دور رهيب فى الجهاز الطليعى وهو نسيب شعراوى جمعه أيضا . فقال لى إن شعراوى لم يكتب هذا الخطاب . وانما كتبته حرم المهندس عثمان أحمد عثمان . . أو أختها حرم الوزير عبد المنعم الصاوى ووالدة المهندس إسماعيل عثمان . . وأن هذا هو خطها وأنها كتبت ذلك إشفاقا على شعراوى وأسرته . .

وقال لى مصطفى أمين : إن هذا الخطاب ليس بخط شعراوى جمعه . . ولو حاول أن يغير خطه ، فلن يكون هكذا . .

– وأنت تعرف خط شعراوى ؟

– ايوه . . عندى تأشيرات له على أوراق كثيرة . منها تقارير كتبها عنى بعض الصحفيين . وأنه كتب عليها بعض التعليقات وأمر بحفظها لسخافتها . . فلما قارنت خطه فى الخطاب الذى نشرته وخطه فى هذه التقارير تأكدت أنه ليس هو . . ولكنى أعرف من الذى كتب له هذا الخطاب . .

ولم أشأ أن أقول للرئيس السادات ما قاله مصطفى أمين . . ولم أعرف من عبد الحميد يونس تفسيره لهذا الخطاب إلا بعد وفاة السادات . .

ولكن السادات قال تعليقا على خطاب شعراوى جمعه : هذه خطابات المحن . . فالإنسان يكون ضعيفا ويكتب ما سوف ينكره بعد ذلك . .

وقد ظهرت خطابات لمصطفى أمين بعث بها إلى الرئيس عبد الناصر . .

وقال لى الرئيس حسنى مبارك : لولا خوفى على يوسف إدريس لبعثت إليك خطابا كتبه لى فى محنته الأليمه . . ومن المؤكد أنه لو أعاد قراءته هو ، لأحرقه فورا . .

فهى - إذن - رسائل المحنة . . وهى القسوة التى تجعل الحديد يلين ، والكرامة تذوب . . لأنها اعترافات تحت ضغط شديد . . أونوع من (التعذيب النفسى) كالذى عند الشيوعيين . . فيقول الشيوعى المتهم : أنا غلطان أنا ابن . . . وأنا فعلت ذلك عامدا متعمدا وإننى أستحق الشنق . .

أو هو نوع (الهيراكيرى) اليابانى . . بأن ينتحر المفضوح أوالمذنب . . أو هو نوع من ذلك عندنا وإن كان لا يصل إلى حد القتل ولكن فقط إلى خربشة الوجه وتشويه الصورة الأدبية عند الناس . .

سألت الرئيس السادات إن كان قد اضطر إلى ذلك يوماً ما فضحك وقال : الله انت جرى لك إيه ياأنيس . . انت مش عارف إنى (رد سجون) واخد على البهدلة . . هاها . . هاها . . لم يحدث أن وجدت نفسى مضطرا إلى هذه البهدلة النفسية التى لا يلجأ إليها الإنسان إلا اذا كان يائسا . . ولابد أن شعراوى جمعه قد شعر بالوحدة الشديدة . . وأنه مخدوع فى أعوانه وزملائه . . وأنهم سقطوا من عينيه . . فلم يكن أمامه إلا أن يخرج . . وانا أعرف أن شعراوى جمعه جدع . . شخصية قوية . . أقوى منهم جميعا . . ولم أسمع أنه شكا أو بكى أو أحنى رأسه . . جدع جدا . .

وبالمناسبة احكى حكاية تحقيقات فى مجلة (آخر ساعة) . اكملناها فى مجلة (اكتوبر) . . وكانت هذه التحقيقات فى مستشفى الأمراض العقلية . وهناك وجدنا مفاجأة شغلت الرئيس السادات كثيرا وراح يرويها للناس حوله . .

لقد وجدنا رجلا عاقلا جدا محترما أنيقا فى مستشفى الأمراض العقلية سألناه : وأنت ماذا تعمل ؟ .

- أقرأ الصحف وأحل الكلمات المتقاطعة . ومبسوط كده ..

- لا مؤاخذة حضرتك مريض ؟ !

- إنهم يقولون .

- وأنت ؟

- كما ترى لا أهش ولا أنش ..

- منذ متى ؟

- من خمس سنوات ..

- وأهلك ؟

- يعرفون أننى ميت ..

- ما الذى أتى بك إلى هنا ..

- بشرط ألا تكتب سطرا واحدا فى مجلة (اكتوبر) .

- لك هذا ..

لقد كان يعمل قاضيا فى مدينة (. . .) وكانت عنده جلسة انفتح الباب ودخل السيد المحافظ وصافح القاضى ووضع يده على كتف أحد المتهمين وقال للقاضى: مش حاوصيك عليه !

وبسرعة جمع القاضى أوراقه وقال : رفعت الجلسة !

وضرب الجرس ليجىء الجرسون فقال له : اقفل الباب وتعال .

واقترب الجرسون ليقول له القاضى : بتسمع أم كلثوم ياواد ..

- ايوه ياسعادة البيه ..

- سمعت ام كلثوم وهى تغنى وتقول :

الورد مال

على الخد قال

ما احلى الوصال

يابلد كوسه !

روح هات لى فنجان زفت سادة !

هذا الجرسون يعمل مخبرا ولم يسكت . وما هى إلا أيام حتى نقل القاضى إلى مستشفى الأمراض العقليه . . ولم نجد اسمه فى كشف الذين دخلوا المستشفى . . أى أنه مجهول مفقود – ألقى فى غياهب جب سيدنا يوسف . .

ولما حكيت هذه المأساة للرئيس السادات قال لى : لا تنشرها فى مجلة اكتوبر . . تأكد من كل المعلومات . . وتعال قل لى . .

وذهبت إلى المستشفى وقابلت القاضى وحصلت على بيانات . . عن أسرته وأولاده وظروف دخوله المستشفى . وعرفت من مدير المستشفى انه لا يعرف عن هذا القاضى أى شىء . . ولا كيف دخل . ولا حتى مرضه . . ولا من هؤلاء الذين يزورونه سرا .

وطلب منى الرئيس السادات أن اؤكد له : أنه لابد أن يخرج من المستشفى . فهذا ظلم لا يطيقه .

ولكن القاضى رفض وقال : أهون أن أكون ميتا عند أولادى طلبة الجامعة . . وأهون أن أموت من أن يتصور المتقاضون لحظة واحدة إننى مجنون . .

وأكدت له أن الرئيس مصر على إخراجه . وإنه سوف يعود قاضيا فى مكان ما . . وأن على القاضى أن يتصل بزوجته وأن يقول لها : أنه كان معتقلا فى الواحات . . وأنه لم يمت . .

وبعد مقاومة عنيفة وعناد شديد . . وافق القاضى . .

وكانت سعادة الأسرة والأقارب بعودة القاضى إلى عمله ، سعادة غامرة . .

واما السعادة الكبرى فكانت للرئيس السادات الذى رأى القاضى وزوجته وأولاده . .

(٦)

فى بعض المناسبات كنت أجد أن الرئيس السادات يهاجم (أخبار اليوم) أو دور (أخبار اليوم) السياسى فى فترة سابقة على الثورة . ولكن لم يعد هذا الدور موجودا . بل كان من الواضح أن الرئيس السادات يحب صحافة أخبار اليوم . . أو هذه المدرسة المثيرة . . وكان يقارن بين ما تنشره صحف أخبار اليوم والصحف الأخرى . . ويرى أن (الحرفنة) موجودة فى هذه المدرسة الصحفية . .

ولكن إذا جاء الحديث عن مصطفى أمين ، كان الضيق يظهر على وجهه . . وكان السبب أن مصطفى أمين يهاجم وينتقد . . وأحيانا يهاجم السادات فى جلساته وفى سطوره تلميحا . .

وكان السادات يتضايق . ولكنه لا يعلق على ذلك . ولاحظت أيضا أننا كنا نتناول الغداء فى جزيرة الفرسان : عثمان أحمد عثمان ومشهور أحمد مشهور وسيد مرعى وأنا . . وكان الرئيس يتفرج على صوانى الأرز والسمك . . ولكنه لا يشارك بالأكل فهو يتناول وجبة واحدة فى الساعة الثامنة مساء . . وجاء الكلام عن الصحف . ولا

أعـرف كـيف ورد اسـم مـصطفى أمين . فـاندهشت للمـعلومـات التى عند الرئيس السادات عما يقال فى سهرات القاهرة . وعن حكايات رواها مصطفى أمين . .

وسـألت مـوسى صـبـرى : تفتكر مين يامـوسى الذى ينقل كل هذه الحكايات للريس . .

- أنا عندى شك فى فلان أو فلان . . انت ايه رأيك ؟

- أنا مش عارف . لكن أنا عندى شك فى فلان بالذات . . فقد سمعته يقول للرئيس السادات إنه سمع من محمد عبد الوهاب أن الأمير فلان هو الذى نقل عن مصطفى أمين . . وقال ان السادات كان فى استطاعته ان يغير وان يبدل وان يفرج عن مـصطفى أمين فى أى وقت . . ولكنه لـم يفـعل . . وان هذا هو سـر غـضب مصطفى أمين على أنور السادات . .

- الغـريبـة أننى قلت لمصطفى أمين إن السـادات لا يسـتطيع أن يغـيـر حكم المحكمـة . . انه يستطيع ان يفـرج عنه صـحـيـا فـقط . . ولكـن مـصطفى أمين كـان يهاجمنى أيضا وبمنتهى العنف . . رغم أننى حاولت كثيرا أن أقوم بتحسين صورة مصطفى أمين عند السادات . .

وسـألت مصطفى أمين وقلت : لعلك تلاحظ أننى كـتبت مقـالا هاجـمت فيـه الذين يفسـدون ما بينك وبين الرئيس السـادات . . ولكن مـاهو السبب الحـقيـقى يامصطفى بيه . .

- اسأل موسى صبرى

- يعنى ايه .

- يعنى موسى هو السبب . .

- لا يامصطفى بيه . . ده مش صحيح . وقد سمعت موسى صبرى يتحدث للرئيس عن عذابك فى السجن وعن امتنانك لموقف الرئيس . ، وأشار إلى ما قلته أنت فى مجلة (الشبكة) وفى صحيفة (الصياد) وفى أحاديثك الإذاعية . . وخاصة الإذاعـة البـريطانيـة . . كلها إشـادة بالدور الثورى للرئيس السـادات . . وقد ظهـرت البسـمة على وجـه الرئيس السـادات . . وقـال عنك : إنك رجل وطنى . . هذا مـا سمعته يامصطفى بيـه . . وبالأمس كنت أزور مصطفى شـردى فحكى لى حكاية قيلت أمام فؤاد باشا سراج الدين . .

- قال لى عليها مصطفى شردى . . لكن أنا سمعت حكاية ثانية . . هذه الحكاية قالها سيد مرعى فى بيت السادات وانت كنت موجودا . .

- حكاية الأمير السعودى ؟ .

- أيوه . . وانا أشكرك على موقفك . .

- يامصطفى بيه . . لا تشكرنى فأنت تعرف أننا نحبك جميعا . . ومعجبون بك . .

- انت قلتها لعلى امين . . وعلى أمين قالها لى بالكامل . .

- طيب ايه رأيك إن موسى صبرى كان موجودا . . هل بلغك ما قاله . .

- لا . . لا أعرف أنه كان موجودا . .

- كان موجودا . . وفى الليل دعانا الأمير السعودى إلى العشاء وفوجئت بأنه لم يوجه الدعوة إلى موسى صبرى . .

- أيوه عارف . .

- هل بلغك ما قاله سيد مرعى ؟

- نعم

- ما رأيك ؟

- انا شكرته على كل الذى قال . .

- فالسادات لم يقل شيئا وانما سمع حكايات وروايات ونكت وكلها كانت حفلة تكريم لك . .

وكان فى نيتى أن أجمع بين الرئيس السادات ومصطفى أمين . . ومصطفى فى حاجة إلى هذا اللقاء . ولكن وجدت أن السادات ليس مستعدا . . ولما لمحت لمصطفى أمين بأننى من الممكن ان أجمع بينهما وجدته متهيأ لهذا الموقف . . وفى نفس الوقت لايعرف ما الذى سوف يقوله . . فقد قال الكثير واشيع عنه الأكثر . . وإذا كان هو سىء الظن بالناس ، فالسادات أسوأ ظنا منه وبه ايضا .

وبعد ذلك بسنوات طويلة عندما اقترحت على الرئيس حسنى مبارك أن يقابل مصطفى أمين . . لعل هذا اللقاء أن يؤدى إلى تخفيف التوتر النفسى عند مصطفى أمين . . ووافق الرئيس حسنى مبارك على ذلك . . وقال لى : انا ناوى اكلمه بصراحه عن هذا الذى يكتبه والهجوم المستمر على كل شىء فى مصر . .

وقبل ان يذهب مصطفى أمين للقاء الرئيس مبارك قلت له : يامصطفى بيه الآن

تقدر تقول للرئيس مباشرة عن وجهة نظرك فى أى شىء فهو رجل منطقى ومتزن جدا وسوف يسمع . .

وتم اللقاء . وقال لى الرئيس مبارك إنه وجه إلى مصطفى أمين نقدا هادئا عندما قال له : ياعم مصطفى انت مفيش حاجة عاجباك فى البلد دى . . ولا حاجة وهل كانت مصر احسن حالا قبل الثورة . . فيه ناس بتعمل من أجلك ومن اجل مصر كلها . . المطلوب منك شىء من الموضوعية والعقل ياعم مصطفى وانت رجل كبير . . الخ

ولم يظهر أى أثر لهذه المقابلة الهامة فى كل ما كتبه مصطفى أمين . . وقد لاحظ الرئيس مبارك ذلك . .

ولم يسترح مصطفى أمين إلى هذه المقابلة الهامة . .

ولو كان مصطفى أمين قابل السادات ما قال له السادات أى شىء . فأنا أعرف رأى السادات : وهو ان مصطفى أمين قد تم تشكيله وتصنيفه من سنوات طويله قبل الثورة وأثناءها وفى السجن . . والأمل ضعيف جدا فى تعديل مساره . . انتهى . . ويجب أن ننشغل بمن هم أصغر سنا ولهم مستقبل . . انتهى دور مصطفى خلاص . . وكذلك دور غيره . . وهو وغيره - وانت عارف أنا قصدى مين - قد انتهت أعمارهم الافتراضية . . وهم الذين يزورون فى شهادة ميلادهم ليبقوا صغارا . . ولكننا نعرف أعمارهم ودورهم . انتهوا . . فلا نشغل بالنا بهم . . هه . . وقابلت مين امبارح يا أنيس ؟ !

أى يجب أن ننتقل إلى أى موضوع آخر . .

وسألت الرئيس : ياسيادة الرئيس نحن نحب مصطفى أمين . . واتمنى أنا وغيرى أن تكون صورته واضحة عندك . . فما رأيك لو اجريت أنا حديثا معه . . وطلبت منه بشكل غير مباشر أن ينفى أو يؤكد ما قال . .

وغضب الرئيس السادات وقال : ايه ده . . ما يقول ياأخى . . هوه ولا غيره . . وانا يهمنى ده قال ولا ده عاد . . احنا عندنا قضايا كبرى . . هى التى يجب أن ننشغل بها . . قل لى . . هوه طلب منك هذا . .

- أبدا . . وإنما أنا اتطوع بذلك ياريس . .

- طيب ياأخى ماتريح دماغك . . وهو مصطفى جرى له ايه . . إنه بيكتب على كيفه وهو معزز مكرم فى داره وبين تلامذته . . فيه حاجة أكثر من كده . . ويسافر

إلى الخارج ويقعد زى ماهو عاوز ويرجع . . لا يتعرض له أحد . . ولن يتعرض له أحد . . ولماذا هو قلقان . . ولماذا أنت قلقان عليه . . إيه السبب ؟ هوه عاوز يطلع مجلة جديدة ؟

- لا . .

- زعلان إن مجلة اكتوبر لم تخرج من (اخبار اليوم) ؟

- لا . . إنها نكتة ياريس وضحكنا لها كثيرا وطويلا . .

- امال جرى له ايه ؟

- ولا حاجة . .

- عاوز يقابلنى أهلا وسهلا . . مش عاوز أهلا وسهلا . . مش فاهم فيه ايه ؟ .

- مفيش حاجه ياريس . .

- مش هوه اللى قال لموسى صبرى إنه لم يطلب مقابلتى . !

- أنا لم أسمع ذلك ياريس . .

- لا . . قال لموسى . . واللى انت ما تعرفوش بقى . . هوه طلب مقابلتى عن طريق امير سعودى وأنا اللى قلت مش دلوقت . .

- انا لا أعرف ذلك ياريس

- أديك عرفت . . ريح دماغك ودماغى ياأنيس !! .

- . . . .

أفكار لكتاب لم يتم!



(١)

لم أكن أتصور أن الإنسان ضعيف إلى هذه الدرجة .. إنه ضعيف .. نعم .. إن شكة دبوس تجعله يقول : آه .. أو مسمار فى جزمته ..

على بن أبى طالب قال : مسكين ابن آدم .. تؤلمه بقة وتنتنه عرقة وتقتله شرقة ..

قال الله - تعالى - : « خُلِقَ الإِنسانُ ضَعِيفًا » .

ولكن هذا الكائن الضعيف هو أقدر مخلوقات الله على الفهم والابتكار والتغلب على كل المشاكل .. مشاكل الأرض والماء والهواء والمحطات والجبال والعواصف والحيوانات المفترسة والجراثيم والبكتريا ولذلك عاش وتقدم .. وانتقل من الأرض إلى الكواكب الأخرى .. ورغم هذه القوة ، فإن ميكروبا أو فيروسا يستطيع أن يجعله يقعد فلايقوم ، ويصرخ ويموت .. ولكن يقاوم ..

غريب ابن آدم هذا؟ كنا جالسين نناقش قضايا رفيعة المستوى عندما لمحت حذاء صديقى وقلت له : ما هذا ؟

قال : أعجبك ؟

- حذاؤك؟!

- نعم . .

قلت : لاهو أسود ولاهو بنى ولا هو أحمر . . ولاهو عريض ولاهو مدبب . . يمكنك أن تلبس فى القدم اليسرى وفى اليمنى . . إنه يناسب واحدًا مثلى لايفكر فيما يلبس وفيما يأكل ها . . ها . .

وظننت أننى قلت شيئا يبعث على الضحك . . ولما حاولت استئناف المناقشة بيننا . . وجدت حذاءه قد سد علينا الطريق . . ظل يكبر ويكبر حتى صار عاليا عازلا يمنع عنا الصوت والصورة . .

لقد غضب لأننى شتمت جزمته . . أو حاولت . . أو حاولت أن أخرج عن الخط عن النص الذى ظللنا نمشى عليه ونتشعبط فيه دون أن نقع .

ولكن يبدو أن الجزمة أقوى من أى عقل ومن أى منطق . .

ولم أعرف إن كان الكلام عن الجزمة هو الكلام عن صاحب الجزمة . . عن ذوقه الحذائى . . وإنه يعنى لو بدت جزمته حذاء أو كوبا أو برطوشة . . إيه يعنى ؟

ولاحاجة بالنسبة لى . . ولكن من وجهة نظره هو والكلام قد انحرف عن مساره . . وجاء انحرافه حادا شائكا موجعا أيضا !

وبدأت أفكر إن كانت الجزمة والكلام عنها شيئا تافها . . إن التاريخ قد ذكر الجزمة كثيرًا . . مع احترام أكثر ونظرة أعمق !

(٢)

كنا نجلس فى القناطر الخيرية . . وكان الرئيس السادات يتحدث عن السلام وصعوباته . . وكيف أنه فهم . . بينما غيره لم يفهم . . ثم جاءت كلمة « جزمة » وصفا لأفكار الآخرين .

ولما نشرته صحف إسرائيل والصحف العربية . . ورأى فى ذلك الوقت . . أن ناحم بيجين قد تورط . . فهو لا يريد السلام بهذه السرعة . . ولكنه لايستطيع أن تراجع .

وقال لى السادات : لو كنت فى مكان بيجين وطلب منى السادات أن يزور سرائيل لقلت له : لا . . أبدا . . الزعماء العرب كذابون ولا وعود ولا عهود لهم . . بذلك تتأجل القضية مائة سنة أخرى . . ولكنى لما عرضت عليه زيارة القدس كان يتوقع أننى لا أستطيع ولن أستطيع ولذلك بادر بسرعة ووافق على الزيارة كانت المفاجأة الكبرى له أننى وافقت . . هذه هى غلطة عمره !

ثم سكت والتفت بكل جسمه قائلا : يا أنيس . .

- نعم يا ريس . .

- أنت لم تلاحظ هذه الجزمة الجديدة ؟ .

ووقف الرئيس ليرينى جزمته الجديدة . . فقلت ـ ولم أكن قد رأيتها : أنا ما قدرتش أرفع عينى عنها ياريس . . جميلة . . مبروك . .

- يعنى عجبتك . .

- جدا ياريس . .

وكانت السعادة على وجهه واضحة جدا . . وجلس . . ثم قال : احنا كنا بنقول إيه يا أنيس ؟!

(٣)

انعقد مجلس السوفييت الأعلى فى انتظار عالم الصواريخ الكبير سولوفيتش . . وأعد الوزراء والقادة أوراقهم . . واستعد العلماء بالخرائط انتظارا للعالم الكبير . . وبدأ القلق على وجوه الجميع . . فهم يعرفون أن هذا العالم كثير السرحان . . وأنه من الممكن أن يكون قد ركب الطائرة متجها إلى لننجراد بدلا من موسكو . . أو يكون قد ذهب مع حفيده إلى المدرسة دون أن يتنبه إلى هذا الاجتماع الخطير قبل الهجوم النازى على مدينة ستالنجراد . .

ولذلك طلب الرئيس ستالين من أحد مساعديه أن يبحث عن عالم الصواريخ فى كل مكان . . وحاول ستالين أن يخفف جو القلق فقال : حتى لايضيع وقتنا فى انتظاره عندى اقتراح وهو أن يحاول كل واحد منا « عددهم ٣٢ » أن يخمن أين يوجد العالم الكبير الآن . . وأنا شخصيا سوف أكون البادئ : إنه فى دورة المياه لايعرف كيف يفتح الحنفية . . وبعد أن فتحها فقد نسى أن الكيلوت لايلبس فى الرأس . . ولايزال حائرا يبحث عن المكان الأصلى للكيلوت . . هاها . . هاها .

وقال ثان : أعتقد أنه مايزال نائما . .

قال ثالث : إنه فى المعمل فقد مررت عليه ليلا فوجدت المعمل مضاء حتى ساعة متأخرة من الليل .

وقال رابع : إنه يلاعب أحفاده . .

عندما ظهر العالم الكبير . . ونهض الحاضرون لتحيته وقبل أن يسألوه قال هو : كانت عندى مشكلة صعبة . . ولكن وجدت لها حلا . . فلم أجد وسيلة لإخراج المسمار من حذائى . . فاخرجته بأسنانى . . ولما نزف الدم من فمى لم أجد مادة مطهرة ذهبت إلى المستشفى .

وضحك الحاضرون . .

(٤)

كان الكاتب الإنجليزى هـ .جـ . ولز يعمل فى مكان تحت الأرض . . وكان يرى من النافذة أحذية الناس . . الأحذية فقط . . وقد تساءل مرة : ألا يمكن معرفة الناس وطبقاتهم من هذه الأحذية ؟

وأجاب : يمكن . .

والأحذية الغليظة والأحذية اللامعة . . والمدببة . . والمربعة . . وعالية الكعب . . كلها تدل على القدرة المالية عند الناس . . ولو أن طاعونا أصاب الأغنام فى استراليا لأصبح الجلد نادرا . . فيرتفع سعر الأحذية فى بريطانيا . . ولو اخترع الأطباء دواء لمقاومة الطاعون لتوفر الجلد وانخفض سعر الأحذية . . ولو ظل الانخفاض مستمرا لتعطل كثير من الناس عن العمل .

ونظر هـ .جـ . ولز إلى حذائه وهو يضحك : لو اشتريت حذاء جديدًا لنقص

عدد الأحذية المعروضة واحدا ، مما يرفع سعرها نسبيا . . ولذلك وحرصا على ثبات السعر . . فلن اشترى حذاء جديدا ونصح القراء أن يفعلوا مثله !

(٥)

فى غرفة الأستاذ عباس العقاد انتظمت الأحذية عشرًا أو عشرين . . وكلها طويلة واسعة . . وكلها ذات رباط . . وهى أمام سريره . . فعندما يمد ساقه من سريره المنخفض فإنه يستطيع ودون أن ينظر إلى قدميه أن يضعها فى أى حذاء . . ودون أن ينظر إلى الحذاء فإنه يربطه . . وينهض خارجا إلى الشارع يمشى كأنه يمشى حافيا . .

وفى بيت الأديب الأمريكى همنجواى فى مدينة هافانا عاصمة كوبا وجدت على مكتبه أقلاما من الرصاص بالعشرات بل بالعشرينات وعلى الأرض ما يعادلها من الأحذية الواسعة أيضا . . وعرفت أن همنجواى مصاب بالأرق ولذلك كان يتمشى ليلا . . ولاشىء يضايقه إلا شعوره بأن الحذاء ضيق . . أو به خيط يخربشه أثناء السير . . ولذلك كان يكلف أحد الخدم بأن يحمل عددا من الأحذية ويمشى وراءه ليغيرها أثناء المشى . .

وله عبارة مشهورة : إن مسمارا فى حذائى يوجعنى فى عقلى !

(٦)

من هذا العبقرى الذى اخترع كعب الجزمة ؟

لولا الكعب العالى ما ارتفع قوام المرأة . . ولما انحنت إلى الأمام ثم اعتدلت وتراجعت ليبرز نهدها . .

ثم إن هناك أحذية لها كعوب تجعل جسم المرأة يترجرج : نهداها وردفاها . . والسبب هو العبقرى الذى اخترع الكعب . .

وعلى الرغم من أن الكعب يحطم عظام المرأة ويوجع عمودها الفقرى ، فإنها وهى طفلة تحلم باليوم الذى يكون لها كعب عال وقلم شفايف . . فالكعب حلم كل فتاة صغيرة وأكبر دليل على أنها صارت آنسة . . أنثى . . تثير وتغرى . .

فكر ستيان ديور مصمم الأزياء الفرنسى قال : تمنيت لو كنت أول من اخترع الكعب العالى . .

وقال خليفته إيف سان لوران : بل لو كنت أول من اخترع البلوجينز وهو أعظم ما اخترع الإنسان .

ومخترع البلوجينز رجل أمريكي نمساوي الأصل اسمه ليفي اشتراوس . .

(٧)

في الصين كانوا يرون أن جمال المرأة في قدمها الصغيرة . . ولذلك وضعوا قوالب الحديد في أقدام المرأة حتى لا يكبر . .

وإذا كانت التقاليد الصينية القديمة قد وضعت الحديد في أقدام النساء فإن الشيوعية قد وضعت الحديد في رؤوس الرجال . . وكلها قوالب توقف النمو وتسوي بين الناس . . ففي ظل النظم الشيوعية ، مطلوب أن يكون الناس قوالب . . العقول جزما من حديد . . ويكون الإنسان استنساخا للإنسان « الجزمي » المنضبط المبرمج . .

ولذلك لما انحلت الشيوعية . . خلع الناس الحديد من فوق وتحت . . وهم الآن في روسيا يمشون حفاة الفكر عراة الصدر والساقين . . والنهدين . . لقد أصبحت المرأة الروسية تتعرى من كل شيء في أي مكان في أي وقت . . ومقابل أي مبلغ من المال . . لقد حطم الروس كل القيود الحديدية والحريرية . . لقد عادوا بشرًا . . وليسوا أقداما ورؤوسا في أحذية من حديد !

(٨)

كانت الفلسفة قبل سقراط في السماء ، فانزلها سقراط إلى الأرض حوارًا بين تلامذته . . وكلاما بالعقل والمنطق .

وكانت فلسفة هيجل فيلسوف المثالية تمشي على رأسها . . فجاء كارل ماركس وجعلها تمشي على قدميها . . وجعل للقدمين جزما من حديد . . هذه الجزم الحديدية هي الديالكتيك . . أي المنطق الحديدي الذي لايخرج عنه الكون . .

وقد قال الفيلسوف الوجودي الدنماركي كيركجور وهو يسخر من فلسفة هيجل المثالية وماركس المادية وساخرا من أن التاريخ يمشي من حالة إلى ضدها . . من أبيض إلى أسود . . ثم أسود وأبيض معا . . من ثراء فاحش إلى فقر مدقع ثم إلى حالة وسط . . فقال كير كجور : إذا وضعت جزمتي إلى جوار قدمي . . فالجزمة

وحدها هى الوضع العادى وقدمى هى الوضع المضاد لها . . وقدمى فى الجزمة هى الجمع بين الضدين !

(٩)

من الصور الأليمة الموجعة للقلب تلك التى نشرتها إسرائيل لهزيمة ١٩٦٧ . . فقد نشرت فى كل صحف الدنيا سيناء وقد تغطت رمالها بالجزم . . لقد خلع جنودنا المنسحبون جزمهم أمام قوات العدو . . صورة أليمة لايمكن أن ننساها . . أين ذهب أصحاب الجزم . . أسرى وقتلى . . ولكن هؤلاء الحفاة كانوا يدافعون عن أصحاب الأحذية الأنيقة فى مصر . . هؤلاء الذين لايملكون كانوا يدافعون عن الذين يملكون . .

إن هزيمة سنة ١٩٦٧ أبشع إهانة لمصر : حكومة وشعبا وجيشا . . وسوف تبقى كذلك . .

(١٠)

قرر أحد فلاسفة الإغريق أن يذهب سرا وأن يلقى بنفسه فى فوهة بركان أثينا . . ذهب . . وصعد الجبل . . وقدماه تحترقان . . وقال الناس إن الفيلسوف لم يتحمل الألم . . ولذلك اختفى فى السحب السوداء التى يطلقها البركان . . ثم ذهب إلى مكان بعيد . . أى أنه عدل عن هذا القرار الانتحارى . .

وبينما الناس واقفون ينتظرون عودة الفيلسوف فوجئوا بأن البركان قد اشتعل . . وأن الفيلسوف الذى ألقى بنفسه فى فوهة البركان قد خلع الهواء المندفع حذاءه . . وألقى به فوق رؤوس الناس الذين تأكدوا من أن الفيلسوف كان جادا فى انتحاره احتقارا لهذه الدنيا . . أما احتقاره للناس فقد تكفل حذاؤه بالتعبير عن ذلك !

(١١)

فى سنة ١٩٥٥ ذهبنا إلى القدس وكانت القدس العربية تابعة للأردن ، وبعد لقاء سياسى فى سينما الحمراء ذهبنا لأداء فريضة الجمعة فى المسجد الأقصى . . وكان الخطيب هو الشيخ حسن الباقورى وبعد الخطبة والصلاة ، خرجت أبحث عن حذائى بين مئات الأحذية والشباشب . . فلم أجد حذائى . . وكان لابد أن أمشى حافيا على

أرض قد بللها المطر إلى فندق امباسدور . . وكان يرافقنى فى الطريق ضاحكا طول الوقت الأستاذ قدرى طوقان صاحب مدارس النجاح فى نابلس والذى كان وزيرا لخارجية الأردن . . وأخوه حسن طوقان صاحب صابون « نابلسى حسن » .

ولما علم الأستاذ الباقورى بما حدث نظم هذه الأبيات .

تقول ـ رعاك الله ـ إنك شفته
يماشى وفود العرب فى القدس حافيا
« أنيس » فتى مصر وزينة وفدها
إلى القدس يمشى فى ربى القدس حافيا
وليس بصوفى وليس بزاهد
ولا كان فى الوادى المقدس ساعيا
ولكن مأفونا أراد دعابة
فغال حذاء متقن الصنع غاليا

(١٢)

راقصة الباليه الأمريكية ايزادور دنكان سحرت أمريكا وأوروبا . . وأوروبا الشرقية أكثر . . فقد كانت ترقص الباليه بصورة متطورة . . وقد أعجب بها عشاق الباليه . . لدرجة أنها عندما كانت تفرغ من الرقص فإنهم يتزاحمون على حذائها . . ثم يملأون حذائها بالنبيذ أو الفودكا ويشربون . .

وقد أطلق علماء النفس على هذا السلوك اسم « باليتومانيا » أى جنون الباليه !

(١٣)

أشهر جزمة فى التاريخ هى جزمة سندريلا . .

فالأمير الذى أحب فتاة صغيرة معذبة من أخواتها . . قد تعلق بها . . وهربت قبل أن تدق الساعة منتصف الليل . . ولكن تركت وراءها فردة من حذائها . . فقرر الأمير أن يهتدى إليها . . فأتى بكل الفتيات وطلب منهن أن يرتدين حذاء سندريلا فكانت الأقدام أكبر وأصغر . . فلما جاءت سندريلا نفسها دخلت قدمها تماما . . فعرف الأمير أنها الفتاة الجميلة التى أحبها . . فاتخذها زوجة له . . بينما

أخواتها غير الشقيقات قد عدن باكيات يندبن حظهن ويحقدن على المسكينة التى صارت أميرة وسوف تكون ملكة . .

(١٤)

والناس يتفاءلون فيضعون على مداخل بيوتهم « حدوة » الحصان جزمة الحصان بشرط أن يكون الجانب المفتوح منها إلى أعلى .

ويقال فى الأساطير إن الشيطان ذى الساق الواحدة جاء إلى القديس دنستان وكان يعمل حدادا فطلب إليه « حدوة » . . وأدرك القديس أن هذا الواقف أمامه هو الشيطان فما كان منه إلا أن دق مسمارا ملتهبا فى حدوة الشيطان القديمة فراح يصرخ . . فاشترط عليه إن هو نزع المسمار من الحدوة ألا يدخل بيتا قد وضع حدوة حصان على مدخله !

(١٥)

وعند الإغريق أن البطل « أخيل » عندما غمسته أمه فى النهر المقدس صارت كل المناطق التى لمسها الماء « منيعة » لاتنفذ منها السهام . .

ولكن كعب أخيل هو المكان الذى لم يلمسه الماء لأن أمه قد أمسكته من كعبه . . ولما عرف أعداؤه ذلك ، صوبوا سهامهم إلى أضعف مكان من جسمه ، كعب قدمه . .

ولذلك فكعب « أخيل » هو المكان الضعيف فى أى إنسان . . والمثل يقول : إن كنت أخيل فلا تخلع جزمتك !

(١٦)

فى ذلك اليوم الحزين من تاريخ مصر ـ يوم اغتيال الرئيس السادات ـ اغتياله يوم عيده . . وعيد مصر . . وعيد القوات المسلحة فى هذا اليوم اغتاله أحد ضباط القوات المسلحة . . اغتاله فى ثوب الزفاف . .

وكان الاتفاق بينى وبين الرئيس أن نلتقى فى بيته فى « ميت أبو الكوم » بعد العرض العسكرى لنذهب إلى « وادى الراحة » . . وعندما كنت جالسا لأكتب السطور الأخيرة من مقال فى مجلة أكتوبر يوم ٦ أكتوبر سنة ١٩٨١ ، رأيت شيئا

غريبا فى التليفزيون . . لم أفهم . . أخرجت الأرقام السرية من حقيبتى واتصلت بكل سيارات الرئيس السادات . . وبالبيت . . فسمعت كلاما غامضا غاضبا . . حزينا أن مجرما أطلق الرصاص على الرئيس فأصابه فى كتفه . . وأنه نقل إلى مستشفى القوات المسلحة . .

وقبل أن أغادر مكتبى أصدرت أمرا بإخلاء مجلة أكتوبر من الإعلانات ومن كل الموضوعات الأخرى وأننى سوف اكتب المجلة من الغلاف إلى الغلاف . . وذهبت إلى المستشفى وهناك وجدت نائب الرئيس حسنى مبارك بردائه العسكرى وقد ربط يده . . ووجدت وزير الداخلية النبوى إسماعيل . . وممدوح سالم رئيس الوزراء يبكى . . والدكتورة زينب السبكى تبكى . . والسيدة جيهان السادات متماسكة تماما . . سألت نائب الرئيس فقال : ربنا يستر . . سألت النبوى إسماعيل قال : إن شاء الله خير . . قابلت د . مصطفى المنيلاوى فقال لى إن الرئيس قد نقل إلى المستشفى ميتا ، وهذه العبارة قد تناقلتها جميع وكالات الأنباء فى الدنيا . .

وذهبت لأرى الرئيس السادات واداعبه وأقول له أى كلام . . ولما ذهبت توقف الكلام والعقل . . فلم أكن أتصور أن تنتهى العظمة والأبهة السياسية . . والدهاء والبساطة . . وأن ينهزم الذى نصرنا ، وأن يموت الذى أحيى الأمل فى كل قلب . . والذى حقق السلام قد مات بالحديد والنار .

ونزلت من المستشفى ذاهبا إلى مكتبى أكتب كل ما أعرفه عن الرئيس والشجاعة والدهاء والجرأة والنصر والسلام والقدر . .

عندما وجدت إلى جوارى جنديا يهبط سلالم المستشفى وفى يده حذاء الرئيس السادات !

(١٧)

قلت لأستاذنا د . طه حسين إننا كنا نقلده ونحن طلبه . . واستوضحنى .

فقلت : كنا نقلد أسلوبك فى الكتابة يا أستاذ . .

فقال : ماذا قلت يا سيدى . .

قلت : إننى كنت أقلد الصوت والأسلوب . . دعابة يا أستاذ .

فقال : بالله . . ألا فعلت الآن . .

وقلت محاولا تقليد صوته أولا . . ثم أسلوبه ثانيا : إذا كنت راكبا حمارًا ، فأنت راكب والحمار مركوب . . ولما كان المركوب هو يلبس فى القدم ، ولما كان الحمار لا نلبسه فى القدم ، فلا أنت راكب ولا الحمار مركوب !

وضحك طه حسين كثيرا . . وطلب منى أن أعيدها . . فأعدتها . .

فقال برقة وأدب ولطف وأبوة : ولكنك يا سيدى لم تسمع ما قاله الشاعر الفرنسى الرومانسي بول جيرالدى عندما أهدى حبيبته فى الكريسماس حذاء مليئا بالفل . . قال :

الحظ حذائى
والعطر كلماتى . .
لقد تشرف الحذاء بعطرك
وتشرفت أنا بحذائك . .
آه لو طال عمرى لحظة يا حبيبتى
لجعلت الفل تاجا لشعرك الذهبى
قولى لى يا حبيبتى
ما الذى أصنعه لحذائك
لا تقولى : فأنا لا أقوى على
عطرك . . فكيف أقوى
على صوتك الذى هو عطر
وصوتك الذى هو عطر
يا حبيبتى !

(١٨)

وإذا كان من تقاليدنا الشعبية أن نقول للعريس : فى ليلة الدخلة يجب أن يذبح القطة . .

فبعض الناس يذبحون القطة فعلا ، والغرض هو تخويف العروس من قوة العريس وبطشه . . وتظل العروس كذلك طول حياتها . .

كان لى صديق يونانى قال لى : إنه حاول أن يمسك بالقطة فلم يستطع ، فترك القطة وحاول أن يضرب العروس بالجزمة دون سبب ، فانهالت عليه العروس ضربا وكانت جزمتها مدببة ، ولذلك قرر أبوه أن يقضى شهر العسل وحده فى باريس !

وفى تقاليد اسكتلندا أن العريس فى ليلة الزفاف يخلع جزمته ويجعلها تلمس رأس العروس ، دليلا على أنه يستطيع أن يضرب وأن يبهدل العروس . . وأنه خير لها أن تطيعه ، وكلها رموز . .

وعند اليهود أن الأرملة يجب أن تتزوج أخا زوجها . . فإذا لم يفعل فمن حق الأرملة أن تضربه بالجزمة !

(١٩)

والعالم كله لن ينسى ماذا حدث فى الأمم المتحدة عندما وجدوا أقوى رجل فى روسيا خروشوف يخلع جزمته ويدق بها المنصة . . استنكارا واحتقارا . .

ولكن كان ذلك فضيحة للشعوب السوفييتية . . فلم يتصور العالم كله أن أقوى رجل فى الدنيا إنسان بدائى همجى إلى هذه الدرجة . .

وكانت هذه الجزمة سببا فى التآمر عليه وإسقاطه بعد ذلك . . صحيح أنه كان عاملا فلاحا بدائيا نظريا ، ولكنها كانت إهانة للشعوب السوفييتية التى ارتفعت بعلمها فسبقت أمريكا بسفنها إلى القمر والكواكب الأخرى ، وانحطت بجزمته إلى الحضيض !

(٢٠)

لم أنتبه وأنا طالب صغير أن حذائى ليس لائقا ، لم أنتبه . . فأنا أرتدى ما أجده . . ولا أطلب شيئا . . وقد أعجبنى حذاء أحد أخوتى الأكبر . . فأرتديته . . ولم أتبين أن الحذاء كبير وأنه هذا واضح لزملائى . . إلا أنا . . حتى قال أحد الزملاء : هل أنت ترتدى حذاء والدك وألا ايه ؟

وتضايقت جدا . . ولكن لم أجد وسيلة لتغيير الحذاء . . حتى كان يوم مباراة بين مدرستنا ومدرسة أخرى وكنت كابتن فريق الكرة . . وصوبت الكرة نحو الشبكة ، وسجلت هدفين فى وقت واحد : الكرة وجزمتى .

وضحك التلامذة وخرجت من الملاعب ولم أعد !

ويبدو أن إحساسى بأننى ارتديت أحذية أكبر وأوسع على الرغم منى هو الذى جعلنى اختار الأحذية الأوسع حتى لو كان شكلها قبيحا . . إن أحذيتى جميعا تشبه أحذية العقاد وهمنجواى وبابا نويل . . واسعة . . المهم أن تكون مريحة للقدمين . . وليست محندقة جميلة تسر الناظرين . . المهم أنا الذى لا أراها ، وليس الذين يرونها فلا تعجبهم !

(٢١)

قرأت فى كتاب الأديب الإيطالى : ايتالو كالفينى « حكايات شعبية » أن شابا قد وجد نفسه وحيدا فى هذه الدنيا : أبوه وأمه وأخوته وخالاته وعماته كلهم ماتوا . . فكره الموت . . وكره أن يموت . . فقرر أن يبحث عن مكان لاموت فيه ؟

وخرج إلى الغابة فوجد رجلا حطابا يقطع أوراق الشجر . . فسأله : أين أجد مكانا لاموت فيه .

فقال له الحطاب : هنا يمكن أن تعيش مائتى سنة . . إذا جلست تتفرج علىّ . . وتعيش ٣٠٠ سنة إذا قطعت معى أوراق أشجار الغابة .

فتركه الشاب وذهب إلى ساحل البحر فوجد صيادا ينقل ماء البحر فى كوب إلى إحدى البحيرات . . سأله : أين أجد مكان لا موت فيه ؟

فقال له الصياد : هنا إذا جلست تتفرج علىّ فسوف تعيش ٤٠٠ سنة وإذا عملت معى فسوف تعيش ٥٠٠ سنة . .

فتركه الشاب إلى رجل حداد فقال له الحداد : إذا جلست تتفرج على هذا الذى أصنعه سوف تعيش ٦٠٠ سنة ، وإذا عملت فسوف تعيش ٧٠٠ سنة . .

ولما اتجه الشاب بعيدا عنه قال له الحداد : اركب هذا الحصان يا ولدى ولاتنزل عنه فلن تموت . . أما إذا نزلت عنه دقيقة واحدة فسوف تموت . .

وركب الشاب حصانه وراح يتجول يمينا وشمالا . . حتى رأى عربة يجرها حمار هزيل . . وإلى جواره شيخ مريض يساعد الحمار على جر عربة تكدست فوقها الأحذية . . وتأثر الشاب لمنظر الرجل المريض . . فقال له الرجل : ساعدنى أيها الشاب فقد تعبت سنوات وأنا أجر هذه العربة .

ودون أن يفكر الشاب فيما قاله الحداد نزل من فوق الحصان ليساعد الرجل المريض فانتفض الرجل المريض واقفا وقال للشاب : الآن سوف اقبض روحك فأنا عزرائيل ملك الموت . . وهذه الأحذية قد أفنيتها فى البحث عنك فى كل مكان !

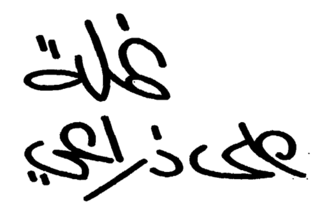
(٢٢)

اندهشت جدا عندما ذهبت إلى أمريكا لأول مرة فوجدت محلات بيع الأدوية عبارة عن محلات للأدوية وكل شىء آخر .

واندهشت أكثر عندما وجدت أجزاخانة تبيع الأحذية . . فاقترحت على المصريين العاملين فيها أن يسموها : احذاخانة !

كل شيء نسبي!

مشروع كتاب



لا اتضايق من الذى يقول : « أنا » من رأيى . . و « أنا » كنت أتوقع . . و «أنا» لا أصدق . .

فالحرص على كلمة « أنا » معناه أن هذا رأيه هو . . وأنه يختلف عن رأيى أو رأى الآخرين . .

وعلى ذلك فهناك أكثر من وجهه نظر . أو من نظرة للشىء الواحد . . أو الحادثة الواحدة . . وأنه طبيعى أن نختلف . .

ولكن الذى يضايقنا – عادة – هو تضخم «الأنا» . . أو تعاظم رأى الآخرين . . وآن هذا التضخم يصدم تضخمنا نحن . . تماما كما يصطدم رجل له كرش برجل له كرش آخر . . فنحن لا نلتفت كثيرا إلى أكراشنا ، ولكن لا نعجب بأكراش الآخرين . .

ويقال إن ملك أفغانستان عندما جاء إلى مصر واستعرض حرس الشرف فسأله الملك فؤاد ملك مصر فى ذلك الوقت : ما الذى أعجبك فى جيشنا ؟ أجاب ملك الأفغان ، غير مجامل للملك المصرى : أعجبتنى أكراش الضباط . .

ولم يكن ملك الافغان رشيقا ، ولا كان ملك مصر . . ولكنه قال نصف الحقيقة : أكراش الضباط ، ولم يتنبه إلى كرش الملك فؤاد ونسى كرشه هو أيضا !

ولكن هذا يؤكد «نسبية» النظرة . . فهو قد رأى أكراش الضباط ، ونسى كرشه ، ولم يتنبه إلى كرش الملك فؤاد . .

وفى الفلسفة الأغريقية أن الفيلسوف هراقليطس عندما نظر إلى النهر فوجد مياه النهر تتحرك . . النهر كأنه ثعبان يزحف . . ونحن نراه يتحرك . . فقال جملته المشهورة : أنك لا تنزل النهر مرتين . .

أى أن النهر الذى نزلت فيه أول مرة ، قد تغير بعد ذلك بثوان ، فأصبح نهرا آخر . .

وكل شئ يتحرك ويتغير ويتحور ويتبدل فلا شىء واحدا . وكذلك نظرتنا ووجهتنا . . ويوم ظهرت نظرية «النسبية» للعالم الكبير اينشتين ، زاد الشك عند كل الناس . . فأحد أسس نظرية النسبية أن كل شىء فى هذا الكون يجب تحديد موقعه أو حالته بالنسبة لشىء آخر . . فإذا قلت نحن نبعد عن الإسكندرية ٢٥٠ كيلو مترا فهذه هى المسافة بين المدينتين . . ولكن إذا ركبنا سيارة تتجه بسرعة ١٥٠ كيلو مترا فى الساعة ، بين القاهرة والإسكندرية ، فأن هذا المسافة تتناقص . . لأن السيارة تتحرك . . ولكن كم المسافة بين السيارة وبين القمر . . أو بينها وبين الشمس . . فالسيارة تتحرك والأرض التى تنطبق عليها السيارة تتحرك . .

والأرض تتحرك بالنسبة للشمس التى تتحرك هى الأخرى . . فكل شىء فى هذا الكون يتحرك . . ولذلك فإذا حسبنا حركة الكواكب والنجوك ، كانت نسبية . .

ولأضرب مثلا آخر . . نفرض أن نملة تمشى على ذراعى وأنا أمشى فوق ظهر سفينة . . والسفينة يدفعها ماء النهر والنهر يتحرك والأرض تتحرك . .

وهكذا . . فلابد عند حساب حركة النملة أن نحسب بقية الحركات . . فتقول : أن النملة تمشى بسرعة كذا بالنسبة لذراعى . . وأنا أمشى بسرعة كذا بالنسبة للسفينة . . والسفن بالنسبة للنهر . . والنهر بالنسبة للأرض والأرض بالنسبة للشمس .

وبعبارة أخرى كل الحركات تقريبية .. وكل النظرات تقريبية .. وكل وجهات النظر أيضا ..

والكوب الملىء إلى النصف يوضح هذا المعنى .. فالمتشائم يقول : الكوكب ناقص إلى النصف .. والمتفائل يقول : الكوب ممتلئ إلى النصف ..

والكوب واحد ..

ونحن عندما نتحدث عن الأشياء أو الأشخاص ، فنحن مختلفون فى الإحساس ومختلفون فى القدرة على التعبير .. ومختلفون فى دلالة الأشياء وعلاقاتها بالأشخاص وصلتنا نحن بكل ذلك ..

فإذا كان الذى تكتبه شعرا ، فالخلافات هائلة .. لاننا لا نحتكم إلى الحساب ، وإنما إلى المشاعر ، ونحن لا نستدعى العقل ، وإنما نحن نستسلم للوجدان ..

وعندما نصف شيئاً فى ألف سطر ، تختلف إذا كتبناه فى مائة سطر .. أو فى مائه كلمة ..

فهناك قدر من الخلاف والاختلاف . وهذا القدر مقبول .. ونحن نعرفه منذ البداية .

ولكن ليس الخلاف والاختلاف مطلقا . بمعنى أن الذى آراه أسود تراه أنت أبيض .. والذى أراه صغيرا تراه أنت كبيرا .. ولكن خلافنا فى الدرجة .. ثم لا تكون الدرجات شاهقة أو سخيفة ..

فإذا وقفنا أمام شجرة ، فنحن نعلم علم اليقين أنها شجرة .. لأننا نعرف معنى الشجرة ومكوناتها .. ولكن نختلف فى جمالها أو فى فائدتها – أى أننا نختلف من ناحية الذوق ومن ناحية المنفعة .

ونظرية «النسبية» التى أشاعت الشك وعدم اليقين ، هى من أكثر النظريات . فهى قد أكدت لنا تماما : أننا عندما نحسب حركة جسم ، يجب أن نجعل لهذه الحركة إطارا .. فنقول السيارة تنطلق بسرعة ٢٠٠ كيلو مترا فى الساعة .. وهذا صحيح . لأننا نحسب حركة السيارة بالنسبة لنقطة ثابتة على الأرض .. أى لابد

أن تكون هناك نقطة ثابتة فى البداية وفى النهاية . والنقطتان على الأرض .. ولكن إذا أردنا أن نخرج من أطار الأرض وقلنا ما هى السرعة بالنسبة لنقطة ثابتة على القمر - كان لابد من عوامل أخرى تدخلها فى الحساب ..

فنظرية النسبية ليست نسبية . وإنما هى نظرية مؤكده . تقول : كل شىء يجب أن يكون له إطار . والإطار ثابت . وبسبب هذا الثبات ، تستطيع أن تحسب الحركة ..

وكل واحد منا أيضا له إطار حركة .. إطار نظرة .. إطار فكر .. إطار ذوق .. وفى داخل هذا الإطار تتحرك أو نقول .. أو ننفعل أو نفكر . هذا الإطار هى الشخصية . ومن مقومات الشخصية : الفكر والذوق والمذهب والدين واللون والطيقة والجنس .

وبسبب كسبان كل هذه العناصر عند الناس ، كان التشابه فى الرأى أو فى الوسيلة أو فى الهدف .. ولذلك فالخلافات والاختلافات بيننا ليست شاسعة . وإنما هى خلافات مقبولة ، منذ البداية . ولذلك كان كل رأى تقريباً ..

رأيى ورأيك ..

فيما عدا البديهيات الرياضية أو النظريات العلمية أو القواعد السلوكية الدينية والأخلافية أو التقليدية ..

ولذلك أنت لا تطالبنى أن أتفق معك دائما ، أطالبك .

ولكنك أنت تتوقع منى أن أرى أوضح أو أعمق .. أو افتح أبوابا على الأقل أو أملأ نفسك بالأمل ..

وإذا لم تجد كل الذى توقعته منى ، لأننا مختلفان ، فإن هذا لا يغضبك . لماذا؟ لأن بيننا اتفاقا غير مكتوب : هو أننى جاد وأننى أحاول أن أكون مفيدا أو ممتعاً . فأنت جاد فيما تتوقعه ، وأنا جاد فيما أحاوله .. ومن هذا الخلاف بين الذى تتوقعه منى ، وبين الذى أقدر على الوفاء به ، يكون رضاؤك أو سخطك عن هذا الذى تقرأ ..

وهذا الخلاف بيننا «نسبى» .. وبين كل الناس أيضا لاننا جميعا لسنا

زجاجات أو أغطية زجاجات : متساوون فى الحجم والوزن والشكل . . ومتطابقون تماما .

ولكن يكفى أن أكون صادقا مخلصا وأننى أحاول أن أكون إيجابيا فى الفهم والتحليل والتذوق والتعبير عن كل ذلك . . وهذا هو القدر الوحيد الذى أتقدم به ، والذى يقنع به أى أحد . .

أما أين تذهب كلماتى ، فذلك شأن القارئ . . وأملى فى أن نذهب جميعا حيثما أردت وتمنيت وحرصت طوال عمرى . .

فإن رضيت تماما عن الذى قلت ، فلست أنا راضيا . لأنه لو اتسع وقتى لقراءة كل الذى كتبت لمزقته ، أملا فى أن أكتب أحسن وأعمق وأجمل . .

فكما أن رضاءك نسبى فرضائى عن نفسى مؤقت . . أى نسبى مع هذه اللحظة التى أكتب فيها !

وإذا كان هذا الذى قلت الآن مقبولا لديك ، وتنتظر منى ماذا أريد أن أقدم بعد ذلك فإننى بمنتهى الحزن أؤكد لك أن الباقى كثيرا جدا . .

أما حزنى فسببه أن الذى أريد أن أقوله كثير . . وأن الذى أريد أن أنقله صعب . . وأننى أحاول أن أجعله سهلا منطقيا مفهوما وجميلا أيضا . .

فماذا الذى أقوله عن الكون ؟

عن الناس ؟

عن العلاقات الإنسانية الاجتماعية والنفسية والاخلاقية . . عن الذوق والجمال . .

عن هذه الحياة . . وعن تلك الحياة بعد الموت . .

وعن الله – سبحانه وتعالى – الذى هو قبل وبعد وأثناء كل شئ . . منه البداية وإليه النهاية وعليه التوفيق فى كل ذلك . .

من يدرى ربما عدت لاقول كل الذى أعرف . .

وكل الذى أعرف ليس هو كل المعرفة . . وإنما هو فقط ما أراه من زاويتى . . من

نافذتى العقلية . . فأنا مثل واحد ينظر من وراء شيش . . نافذة خشبية ووراءها نافذة زجاجية وأنا وراء ذلك . . فاذا لم أجد الصورة واضحة فالسبب هو عينى . . ولا استطيع أن امسح الشيش والزجاج . . ولا أن أمحو الضباب خارج النافذة . .

ألا ترى أننى فى وضع صعب . .

ألا ترى أننى حسن النية . . محدود القدرة والقدر . .

ألا ترى أن الذى تراه وأراه قليل جدا . .

ولكن من هذا القليل أحاول أن أفهم الكثير . . تماما كما أحلل قطرة ماء من المحيط لأعرف طبيعة المحيط . . ماءه وشواطئه وكائناته النباتية والبحرية والسحاب والمطر وعناصر الماء والهواء والأشعة والجاذبية وأصل الأرض وأصل الكواكب والنجوم . .

كل ذلك من ثقب : هو عينى . . ووراء نافذة من الزجاج ونافذة من الخشب ومجالات الرؤية ضيقة والعمر قصير والعلم كثير . .

وليس هذا وعدا بأننى سوف أفعل . . وإنما أنا أحلم على مرأى ومسمع منك . . وكل الأحلام نبيلة . فهى لا تضر أحدا . . وإنما هى محاولة لتعويض عجزى بخيال يكمله . . محاولة لجعل عينى أقوى نظرا . . وذراعى أطول . . ومجال الرؤية أوسع وأعمق . .

ونحن – أنت وأنا وهو – على موعد مع القدر . .

والقدر هو أن يجىء واحد . . أو ألف واحد يقول لنا : ما هذا الذى نرى . . بالضبط ما هذا الذى أمامنا وحولنا . .

وربما كانت كلمة (بالضبط) هى الكلمة الوحيدة التى ليست دقيقة . . فنحن نعرف (بالتقريب) . . وبعد ذلك (بالتقريب جدا) . . وبعد ذلك (بالضبط تقريبا) . . وبعد ذلك (بالضبط جدا) . .

وأنت عندما تخطو خطوة واحدة من بيتك إلى الشارع فأنت قد اقتربت من الشجرة التى أمام بيتك واقتربت من مكتبك ثم اقتربت من مدينة نيويورك . .

اقتربت من نيويورك بنسبة واحد على ألف مليون مليون خطوة . . اقتربت أيضا من الشمس . . واقتربت أيضا من مركز المجرة التى نحن جزء منها . . ففى المجرة التى تقع المجموعة الشمسية عند طرفها الجنوبى . . فى هذه المجرة عشرة آلاف مليون شمس أخرى . .

فعلا اقتربت . . ولكن اقترابك خطوة . . هذه الخطوة تمثل جزءاً من مسافة طولها مليون مليون مليون مليون من مليون خطوة !

وكذلك أنا أحاول أن أضاعف هذه الخطوات . . ورغم أن الطريق طويل جدا كما ترى ، فإننى لا أتوقف ولا أنت . . ولا أنا وراء الوف من المفكرين . .

المهم أننى أتحرك . . أتقدم . . أرى قليلا من كثيرا وأحاول أن أجعلك تفرح مثلى بهذا القليل الذى هو انجاز عظيم ومصدر فخر وبهجة لنا جميعا . .

الا ترى أننى وأنك وأننا نبنى سعادتنا على القليل جدا الذى نجده . . بينما الكثير جدا جدا هو حلم هو أمل . . أملى . . أمل البشرية كلها . .

ولا عمل بغير أمل . . ولا أمل بغير أجنحة وأقدام وأذرع . . من الواقع أو من الخيال . .

واحد من أربعين رسالة

عزيزي «أنيس منصور»

مقالك «نموذج» يجب أن يوضع تحت أعين من يمارسون «النقد».. والنقد أحيانا أصعب من التأليف، لأن التأليف ذاتي يعتمد في الأغلب على ذات المؤلف وشخصيته ومواهبه.. أما النقد فهو ذاتي وموضوعي والموضوعية فيه أن الناقد الحق لا ينظر إلى المؤلف نفسه فقط، بل هو يحيط بالعالم الثقافي كله الذي يعيش فيه... ويجب أن يكون في رأسه وذاكرته نوع من «الأرشيف» يحوي الملف الكامل لأعمال المؤلف الذي يتناوله وغيره... وكذلك ملفات الكاتبين الذين يعيشون ويتحركون معه في نفس المحيط الزمني لبلده والبلاد الأخرى... هذا إلى الأهم وهو «التكوين الثقافي والفكري للناقد»... ولقد كان لك أيها العزيز «أنيس منصور» هذا التكوين ببدايتك بالفلسفة دراسة وتدريسا.. ومن هنا كان تعلقك بالعقاد... وإن كان العقاد قد غلب التفكير عنده على الأسلوب. أما أنت فقد امتزت بالأسلوب الرشيق...

ولأعد إلى مقالك الذي وصفتني فيه بجملة واحدة هي العنوان:
«توفيق الحكيم ينظر وراءه راضيا وأمامه يائسا»... وهذا صحيح وحسن. استطاعت نظرتك الثاقبة أن تكتشفه في الحال.. وربما استطعت أنا أيضا في جملة أن أوضح السبب وهو: «كانت البطولة عندنا في الماضي هي بطولة «القلم» أما بطولاتنا اليوم فهي بطولة «القدم»... وكانت «الكرة» في الماضي هي «الأفكار»... أما اليوم وغدا فهي في «الأجوال»!...

فلك مني الشكر والتهنئة بالجائزة العالية التي تستحقها عن جدارة...

١٨ يناير ١٩٨٤ — توفيق الحكيم

فهرس الكتاب

مؤلفات الكاتب الكبير

الأســتاذ

أنيـــس منصـــور

(أ) ترجمة ذاتية:

١ – فى صالون العقاد.. كانت لنا أيام.
٢ – عاشوا فى حياتى.
٣ – إلا قليلاً.
٤ – طلع البدر علينا.
٥ – البقية فى حياتى.
٦ – نحن أولاد الغجر.
٧ – من نفسى.
٨ – حتى أنت يا أنا.
٩ – أضواء وضوضاء.
١٠– كل شىء نسبى.
١١– لأول مرة.
١٢– شارع التنهدات.

(ب) دراسات سياسية:

١٣– الحائط والدموع.
١٤– وجع فى قلب إسرائيل.
١٥– الصابرا (الجيل الجديد فى إسرائيل).
١٦– عبد الناصر – المفترَى عليه والمفترِى علينا.
١٧– فى السياسة (٣ أجزاء).
١٨– الدين والديناميت.
١٩– لا حرب فى أكتوبر ولا سلام.
٢٠– السيدة الأولى.
٢١– التاريخ أنياب وأظافر.
٢٢– الخالدون مائة – أعظمهم محمد (ﷺ).
٢٣– على رقاب العباد.
٢٤– ديانات أخرى.
٢٥– وكانت الصحة هى الثمن.
٢٦– الغرباء.
٢٧– الخبز والقبلات.

(جـ) قصص:

٢٨– عزيزى فلان.
٢٩– هى وغيرها.
٣٠– بقايا كل شىء.
٣١– يا من كنت حبيبى.
٣٢– قلوب صغيرة.

(د) مسرحيات مترجمة:

** للأديب السويسرى فريد ريش ديرنمات:
٣٣– رومولوس العظيم.
٣٤– زيارة السيدة العجوز.
٣٥– زواج السيد مسيسبى.
٣٦– الشهاب.
٣٧– هى وعشاقها.
** للأديب السويسرى ماكس فريش:
٣٨– أمير الأراضى البور.
٣٩– مشعلو النيران.
** للأديب الفرنسى جان جيرودو:
٤٠– من أجل سواد عينيها.
** للأديب الأمريكى آرثر ميللر:
٤١– بعد السقوط.
** للأديب الأمريكى تنسى وليامز:
٤٢– فوق الكهف.
** للأديب الأمريكى يوجين أونيل:
٤٣– الإمبراطور جونس.
** للأديب الفرنسى يوجين ليونسكو:
٤٤– تعب كلها الحياة.
** للأديب الفرنسى أداموف:
٤٥– الباب والشباك.
** للأديب الأسبانى أرابال:
٤٦– ملح على جرح.

(هـ) دراسات نفسية:

٤٧– الحنان أقوى.
٤٨– من أول نظرة.
٤٩– طريق العذاب.
٥٠– ألوان من الحب.
٥١– شباب.. شباب.
٥٢– مذكرات شاب غاضب.
٥٣– مذكرات شابة غاضبة.
٥٤– جسمك لا يكذب.
٥٥– الذين هاجروا.
٥٦– غرباء فى كل عصر.
٥٧– أظافرها الطويلة.

٥٨– هموم هذا الزمان.
٥٩– زمن الهموم الكبيرة.
٦٠– الحب الذى بيننا.
٦١– عذاب كل يوم.
٦٢– كيمياء الفضيحة.
٦٣– كل معانى الحب.

(و) دراسات علمية:

٦٤– الذين هبطوا من السماء.
٦٥– الذين عادوا إلى السماء.
٦٦– القوى الخفية.
٦٧– أرواح وأشباح.
٦٨– لعنة الفراعنة.
٦٩– دقات الصحة هى الثمن.

(ز) نقد أدبى:

٧٠– يسقط الحائط الرابع.
٧١– وداعًا أيها الملل.
٧٢– كرسى على الشمال.
٧٣– ساعات بلا عقارب.
٧٤– مع الآخرين.
٧٥– شيء من الفكر.
٧٦– لو كنت أيوب.
٧٧– يعيش.. يعيش.
٧٨– الوجودية.
٧٩– طريق العذاب.
٨٠– وحدى.. مع الآخرين.
٨١– ما لا تعلمون.
٨٢– لحظات مسروقة.
٨٣– كتاب عن كتب.
٨٤– أنتم الناس أيها الشعراء.
٨٥– أيها الموت.. لحظة من فضلك.
٨٦– أوراق على شجر.
٨٧– فى تلك السنة.
٨٨– دراسات فى الأدب الأمريكى.
٨٩– دراسات فى الأدب الألمانى.
٩٠– دراسات فى الأدب الإيطالى.
٩١– فلاسفة وجوديون.
٩٢– فلاسفة العدم.

(ح) رحلات:

٩٣– حول العالم فى ٢٠٠ يوم.
٩٤– بلاد الله خلق الله.
٩٥– غريب فى بلاد غريبة.
٩٦– اليمن ذلك المجهول.
٩٧– أنت فى اليابان وبلاد أخرى.
٩٨– أطيب تحياتى من موسكو.
٩٩– أعجب الرحلات فى التاريخ.
١٠٠– ماذا يريد الشباب؟
١٠١– الرصاص لا يقتل العصافير.
١٠٢– من أول السطر.

(ط) مسرحيات كوميدية:

١٠٣– مدرسة الحب.
١٠٤– حلمك يا شيخ علام.
١٠٥– مين قتل مين.
١٠٦– جمعية كل واشكر.
١٠٧– الأحياء المجاورة.
١٠٨– سلطان زمانه.
١٠٩– العبقرى.
١١٠– كلام لك يا جارة.
١١١– فوق الركبة.
١١٢– هذه الصغيرة (وقصص أخرى).
١١٣– يوم بيوم.
١١٤– إنها الأشياء الصغيرة.
١١٥– إلا فاطمة.
١١٦– القلب أبدًا يدق.

(ى) المسلسلات التليفزيونية:

١١٧– حقنة بينج.
١١٨– اتنين.. اتنين.
١١٩– عريس فاطمة.
١٢٠– من الذى لا يحب فاطمة؟
١٢١– غاضبون وغاضبات.
١٢٢– هى وغيرها.
١٢٣– هى وعشاقها.
١٢٤– العبقرى.
١٢٥– القلب أبدًا يدق.
١٢٦– يعود الماضى يعود.

(ك) كتب (مقالات):

١٢٧– ثم ضاع الطريق.
١٢٨– النجوم تولد وتموت.
١٢٩– هناك أمل.
١٣٠– أحب وأكره.
١٣١– الحيوانات ألطف كثيرًا.
١٣٢– مصباح لكل إنسان.
١٣٣– أتمنى لك.

١٣٤- لعل الموت ينسانا.
١٣٥- اقرأ أى شيء.
١٣٦- ولكنى أتأمل.
١٣٧- حتى تعرف نفسك.
١٣٨- الحب والفلوس والموت.. وأنا.
١٣٩- نحن كذلك !!
١٤٠- اللهم إنى سائح.
١٤١- كائنات فوق.
١٤٢- تعال نفكر معًا.
١٤٣- آه لو رأيت !
١٤٤- النار على الحدود: لعبة كل العصور.
١٤٥- انتهى زمن الفرص الضائعة !
١٤٦- هناك فرق.
١٤٧- الرئيس قال لى.. وقلت أيضًا - الجزء الأول والثانى.
١٤٨- يا نور النبى.
١٤٩- وأنت ما رأيك.
١٥٠- حضارة الأوز والبقر.
١٥١- حلمنا الجميل.
١٥٢- ضاع الجيل ضاع.
١٥٣- قالوا (الجزء الأول والثانى).
١٥٤- وآخرتها.
١٥٥- من أول السطر.

(ل) الترجمات القصصية:

١٥٦- رواية (الجائزة) للكاتب الأمريكى أرفنج والاس.
١٥٧- (المثقفون) للأديبة الوجودية سيمون دبوفوار.
١٥٨- (لو كنت مكانى) للأديب السويسرى ماكس فريش.
١٥٩- (قصص مورافيا) للأديب الإيطالى ألبرتو مورافيا.
١٦٠- (الجلد) للأديب الإيطالى كورتسيو ملبارته.
١٦١- (الجيل الصاخب) للأديب الأمريكى جينز برج.

(م) الترجمات الفلسفية:

١٦٢- الفلسفة الوجودية الألمانية - لإميل تسلر.
١٦٣- الفلسفة الوجودية الفرنسية - لجان جاك رسو.
١٦٤- معنى العدم عند هيدجر وسارتر - لجانيت أردمان.
١٦٥- مسرح العبث الفرنسى - لاتيان ماريبو.
١٦٦- الفيلسوف الروسى برديائف - لفيكتور لوزتسيف.
١٦٧- من كيركجور إلى مارسيل - لأنطوان بابيف.
١٦٨- سيمون دبوفوار تلميذة رصينة - لفرنسواز روسلان.
١٦٩ - رسائلها إليه - لفرنسواز روسلان.
١٧٠- فاشلون لكن نبلاء - لجان مارى روار.
١٧١- ما الميتافيزيقا - لمارتن هيدجر.
١٧٢- الوجودية فلسفة إنسانية - لجان بول سارتر.
١٧٣- فلسفة حنا أرنت - تلميذة للفيلسوف الألمانى مارتن هيدجر - لآدم برجشتاين.
١٧٤- كروتشه فيلسوف الحرية - لايرابيلا دلورنتس.



هذا الكتاب الجميل:

شارع التنهدات

أنا لا أقدم لك الكاتب الكبير «أنيس منصور» .. وإنما أنا أشير فقط إلى أحدث إبداعاته الأدبية وترجمته الذاتية:

شارع التنهدات

أقصر شارع في مصر كلها .. هنا بدأ .. ولم يبدأ حياته الصحفية.. أو لم يكد يبدأ حتى وجد الشارع شارعين وثلاثة .. بل ميدانًا واسعًا .. وكانت حيرته وحيرتنا عظيمة.. فهو ليس كاتباً عادياً ولا مفكرًا تلقاه كل يوم.. وإنما هو نوعية نادرة من المفكرين الموسوعيين يحاول أن يفهم فى الفلسفة والأدب والفن والطب والفلك والسياسة والرحلات.. وهو لا يمل أن يقول: أحاول.. لعلى أكون مفهومًا لأقل الناس تخصصًا..

وقد حاول ونجح فكان صاحب أكثر الكتب انتشارًا فى العالم العربى. وقد احتفلت وزارة الثقافة ببيع النسخة المليون ونصف المليون من مؤلفاته..

وفى هذا الكتاب يرى أن كل إنسان له شارع اسمه (شارع التنهدات).. شارع يقول فيه: آه .. ويبدأ.. وتكون البداية صعبة.. صعبة: لأنه ينظر إليها عن قرب وعن بعد وبعيون الآخرين بألف عين وألف أذن..

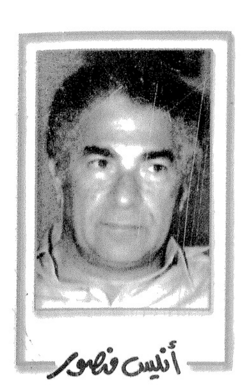
ومهما تعددت المعانى وتنوعت الدرجات اللونية لها، فمن المؤكد أن هذا الكاتب الكبير سوف يجعل كل ذلك واضحًا ملموسًا وجميلاً. كيف؟ هذه هى قدرته الفذة.

ولسبب غريب عجيب أحس كاتبنا الكبير أنيس منصور أن شيئًا ما سوف يحدث له. سوف يمنعه من إكمال هذا الكتاب.. كأن يمرض – ولقد أحزننى عندما قال لى ذلك ولم يشر إليه فى مقدمة هذا الكتاب.

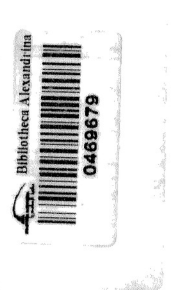
فلم يكد يوقع بإمضائه على آخر صفحة حتى نقلوه إلى (غرفة الإنعاش) فى مستشفى بالقاهرة.. ومنه إلى (غرفة الإنعاش) بمستشفى (أوتيل ديو) فى باريس..

وحمدًا لله على سلامته وسلامة قلمه وقلبه وعقله.. كسبًا عظيمًا للأدب والفلسفة، وشكرًا لله الذى منَّ عليه وعلينا وعلى قيم الصدق والإخلاص والتفانى بالصحة والعافية..

(الناشر)







6 221133 302296